جامعة الأزهر الشريف
كلية أصول الدين
بالقاهرة

الدخيل
في
تفسير القرآن الكريم

تأليف
الدكتور عبد الوهاب عبد الوهاب فايد
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

الجزء الثاني

١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أنزل على رسوله الكتاب المبين ، هدى وموعظة للمتقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا هو الجزء الثانى من كتابنا : (الدخيل فى تفسير القرآن الكريم) ، يتضمن الحديث عن أنواع أخرى من الدخيل تضاف إلى النوع الأول الذى فصلناه تفصيلا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو الإسرائيليات فى التفسير .

وأرجو أن تكون — أيها القارىء الكريم — على ذكر من معنى الدخيل فى التفسير ، فقد سبق أن شرحناه لك فى الجزء الأول من كتابنا هذا ، وقلنا : إنه عبارة عن التفسير الذى ليست له أصول ثابتة فى الدين ، كأن يكون مخالفاً لروح القرآن الكريم ، أو منافياً للعقل السليم ، أو ناشئاً عن فهم سقيم ، أو نابعاً من فكر وافد على الإسلام دين الله القويم .

ذلك هو الدخيل فى التفسير ، وهو علم من علوم القرآن الكريم ، عرف — عند المفسرين الأقدمين — باسم (أصول التفسير) ، وكان شيخ الإسلام (ابن تيمية) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ . — فيما أعلم — من أوائل العلماء الذين

طرقوا هذا الباب ، وأصلوا قواعد هذا العلم ، حيث كتب رسالة قيمة ومفيدة فى هذا المجال ، أسماها : (مقدمة في أصول التفسير) .

وفى عصرنا الحاضر بعث هذا العلم من جديد ، ونشطت حركة التأليف فيه ، والذى أدى إلى ذلك هو أنه ظهرت — فى عصرنا هذا — جماعة من الأدعياء ، اقتحموا ميدان التفسير بآراء غريبة ، وأفكار شاذة ، فتصدى الأثبات من العلماء لمحاربة هذه التيارات المنحرفة ، وبينوا ما تنطوى عليه هذه الأفكار الدخيلة من فساد وبطلان ، ومن أبرز الكتب التي ألفت فى هذا العلم وأكرمها ما كتبه أستاذنا الجليل الدكتور محمد حسين الذهبي — رحمه الله تعالى — فقد ألف كتابين عظيمين فى هذا المجال . وهما : (الاسرائيليات في التفسير والحديث) و (الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن الكريم) .

هذا — وأرجو أن يضع كتابى هذا لبنة أخرى فى بناء صرح هـذا العلم ، وتثبيت قواعده ، كما أرجو أن يكون هذا الكتاب سلاحاً نافعاً فى الذود عن حمى كتاب الله العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

والله أسأل أن يوفقنى إلى إتمام ما بدأت فيه من عمل ، إن ربى سميـع مجيب ، « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

د . عبد الوهاب عبد الوهاب فايد
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

القاهرة فى يوم الجمعة الموافق :
١٣ من المحرم سنة ١٤٠١ هـ
٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٠ م

الفصل الأول

الأحاديث الموضوعة فى التفسير

الحديث الموضوع – فى اصطلاح علماء الإسلام – هو المختلق المصنوع الذى ينسب – كذباً – إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إلى أحد من الصحابة والتابعين ، وهو شر أنواع الأحاديث الضعيفة وأقبحها ، وإذا ما أطلق الحديث الموضوع فإنه ينصرف إلى الموضوع على الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما الموضوع على غيره – عليه الصلاة والسلام – فينبغى تقييده بأن يقال : هذا حديث موضوع على ابن عباس أو على مجاهد مثلا .

والوضع فى الحديث من أكبر الكبائر ، وأعظم الذنوب ، بل عده بعض العلماء كفراً ، فقد جزم الشيخ أبو محمد الجوينى – والد إمام الحرمين – بتكفير واضع الحديث[1] ، ووافق الجوينى على هذه المقالة جماعة من العلماء ، وفى ذلك يقول أحد أساتذتنا الأجلاء : « جمهور العلماء على أن الكذب على رسول الله من الكبائر ، ولا يكفر فاعل ذلك إلا إذا كان مستحلا للكذب عليه ، وقال الإمام أبو محمد الجوينى – والد إمام الحرمين – من أئمة الشافعية : « يكفر من تعمد الكذب على رسول الله » نقل ذلك عنه ابنه إمام الحرمين ، وقال : « إنه لم يره لأحد من الأصحاب وأنه هفوة من والده » ، ووافق الجوينى على هذه المقالة ناصر الدين بن المنير من أئمة المالكية ، وغيره من الحنابلة ، ووافقهم الإمام الذهبى فى تعمد الكذب فى الحلال والحرام ، ولعل مما يشهد لهم قوله تعالى : « إنما يفترى الكذب الذين لا يأمنون بآيات

---

(١) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٤ .

الله[1] » . فقد نفت الآية الإيمان عمن يفترى الكذب على الله ، والكذب على الرسول كذب على الله — أقول — لعل مراد هؤلاء من تعمد ذلك ، أو أنهم قالوه على سبيل المبالغة فى الزجر والتنفير منه[2] » .

ومن علمائنا المعاصرين الذين صوبوا ما ذهب إليه الإمام أبو محمد الجوينى من تكفير واضع الحديث الشيخ محمد أحمد شاكر حيث يقول — رحمه الله — : « وقد جزم الشيخ أبو محمد الجوينى — والد إمام الحرمين — بتكفير من وضع حديثاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصداً إلى ذلك عالما بافترائه ، وهو الحق[3] » .

والحديث الموضوع لا تجوز روايته إلا مقرونا ببيان وضعه ، فاذا ما علم الشخص بأن هذا الحديث موضوع فانه يحرم عليه روايته فى كتاب أو ذكره فى حديث إلا إذا قرنه ببيان أنه موضوع ، لأن البيان — فى هذه الحالة — يزيل من ذهن القارىء أو السامع شبهة الاعتقاد فى صحة نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد شنع الإمام ابن الجوزى على جهلة المحدثين الذين يتساهلون فى رواية الأحاديث الموضوعة دون أن ينبهوا على وضعها ، فقال : « ومن تلبيس إبليس على علماء المحدثين رواية الحديث الموضوع من غير أن يبينوا أنه موضوع ، وهذه جناية منهم على الشرع ، ومقصودهم ترويج أحاديثهم ، وكثرة مروياتهم[4] » .

والأصل فى تحريم هذا كله هو أن الكذب — بصفة عامة — محرم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وورد ذلك فى كثير من الآيات القرآنية

---

(١) سورة النحل : ١٠٥ .

(٢) فى أصول الحديث : الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبه ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) الباعث الحثيث : شرح إختصار علم الحديث ، ص ٨٦ .

(٤) تلبيس إبليس ص ١١٨ .

والأحاديث النبوية . وأما الكذب على رسول الله ﷺ بوجه خاص فهو أشد جرماً ، وأعظم إثماً ، لأن الكذب على الرسول ﷺ بمثابة الكذب على الله تعالى ، وأن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، قال ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[1] » ، وقال عليه الصلاة والسلام: « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين[2] » .

متى بدأ الوضع ؟

اتسعت الفتوحات الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، وانتصر الإسلام انتصاراً ساحقا على أعدائه من الفرس والروم ، ونتج عن ذلك أن انتشر الإسلام فى كل مكان ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، إلا أن بعض أولئك الذين دخلوا فى الإسلام لم يعتنقوا الإسلام عن عقيدة واقتناع ، بل اعتنقوه على دخل ونفاق ، وذلك لكى يطعنوا الإسلام من الداخل بعد أن عجزوا عن أن يطعنوه أو يوجهوا إليه الضربات من الخارج، ومن هنا أخذوا يدسون الأباطيل والترهات فى تعاليمه . ويزرعون الشكوك والشبهات فى نفوس أتباعه ، وكان من الوسائل التى لجأوا إليها فى هذا المضمار هو وضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ ، وترويج هذه الأحاديث الموضوعة بين الناس ، ولم يقف وضعهم للأحاديث عند حد معين ، بل كانوا يضعون الأحاديث فى مجالات الدين المختلفة ، ومن جملتها تفسير القرآن الكريم .

ولا ينبغى أن يغيب هنا عن الذاكرة — فى هذا الصدد — ما فعله

---

(١) أخرجه مسلم فى مقدمة كتابه (باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ) عن أبى هريرة ، وهو حديث متواتر .

(٢) أخرجه مسلم فى مقدمة كتابه عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة ، وقوله : (يرى) فيه روايتان : بضم الياء وبفتحها ، فأما من ضم الياء فمعناه : يظن ، وأما من فتحها فمعناه : يعلم . وقوله (الكاذبين) فيه روايتان أيضاً ، بكسر الباء وبفتحها ، أى بلفظ الجمع وبلفظ المثنى .

عبد الله بن سبأ اليهودى من تأليب الناس على الخليفة الراشد : عثمان بن عفان رضى الله عنه متستراً بالدخول فى الإسلام ، والتشيع لعلى بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، وقد نجح هذا اليهودى فى أمرين خطيرين ، كان لهما أسوأ الأثر فى حياة المسلمين السياسية والفكرية على السواء .

الأمر الأول : أنه أشعل بين المسلمين نار الفتنة ، حيث قام أتباعه بقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فانقسم المسلمون - تبعاً لذلك - إلى شيع وأحزاب ، من عثمانية يطالبون بدم الخليفة القتيل، وشيعة يؤيدون الخليفة الجديد ، وخوارج يتمردون - بعد ذلك - على ولاة الأمر ، وهكذا تفرقت كلمة المسلمين ، وتحطمت وحدتهم منذ ذلك الحين .

والأمر الثانى : أن هذا اليهودى وأتباعه الذين أظهروا التشيع لعلى كرم الله وجهه ، قاموا - فى سبيل الانتصار لعقائدهم الضالة - بدس الأباطيل فى الدين ، ووضع الأحاديث فى فضائل على كرم الله وجهه وغيرها ، وفى ضوء هذه الأحاديث التى وضعوها أرادوا أن يفسروا بعض آيات القرآن الكريم ، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويعتسفون فى التأويل ، ويلحدون في آيات التنزيل ، وبذلك أفسدوا على المسلمين الحياة الفكرية إلى جانب الحياة ما أفسدوه من حياة المسلمين السياسية .

إذن نستطيع أن نقول : إن الوضع فى الحديث واكب الفتنة ، وقد بدأ الوضع - كما يقول كثير من العلماء - سنة أربعين أو إحدى وأربعين من الهجرة[1] ، أى فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين وأوائل عصر بنى أمية .

ومما يجدر التنبيه إليه هنا أن الوضع فى الحديث لم يقع قط من صحابة

---

(١) انظر السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للدكتور مصطفى السباعى ص ٧٦ ، وفى أصول الحديث للدكتور محمد أبو شهبة ص ٧٢ ، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ١٥٨ .

الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته ولا بعد وفاته ، وإنما وقع من غيرهم ، كعبد الله بن سبأ اليهودى ومن على شاكلته ، ويرى الأستاذ أحمد أمين : أن الوضع فى الحديث بدأ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستدل على ذلك بحديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وفى ذلك يقول : « نشأ من عدم تدوين الحديث فى كتاب خاص فى العصور الأولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة ، وصعوبة حصر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعل فى مدة ثلاثة وعشرين عاما من بدأ الوحى إلى الوفاة ، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً إلى رسول الله ، ويظهر أن هذا الوضع حدث حتى فى عهد الرسول ، فحديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » يغلب على الظن أنه إنما قيل لحادثة حدثت زور فيها على الرسول » (١).

كما يذهب أستاذنا الدكتور محمد أبو زهو إلى قريب من هذا الرأى ، وإن كان يرى أن الوضع في الحديث لم ينتشر بكثرة ، ولم يظهر بصورة مزعجة إلا سنة ٤١ هـ فيقول : « ولما أن ولى عثمان رضى الله عنه ، ووقعت الفتنة فى زمنه ، وجد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أوقد نيران الفتنة ، وألب الناس على خليفة المسلمين حتى قتلوه ظلماً ، ثم لما ولى على ـ كرم الله وجهه ـ الخلافة ، وكان ما كان بينه وبين معاوية فى (صفين) افترق الناس إلى شيعة وخوارج وجمهور كما رأيت ، وهنا ظهر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد أمره من الشيعة والخوارج ودعاة بنى أمية ، لذلك يعتبر العلماء مبدأ ظهور الوضع فى الحديث من هذا الوقت (سنة ٤١ هـ) ، وهذا التحديد إنما هو لظهور الوضع في الحديث وإلا فقد وجد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، حتى في زمنه صلى الله وسلم ، ومن أجل ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»

---

(١) فجر الإسلام جـ ١ ص ٢٥٨ .

فما قال النبي عليه الصلاة والسلام ذلك إلا لحادثة وقعت في عصره ، كذب عليه فيها [1] » .

بيد أنى أرى أن هذا القول الذى يرجع بداية الوضع إلى عهد النبوة ، أو يوهم صدور الكذب من الصحابة عار من الصحة ، وبعيد كل البعد عن دائرة الصواب ، ذلك لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ، جميعاً عدول ، وقد أثنى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وزكاهم، فليس من المعقول إذن أن يكذبوا على رسول الله ﷺ اتباعاً لهوى أو رغبة فى دنيا ، أخرج البيهقى عن البراء قال : « ليس كلنا كان يسمع حديث النبي ﷺ ، كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن كان الناس لم يكونوا يكذبون ، فيحدث الشاهد الغائب » كما أخرجَ عن قتادة قال : « إن أنس حدث بحديث ، فقال له رجل : أسمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، أو حدثنى من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب، ولا كنا ندرى ما الكذب [2] » .

ويرحم الله الدكتور مصطفى السباعى ، فقد قام برد علمى مفصل على ما قاله الأستاذ أحمد أمين فى هذا الصدد ، قال الدكتور مصطفى السباعى : « قال صاحب (فجر الإسلام) ص ٢٥٨ ، متكلما عن نشأة الوضع : ويظهر أن هذا الوضع حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحديث « من كذب علي متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » يغلب على الظن أنه إنما قيل لحادثة زور فيها على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذا الذى استظهره لا سند له فى التاريخ الثابت ، ولا فى سبب الحديث المذكور ، كما جاء فى الكتب المعتمدة » .

---

(١) الحديث والمحدثون ص ٤٨٠ .

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ص ٧٨ ، نقلا عن كتاب : (مفتاح الجنة) .

أما التاريخ فقاطع بأنه لم يقع فى حياة الرسول أن أحداً ممن أسلم وصحبه زور عليه كلاما، ورواه على أنه حديثه عليه الصلاة والسلام، ولو وقع مثل هذا لتوافر الصحابة عن نقله لشناعته وفظاعته، كيف وقد كان حرصهم شديدا على أن ينقلوا لنا كل ما يتصل به ﷺ، حتى مشيه وقعوده، ونومه ولباسه، وعدد الشعرات البيض فى رأسه الشريف؟

وأما الحديث المذكور فقد اتفقت كتب السنة الصحيحة المعتمدة على أن الرسول إنما قاله حين أمرهم بتبليغ حديثه إلى من بعدهم، فقد أخرج البخارى - فى باب ماذكر عن بنى إسرائيل من طريق عبد الله بن عمرو - أن النبى ﷺ قال: « بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وروى مسلم من طريق أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وروى الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وروى الإمام أحمد عن أبى موسى الغافقى أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان آخر ما عهد إلينا أن قال: « عليكم بكتاب الله، وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عنى، فمن قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن حفظ شيئاً فليتحدث به » ورواه غيرهم أيضاً بهذا المعنى.

وظاهر من هذه الروايات أن النبى - وقد علم أن الإسلام سينتشر وسيدخل فيه أقوام من أجناس مختلفة - نبه بصورة قاطعة على وجوب التحرى فى الحديث عنه، وتجنب الكذب عليه بما لم يقله، ووجه الخطاب فى ذلك إلى صحابته، لأنهم هم المبلغون إلى أمته من بعده، وهم شهداء نبوته ورسالته، وليس فى هذه الروايات إشارة قط إلى أن هذا الحديث إنما قيل لوقوع تزوير على النبى ﷺ (١).

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٧٨، ١٧٩

ثم تناول الدكتور مصطفى السباعي - بالتضعيف - روايتين غريبتين في هذا المجال وردتا في بعض كتب الحديث ، وذكرتا سببا آخر للحديث غير ما تقدم ، وبعد أن بين وجوه الضعف في هاتين الروايتين قال : « بهذا نعلم أنه سواء كان سبب الحديث ما ذكرته كتب السنة المعتمدة ، أو ما جاء في هاتين الروايتين اللتين حكم عليهما بعض النقاد بعدم الصحة ، فليس فيه مايدل على حصول الوضع في عهد الرسول ، فاستظهار ذلك خطأ قائم على غير اساس فلا يصح الذهاب إليه ، لاسيما وأن من أول نتائجه نسبة الكذب إلى أصحاب الرسول عليه السلام ، وهو مناف للحق والواقع والمعروف من تاريخ هؤلاء الأصحاب ، ومخالف لما ذهب إليه جمهور المسلمين من عدالتهم على الإطلاق ، لم يشذ في ذلك إلا الشيعة وطوائف الخوارج والمعتزلة ، كما سبق - فان كان الأستاذ يريد بما استظهره الإشارة إلى هذا الرأى المنبوذ ، والتمهيد لما سيذكره عن أبي هريرة ، ونقد الصحابة بعضهم لبعض ، ليضع بذلك (أول لغم) في بناء السنة ، فقد أخطأ الطريق ، وجانب الحق ، وبنى أمراً خطيراً على ظنون لا يؤيدها تاريخ صحيح ولا حديث ثابت »[1] .

أسباب الوضع في التفسير .

لا فرق بين أسباب الوضع في التفسير وأسباب الوضع في الحديث ، فالأسباب واحدة ، لأن التفسير - في عصر صدر الإسلام - كان يعتبر باباً من أبواب الحديث ، وقسماها مامن أقسامه ، فهؤلاء الذين كانوا يفسرون القرآن آنذاك - إنما كانوا يفسرونه بالمأثور ، أي بما ورد عن الرسول ﷺ ، أو ما نقل عن الصحابة والتابعين .

ومن ثم فان الوضع في الحديث شمل - فيما شمل - مجال التفسير ، ذلك لأن الوضاعين لم يضعوا الأحاديث في غرض واحد ، بل كانوا يضعون الأحاديث في أغراض متعددة ، وفنون شتي ، كانوا يضعون الأحاديث في فضائل

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠ ، ١٨١

الأشخاص والأمكنة والأزمان ، وفى الترغيب والترهيب ، وفى الحلال والحرام وفى الزهد والتصوف ، وفى الوعظ والقصص ، وأيضاً كانوا يضعون الأحاديث فى فضائل القرآن وفى التفسير بوجه عام .

والأسباب التي دعت الوضاعين إلى الوضع كثيرة ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، ويمكننا هنا أن نوجز هذه الأسباب فيما يلى :

أولا : الزندقة :

ونعنى بها كراهية الإسلام دينا ودولة ـ فقد ظهر فى العصور الأولى للاسلام جماعة من الزنادقة كانوا يعتنقون الإسلام فى الظاهر ، ويبطنون الكفر فى قلوبهم ، وهؤلاء الزنادقة كانوا دائماً حربا على الإسلام والمسلمين، فبين حين وآخر كانوا يكيدون للاسلام بدس الترهات والأباطيل ، وترويجها بين الناس على أنها من تعاليم الدين ، وكانوا يقصدون ـ من وراء ذلك ـ فتنة المؤمنين فى دينهم ، وإثارة البلبلة فى نفوسهم ، وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية، ولقد كانوا ـ فى كثير من الأحيان ـ يضعون الأحاديث التى تتضمن بعض هذه الترهات والأباطيل ، وينسبونها ـ كذبا ـ إلى الرسول ﷺ أو إلى أحد من الصحابة والتابعين ، لكى تروج بين الناس على أنها من سنة الرسول ﷺ ، وبذلك يفسدون على الناس دينهم .

ومن هؤلاء الزنادقة عبد الكريم بن أبى العرجاء الذى قتل وصلب فى زمن المهدى ، قال ابن عدى : لما أخذ ليضرب عنقه قال : « وضعت فيكم أربعة آلاف حديث ، أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام » (١) .

ومنهم بيان بن سمعان النهدى الذى ظهر بالعراق بعد المائة ، وادعى ـ لعنه الله ـ إلاهية علىّ كرم الله وجهه ، وزعم مزاعم فاسدة ، فقتله خالد ابن عبد الله القسرى على ذلك وأحرقه بالنار (٢) .

---

(١) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٤

(٢) الباعث الحثيث ص ٩٢ والملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٣٦ .

ومنهم محمد بن سعيد الشامي المصلوب ، قال أحمد بن حنبل : « قتله أبو جعفر المنصور فى الزندقة ، حديثه حديث موضوع » [1] وحكى عنه الحاكم أنه روى عن حميد عن أنس مرفوعا . « أنا خاتم النبيين لا نبي بعدى إلا أن يشاء الله » وقال : وضع هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة والدعوة إلى التنبي [2] .

والخلاصة أن الزنادقة وضعوا طائفة كبيرة من الأحاديث يفسدون بها الدين ، فقد روى العقيلي بسنده إلى حماد بن زيد قال : « وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث » [3] ولكن الله جل شأنه ـ قيض للأمة الإسلامية من يحفظ لها دينها من إفساد هؤلاء الزنادقة وعبثهم ، فقام جهابذة الحديث ونقاده ببيان هذه الأحاديث الموضوعة ، وكشفوا للناس عن زيفها وبطلانها ، قيل لعبد الله بن المبارك · هذه الأحاديث الموضوعة ، فقال : تعيش لها الجهابذة « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [4] .

ثانياً : الخلافات السياسية والدينية :

فقد انقسم المسلمون ـ بعد مقتل عثمان وخلافة علي ـ إلى فرق متعددة ، كالشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغير ذلك ، وكان لكل فرقة من هذه الفرق مذهب وآراء فى السياسة والدين ، كما كانت كل فرقة تحاول أن تتلمس سنداً شرعياً لمذهبها وآرائها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فاذا لم تجد دليلا صريحاً فى القرآن لجأت إلى التعسف فى تأويل النصوص ، وتحميل ألفاظ القرآن ما لا تحتمل ، وأيضاً إذا لم تجد ما يؤيدها من السنة سارعت إلى وضع الأحاديث انتصاراً لرأيها ، وتشهيراً بغيرها .

---

(١) الباعث الحثيث ص٩٢ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجي ج٢ ص٤٠٧

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٨ وتدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٤

(٣) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٤

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٢ والآية هى رقم ٩ من سورة الحجر .

والرافضة [1] ـ وهم طائفة من غلاة الشيعة ـ أكثر هذه الفرق كذبا ووضعا للحديث ، فقد سئل مالك بن أنس رضى الله عنه عن الرافضة ، فقال: « لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون » وقال شريك بن عبد الله القاضى ـ وقد كان معروفاً بالتشيع مع الاعتدال فيه : « أحمل عن كل من لقيت إلا الرافضة فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا » [2] وروى الخطيب بسنده عن حماد ابن سلمة قال : « أخبرنى شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع الأحاديث » [3] .

أما الخوارج فقد كان بعضهم يضع الأحاديث ـ وان كان وضعهم للحديث قليلا إذا قيسوا بغيرهم من أصحاب البدع والأهواء ـ ذكر القرطبي ـ فى مقدمة تفسيره ـ أن شيخاً من شيوخ الخوارج قال ـ بعد أن تاب ـ « إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا ممن تأخذون دينكم فانا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً » [4] .

وأما المرجئة فقد وضعوا الأحاديث نصرة لآرائهم ، قال الحاكم : « كان محمد بن القاسم الطايكانى من رءوس المرجئة ، وكان يضع الحديث على مذهبهم » [5] .

---

(١) الرافضة فرقة من شيعة الكوفة ، سموا بذلك لأنهم رفضوا أى تركوا زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم حين نهاهم عن الطعن فى الصحابة ، فلما عرفوا مقالته ، وأنه لا يبرأ من الشيخين رفضوه ، ثم استعمل هذا اللقب فى كل من غلا فى هذا المذهب ، وأجاز الطعن فى الصحابة . اهـ من المصباح المنير .

(٢) السنة ومكانتها من التشريع الإسلامى ص ٧٩ ، ٨٠ نقلا عن كتاب منهاج السنة .

(٣) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٥

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٨

(٥) تدريب الراوى ج١ ص ٢٨٥

وبالجملة فان أصحاب البدع والأهواء كان لهم دور بارز فى هذا المجال ، روى ابن حبان ـ فى الضعفاء ـ بسنده إلى عبدالله بن يزيد المقرىء قال : « ان رجلا من أهل البدع رجع عن بدعته فجعل يقول : أنظروا هذا الحديث عمن تأخذونه ، فانا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً »[1] .

ولقد تنبه المحدثون ـ منذ عصر مبكر من عصور الإسلام ـ إلى هذه الظاهرة السيئة التى اشتهر بها أصحاب البدع والأهواء ، ألا وهى ظاهرة الوضع فى الحديث ، فكانوا لا يقبلون حديثهم ولا يروون عنهم ـ روى مسلم فى صحيحه عن ابن سيرين قال : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »[1] .

هذا ما يتعلق بالخلافات العقدية ، أما مايتعلق بالخلافات الفقهية فقد حملت هذه الخلافات بعض الفقهاء من الجهلة المتعصبين الى وضع الأحاديث للتنويه بامام دون إمام ، أو نصرة رأى فقهى على آخر وهلم جرا .

قال الإمام السيوطى ـ رحمه الله ـ بصدد الحديث عن أمثلة من هذه الأحاديث الموضوعة . « قيل لمأمون بن أحمد الهروى : ألا ترى إلى الشافعى ومن تبعه بخراسان ، فقال : حدثنا أحمد بن عبد الله ـ حدثنا عبيد الله بن معدان الأزدى عن أنس مرفوعا : « يكون فى أمتي رجل يقال له : محمد بن ادريس أضر على أمتى من إبليس ، ويكون فى أمتي رجل يقال له : أبو حنيفة ، هو سراج أمتى ، هو سراج أمتى » وقيل لمحمد بن عكاشة الكرمانى : إن قوما يرفعون أيديهم فى الركوع وفى الرفع منه ، فقال حدثنا المسيب بن واضح ، حدثنا ابن المبارك عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن أنس مرفوعا : من رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له »[3] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) أخرجه مسلم فى مقدمة كتابه ـ باب بيان أن الإسناد من الدين .

(٣) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

ثالثاً : استهواء العامة والتكسب بالوعظ والقصص :

فقد ظهرت — فى زمن التابعين وتابعيهم — جماعة يعظون الناس فى المساجد والأسواق ، كانوا يعرفون بالقصاص، وكانوا يتكسبون مما يلقونه على الناس من قصص وعظات ، وأحاديث وحكايات ، وكلما كان القصص منهم أغرب كان التفات الناس حولهم أشد ، وعطاء الناس لهم أكثر ، ولقد كان هؤلاء القصاص يستميلون الناس ويستهوونهم بالغرائب والمناكير ، والأباطيل والأساطير ، وكانوا — فى هذا المجال — يستبيحون لأنفسهم الكذب فى الحديث، فيضعون على رسول الله ﷺ - كما يقول الإمام القرطبي - أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها ، ثم يذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد (١) ، وكان لهم فى ذلك جرأة ووقاحة وصفاقة وجه ، ويذكر المحدثون — فى هذا الصدد — قصة مشهورة عن الإمام أحمد بن حنبل ويحي ابن معين ، فقد روى ابن الجوزى باسناده إلى أبى جعفر بن محمد الطيالسى قال : « صلى أحمد بن حنبل ويحي بن معين فى مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحي بن معين ، قالا : حدثنا عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان ، وأخذ فى قصة نحوا من عشرين ورقة ، فجعل الإمام أحمد بن حنبل ينظر إلى يحي بن معين ، وجعل يحي بن معين ينظر إلى أحمد ، فقال له : حدثته بهذا؟ فيقول : والله ما سمعت هذا إلا الساعة ، فلما فرغ من قصصه أخذ العطيات ثم قعد ينتظر بقيتها ، فقال له يحي بن معين بيده : تعال ، فجاء متوهما لنوال فقال له يحي : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحي بن معين ، فقال : أنا يحى بن معين ، وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ ، فقال : لم أزل أسمع أن يحي بن معين أحمق ، ما تحققت هذا إلا الساعة ، كأن ليس يحي بن معين وأحمد بن حنبل غير كما،

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٧٩ .

وقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحي بن معين ، فوضع أحمد كمه على وجهه ، وقال : دعه يقوم ، فقام كالمستهزىء بهما » [1] .

ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء القصاص الجهال الذين تشبهوا بأهل العلم ، وتجرؤوا علي أن يكذبوا على الله ورسوله قد وجدوا من العامة آذاناً صاغية ولقي العلماء منهم أذى كثيرا ، وعنتاً كبيرا . فقد ذكر السيوطي في كتابه : (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) أن أحد هؤلاء القصاص جلس ببغداد ، فروى تفسير قوله تعالي : « عسي أن يبعثك ربك مقاما محمودا [2] » وزعم أن النبي ﷺ يجلس مع الله على عرشه ، فبلغ ذلك محمد بن جرير الطبري — المفسر — فغضب من ذلك ، وبالغ في إنكاره ، وكتب على باب داره : (سبحان من ليس له أنيس ، ولا له على عرشه جليس) فثارت عليه عوام بغداد ، ورجموا بيته بالحجارة ، حتى استد بابه بالحجارة وعلت عليه [3] .

رابعاً : الجهل بالدين مع القصد الحسن :

وهو ما فعله بعض الزهاد والعباد والجهلة ، فقد كانوا يضعون الأحاديث — في مجال الترغيب والترهيب — حسبة ، زاعمين أنهم بذلك يتقربون إلى الله ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وإذا ما حاول أحد أن يقدم النصح لهم ، وينبههم إلي قبح صنعهم ، وأنهم داخلون تحت طائلة الوعيد الشديد الذى جاء في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمدا فليتبوأ

(1) الباعث الحثيث ص ٩٣ ، ٩٤ وقد شكك الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه : (في أصول الحديث) ص ٧٦ في صحة هذه القصة التي تحكى عن أحمد بن حنبل ويحي بن معين ، ولكنه قال : إن التشكك لا يعود على أصل الفكرة بالنقض .

(2) سورة الإسراء : ٧٩ .

(3) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامى ص ٧٦ نقلا عن كتاب (الاسلام والحضارة) .

مقعده من النار » فان هؤلاء الجهلة يقولون : « نحن ما كذبنا عليه ، وإنما كذبنا له » أى لصالح الدين فى زعمهم الفاسد .

وفى مقدمة من أستباح هذا العمل القبيح طائفة تسمى « بالكرامية »[1] جوزت — كما يقول السيوطى فى التدريب — وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب ، واستدلوا على ذلك — بما روى فى بعض طرق الحديث : « من كذب علي متعمداً ليضل به الناس » ، وحمل بعضهم حديث : « من كذب علي » أى قال إنه شاعر أو مجنون ، وقال بعضهم : إنما نكذب له لاعليه ، قال السيوطى — « وهو — أى الذي قالوه من جواز الوضع فى الترغيب والترهيب — خلاف إجماع المسلمين الذين يعتد بهم[2] » .

وقد شنع كثير من العلماء على هؤلاء وأمثالهم الذين يظن بهم الصلاح فى الدين ، فينخدع الناس فيهم بتصديق مايضعون من أحاديث ، وقام العلماء كذلك بالرد على الشبهة التى تعلقوا بها فى هذا المجال ، وبينوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايحتاج فى كمال شريعته إلي مايختلقه هؤلاء الوضاعون ، فعملهم هذا إنما يدل على كمال جهلهم وقلة عقلهم ، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير : « ومنهم — أى من الذين يضعون الحديث — متعبدون ، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، يضعون أحاديث فيها ترغيب وترهيب ، وفى فضائل الأعمال ، ليعمل بها ، وهؤلاء طائفة من الكرامية وغيرهم ، وهم من أشر مافعل هذا ، لما يحصل بضررهم من الغرر على كثير ممن يعتقد صلاحهم ، فيظن صدقهم ، وهم شر من كل كذاب فى هذا الباب ، وقد انتقد الأئمة كل شيء فعلوه من ذلك ، وسطروه عليهم فى زبرهم ، عارا على واضعى ذلك فى

---

(١) الكرامية — بتشديد الراء — جماعة من المبتدعة ينسبون الى زعيم لهم يسمى : محمد بن كرام أحد المتكلمين الذين يذهبون الى التجسيم والتشبيه فى ذات الله تعالى وصفاته « تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا » .

(٢) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ بتصرف .

الدنيا ، ونارا وشنارا فى الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وهذا متواتر عنه ، قال بعض هؤلاء الجهلة : نحن ماكذبنا عليه ، إنما نكذب له ، وهذا من كمال جهلهم ، وقلة عقلهم ، وكثرة فجورهم وافترائهم ، فانه عليه السلام لايحتاج فى كمال شريعته وفضلها إلى غيره »[1] .

ومن هذا المنطلق وضع جماعة من الجهال كثيراً من الأحاديث في فضائل القرآن ترغيباً للناس فى تلاوته ، وعللوا ذلك بأنهم وجـدوا الناس قد انصرفوا عن القرآن ، وانشغلوا عنه بعلوم أخرى ، فوضعوا من الأحاديث فى فضل القرآن مايحبب الناس فى قراءته والإقبال عليه ، ولقد كان لما صنعه هؤلاء الجهلة من الوضاعين أثر سيء فى كتب المسلمين ، فوجدنا بعض العلماء الذين لاخبرة لهم بفن الحديث ، وليست لديهم معرفة بطرقه ورجاله يحشدون فى كتبهم ومؤلفاتهم هذا النوع من الأحاديث الموضوعة التي تذكر فى باب الترغيب والترهيب ، ومن هؤلاء الإمام (أبو حامد الغزالى) — وهو أحد رجال التصوف البارزين — فقد ملأ كتابه : (إحياء علوم الدين) بالأحاديث الموضوعة ، من غير أن يتنبه إلى أنها موضوعة فضلا عن أن ينبه عليها .

قال ابن الجوزى — رحمه الله — : « وجاء أبو حامد الغزالى فصنف لهم — أى للمتصوفة — كتاب (الإحياء) على طريقـــة القوم ، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لايعلم بطلانها »[2] ،

خامساً : التزلف إلى الخلفاء والأمراء :

فقد قام بعض علماء السوء بوضع الأحاديث التى يظن أنها ترضى هوى الخلفاء ، وتنيل الحظوة لديهم ، والقرب منهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ،

---

(١) الباعث الحثيث ص ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٦ .

وكذبوا على رسول صلى الله عليه وسلم ، رغبة فى دنيا يصيبونها ، أو متاع زائل يحصلون عليه .

ومن أمثلة ذلك ما فعله غياث بن إبراهيم النخعي فقد دخل على المهدى العباسي — وكان المهدى يحب الحمام ويلعب به — فاذا أمامه حمام ، فقيل له : حدث أمير المؤمنين ، فقال : حدثنا فلان عن فلان أن النبي ﷺ قال : «لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر أو جناح » وزاد فى الحديث (أو جناح) ، فأمر له المهدى بجائزة، فلما قام قال : أشهد على قفاك أنه قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال المهدى : أنا حملته على ذلك ، ثم أمر بذبح الحمام ، ورفض ما كان فيه [1] .

ويروى أن هذه الحكاية إنما حدثت مع الخليفة هارون الرشيد، وأن الذى تولى كبرها قاض من قضاة الرشيد ، اسمه أبو البختري ، وأن الرشيد لما أمر بالحمام أن يذبح قيل له : وما ذنب الحمام ! فقال : من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

ومن أمثلة هذا النوع كذلك ما فعله مقاتل بن سليمان مع المهدى العباسى فقد حكى أبو عبد الله وزير المهدى قال : قال المهدى : ألا ترى إلى ما يقول لى هذا — يعنى (مقاتلا) — ! قال : إذا شئت وضعت لك أحاديث فى العباس ، قلت : لا حاجة لى بها [3] .

---

(١) الباعث الحثيث ص ٩٤ وتدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) الباعث الحثيث ص ٩٤ .

سادساً : التعصب للجنس أو المكان :

فقد وضعت الشعوبية [1] بعض الأحاديث التى تفضل الفرس على العرب، واللغة الفارسية على غيرها ، مثل حديث « أن كلام الله حول العرش بالفارسية، وأن الله إذا أوحى أمراً فيه لين أوحاه بالفارسية ، وإذا أوحى أمرا فيه شدة أوحاه بالعربية » قال الشوكانى : « هذا الحديث رواه ابن عدى عن أبى أمامة مرفوعا ، وهو موضوع وباطل لا أصل له ، وكل ما ورد فى هذا المعنى فهو موضوع ، وقد تعسف من زعم غير ذلك » [2] .

كذلك وضعت أحاديث فى فضل بعض البلدان بدافع التعصب الممقوت مثل حديث : « جنان هذه الدنيا دمشق من الشام ، ومرو من خراسان وصنعاء اليمن ، وجنة هذه الجنان صنعاء » ـ قال الشوكاني : « وقد توسع المؤرخون فى ذكر الأحاديث الباطلة فى فضائل البلدان ، ولا سيما بلدانهم ، فانهم يتساهلون فى ذلك غاية التساهل ، ويذكرون الموضوع ولا ينبهون عليه، فليحذر المتدين من اعتقاد شيء منها أو روايته ، فان الكذب فى هذا قد كثر ، وجاوز الحد ، وسببه ما جبلت عليه القلوب من حب الأوطان والشغف بالمنشأ » [3] .

أمارات الوضع :

الأمارات التى تدل على الوضع كثيرة ، ويمكننا أن نقسم هذه الأمارات إلى قسمين القسم الأول : أمارات فى سند الحديث ، والقسم الثانى : أمارات فى متن الحديث .

---

(١) الشعوبية ــ بالضم ــ فرقة تحقر أمر العرب ،و تفضل العجم عليهم ، وإنما نسب إلى الجمع لأنه صار علما لغلبته على الجيل الواحد كالأنصار .

(٢) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣١٤ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ بتصرف .

أما أمارات الوضع فى السند فأهمها ما يلى :

١ — أن ينفرد برواية الحديث راو معروف بالكذب لدى علماء الجرح والتعديل ، بحيث لا يشاركه فى رواية هذا الحديث أحد من الثقات ، فتلك أمارة قوية على أن هذا الحديث موضوع ، ومثال ذلك حديث : « أن ابن عباس قال : سألت النبي ﷺ عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه — قال : سأل بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت على فتاب عليه » قال الدارقطنى : « تفرد به عمرو بن ثابت وقد قال يحيى : إنه لا ثقة ولا مأمون ، وقال ابن حبان : يروى الموضوعات »[١] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن علماء الجرح والتعديل لهم معرفة واسعة بالوضاعين والكذابين ، قال النسائى : « الكذابون المعروفون بوضع الأحاديث أربعة : ابن أبى يحيى بالمدينة ، والواقدى ببغداد ، ومقاتل بخراسان ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام »[٢] وأيضاً ذكر السيوطى أن أوهى الطرق إلى ابن عباس هو طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس ، فان انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب »[٣] .

٢ — أن يقر الراوى بأنه وضع الحديث ، فيؤخذ حينئذ باقراره ، لأن الإقرار — كما يقولون — سيد الأدلة ، ومثال ذلك الحديث الذى رواه نوح ابن أبى مريم عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة فقد اعترف نوح بوضعه ، وقال : « إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة »[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٣) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٤) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٨٢ .

كما اعترف ميسرة بن عبدربه بأنه وضع حديثاً مماثلا فى فضائل القرآن ، فقد قيل لميسرة : من أين جئت بهذه الأحاديث ، من قرأ كذا فله كذا ، قال : وضعتها أرغب الناس [1] .

٣ — أن يروى الراوى الحديث عن شيخ لم يثبت لقياه له كأن يكون الشيخ قد مات قبل أن يولد هذا الراوى ، وقد اهتم المحدثون بمعرفة وفيات الرواة ومواليدهم ومقدار أعمارهم ، وهو فن عظيم يعرف به اتصال السند وانقطاعه ، ويعرف به كذلك الكذابون والمدلسون ، قال سفيان الثورى : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » وقال حفص بن غياث : « إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين » — يعنى سنه وسن من كتب عنه ، وقال حسان بن يزيد : « لم نستعن على الكذابين بمثل التاريخ ، نقول للشيخ : سنة كم ولدت ؟ فاذا أقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه [2] .

وفى هذا المجال يذكر المحدثون بعض الحوادث الطريفة التي تعرفوا فيها — بواسطة التاريخ — على الكذابين من الرواة الذين لم يثبت لقياهم لمن يروون عنهم ، ومن هذه الطرائف ما ذكره الحاكم — قال : « لما قدم علينا محمد بن حاتم الكشى فحدث عن عبد بن حميد ، سألته عن مولده ، فقال : إنه ولد سنة ستين ومائتين ، فقلت لأصحابنا : إنه يزعم أنه سمع منه بعد موته بثلاث عشرة سنة »[3] .

٤ — أن تدل الحالة النفسية للراوى على كذبه فيما يرويه ، ومثال ذلك ماأخرجه الحاكم عن سيف بن عمر التميمى قال : « كنت عند سعد بن طريف فجاء ابنه من الكتاب يبكى ، فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم ، قال : لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : معلمو صبيانكم شراركم ،

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٣

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٥٠

(٣) الباعث الحثيث ص ٢٦٧

أقلهم رحمة ليتيم ، وأغلظهم على المسكين »[1] .

فهذا الحديث قد دلت على وضعه قرينة فى الراوى ، وهذه القرينة تتمثل فى حالة الغضب التى سيطرت عليه ، بسبب ضرب المعلم لولده ، فدفعته إلى اختلاق هذا الحديث ، وذلك واضح من تصدير الحديث بقوله : (لأخزينهم اليوم) .

هذا مايتعلق بأمارات الوضع التي تكون فىسند الحديث أىرواته ورجاله، وأما الأمارات التى تكون فى متن الحديث أى نصه ولفظه فاليك بيانها :

١ ـ أن يكون الحديث ركيكا ، ولا يعقل أن يصدر عن الرسول ﷺ الذى أعطى جوامع الكلم، فتلك قرينة قوية تشهدللحديث بالوضع ، والركاكة قد تكون راجعة إلىاللفظ , وقد تكون راجعة إلىالمعنى ، وقد تكون راجعة إلى الأمرين معاً ، قال الحافظ ابن حجر : « المدار فى الركة على ركة المعنى ، فحيثما وجدت دلت على الوضع ، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ ، لأن هذا الدين كله محاسن ، والركة ترجع إلى الرداءة ، أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك ، لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغير ألفاظه بغير فصيح , نعم إنصرح بأنه من لفظ النبي ﷺ فكاذب »[2] .

وقال الربيع بن خيثم : « إن للحديث ضوءا كضوء النهار تعرفه، وظلمة كظلمة الليل تنكره » ، وقال ابن الجوزى : « الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه فى الغالب » ، وقال البلقينى : « وشاهد هذا أن إنساناً لو خدم إنساناً سنين ، وعرف ما يحب وما يكره ، فادعى إنسان أنه كان يكره شيئاً يعلم ذلك أنه يحبه ، فبمجرد سماعه يبادر إلى تكذيبه»[3] .

٢ ـ أن يكون مخالفاً لصريح القرآن الكريم ، أو السنة النبوية أو

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٧٧

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٦

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

الإجماع القطعي ، فهذا يدل على أن الحديث موضوع ، فمثال مايخالف صريح القرآن حديث : « إذا روى عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله فاذا وافقه فاقبلوه ، وإن خالفه فردوه » فقد ذكر الشوكانى أن هذا الحديث من وضع الزنادقة ، ثم قال : « على أن فى هذا الحديث الموضوع نفسه مايدل على رده ، لأنا إذا عرضناه على كتاب الله عز وجل خالفه ، فى كتاب الله عز وجل : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(1) ونحو هـــذا من الآيات »(2) .

ومثال ما يخالف السنة الصحيحة حديث : « إذا حدثتم عنى بحديث يوافق الحق فخذوا به ، حدثت به أو لم أحدث » فهو مناقض لقول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح المتواتر ـ «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ومثال مايخالف الإجماع القطعي حديث : « من قضي صلوات من الفرائض فى آخر جمعة من رمضان كان ذلك جابرا لـكل صلاة فاتته فى عمره إلى سبعين سنة » فان هذا يخالف ماأجمع عليه علماء الإسلام من أن الصلاة الفائتة لا تسقط عن المـكلف بحال ، ولا يقوم مقامها شيء من العبادات الأخرى .

٣ ـ أن يكون مخالفاً للعقل بحيث لا يقبل التأويل ، ويلتحق به مايدفعه الحس والمشاهدة ، ومثال ذلك ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعا : « إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا ، وصلت عند المقام ركعتين »(3) ، وقد عرف عبد الرحمن بن زيد هذا بمثل هذه الغرائب ، حتى قال الشافعي ـ فيما نقله صاحب التهذيب ـ : « ذكر رجل لمالك ـ يعنى الإمام ـ حديثاً منقطعاً ، فقال : اذهب إلى عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يحدثك عن أبيه عن نوح »(4) .

(1) سورة الحشر : ٧

(2) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٢٩١

(3) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٧٨

(4) الباعث الحثيث ص ٩١

ومن أمثلة ما يخالف العقل كذلك مارواه ابن الجوزى من طريق محمد بن شجاع الثلجي عن حبان بن هلال عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة مرفوعا – : « إن الله خلق الفرس ، فأجراها فعرقت ، فخلق منها نفسه »(١) قال السيوطى – فى تعليقه على هذا الحديث – : « هذا لا يضعه مسلم ، بل ولا عاقل ، والمتهم به محمد بن شجاع كان زائغا فى دينه . وفيه أبو المهزم ، قال شعبة : رأيته ، لو أعطى درهما وضع خمسين حديثاً »(٢) .

٤ – أن يكون مخالفاً لحقائق التاريخ ، ومثال ذلك حديث : «لما أسرى بى إلى السماء أدخلنى جبريل الجنة ، فناولنى تفاحة فأكلتها ، فصارت نطفة فى صلبى ، فلما نزلت واقعت خديجة ، ففاطمة من تلك النطفة » فهذا مخالف للواقع . إذ من الثابت تاريخياً أن فاطمة رضى الله عنها ولدت قبل بعثة الرسول ﷺ ، قال الشوكانى – فى التعقيب على هـذا الحديث – : « قال الذهبي – فى تلخيص المستدرك – : هذا كذب جلي ، وقال ابن حجر : فاطمة ولدت قبل ليلة الإسراء بالإجماع ، وقال الذهبي : فاطمة ولدت قبـل النبوة فضلا عن الإسراء »(٣) .

٥ – أن يشتمل الحديث على مجازفات ومبالغات لا تصـدر عن عاقل ، كأن يكون فيه وعيد شديد على أمر صغير ، أو وعد عظيم على فعل حقير ، وهذا كثير فى أحاديث القصاص ومن على شاكلتهم ، فمثال النوع الأول حديث : « من أعان تارك الصلاة بلقمة فـكأنما أعان على قتل الأنبياء كلهم » فقد حكم السيوطى – فيما نقله عنه الشوكانى – على هـذا الحديث بأنه موضوع(٤) .

---

(١) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٧٨

(٢) المصدر السابق .

(٣) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٨٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨ .

ومثال النوع الثانى ماذكره الشوكانى — فى مجال الصلاة — وهو حديث : « من علق فى مسجد قنديلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى ينطفىء ذلك القنديل ، ومن بسط فيه حصيراً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى ينقطع ذلك الحصير » قال الشوكانى : « فى إسناده عمر بن صبح كذاب »(١) .

٦ — أن يكون الراوى رافضياً والحديث فى فضائل أهل البيت ، فهذه قرينة تدل على أن الحديث موضوع ، ومثال ذلك حديث : « خلقت أنا وعلى من نور ، وكنا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألفى عام ، ثم خلق الله آدم ، فانقلبنا فى أصلاب الرجال ، ثم جعلنا فى صلب عبدالمطلب ، ثم شق أسماؤنا من اسمه ، فالله محمود وأنا محمد ، والله الأعلى وعلى وعلى » — قال الشوكانى — عن هذا الحديث — : « هو موضوع ، وضعه جعفر بن أحمد ابن على بن بيان ، وكان رافضياً وضاعا »(٢) .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الرافضة اشتهروا بوضع الأحاديث فى فضل على وآل البيت ، وفى ذلك يقول ابن الجوزى : « وغلو الرافضة فى حب على رضى الله عنه حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه » وقد ذكرت منها جملة فى كتاب (الموضوعات) ، منها : (أن الشمس غابت ، ففاتت عليا صلاة العصر ، فردت له الشمس) وهذا من حيث النقل موضوع ، لم يروه ثقة ، ومن حيث المعنى فان الوقت قد فات ، وعودها طلوع متجدد ، فلا يرد الوقت ، وكذلك وضعوا أن فاطمة اغتسلت ثم ماتت ، وأوصت أن تكتفى بذلك الغسل ، وهذا من حيث النقل كذب ، ومن حيث المعنى قلة فهم ، لأن الغسل عن حدث الموت ، فكيف يصح قبله) (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٣ .
(٣) تلبيس إبليس ص ٩٩ .

الآثار السيئة للوضع :

لقد ترتب على حركة الوضع آثار سيئة وعميقة في حياة المسلمين ، ففى مجال التأليف نجد بعض علماء الدين الذين لهم قدم راسخة فى ميادين العلم المختلفة إلا أن بضاعتهم مزجاة فى علم الحديث ، نجدهم ينساقون - بحسن نية - فى الجرى وراء هذه الأحاديث الموضوعة ، فيوردون الكثير منها فى كتبهم ومؤلفاتهم ، وذلك كما فعل الإمام حجة الاسلام الغزالى فى كتابه : (إحياء علوم الدين) ، والعلامة جار الله الزمخشرى فى تفسير (الكشاف) وغيرهم ممن ألفوا فى مجال التصوف أو التفسير أو الفقه أو علم الكلام أو التاريخ .

ولقد كان لإيراد هذه الموضوعات في كتب هؤلاء أثر بالغ فى حياة المسلمين العملية والفكرية على السواء ، حيث راجت هذه الأحاديث بين كثير من الناس ، وانخدعوا بتصديقها ، واطمأنوا إليها ، كيف لا ، وقد انخدع بها قبلهم أئمة كبار ، وعلماء أجلاء .

أما أثر ذلك من الناحية العملية فقد يصدق المسلم حديثاً موضوعا فى مجال العبادات مثلا ، فيعمل به على أساس أنه من الدين والدين منه براء ، وحينئذ يصبح ما دسه الملاحدة والزنادقة فى نظره جزءا من تعاليم الدين ، وأما أثر ذلك من الناحية الفكرية فما أعظم الضرر الذى يلحق المسلم عندما تنقلب أمامه الحقائق ، وتختل لديه المقاييس ، ويعتقد الباطل حقاً والكذب صدقاً ، فيعيش فى ضلال مبين .

كذلك من الآثار السيئة لحركة الوضع فى مجال التفسير أننا نجد - فى بعض الأحيان - أقوالا متعارضة فى تفسير القرآن الكريم لبعض الصحابة والتابعين ، ويكون التعارض بين الأقوال حقيقياً لا مكان فيه للتوفيق ، بل قد نجد - أحيانا - قولين متعارضين فى تفسير آية واحدة ينسبان إلى صحابى واحد ، مما يوهم الجهال بأنه شخص متناقض مع نفسه ، ولكننا عندما نعرض القولين على مناهج المحدثين نجد أن أحد القولين هو الذى تصح نسبته إلى صاحبه لصحة السند الذى روى به ، بينما القول الآخر موضوع

عليه ، قد وضعه كذاب أو زنديق ، وفى هذه الحالة فان من الواجب الاعتماد على الصحيح دون غيره ، وغني عن البيان أن الذى أوقعنا فى هذه البلبلة الفكرية هو تلك الحركة المشبوهة والمسمومة ، حركة الوضع فى التفسير .

يضاف إلى ذلك أيضاً أن كثيراً من المستشرقين والمبشرين أعداء الإسلام، اتخذوا من هذه الأحاديث الموضوعة سلاحاً لمحاربة الإسلام ، وتوجيه الطعون إليه ، وقد تصيدوا من هذه الأحايث ما يكون منافياً للعقل ، أو مخالفاً للواقع ، وأثاروا بها الشبهات حول الإسلام أو القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، واستندوا — فى هذا كله — إلى ورود هذه الأحاديث فى بعض كتب المسلمين التى أشرنا إليها ، وجهلوا أو تجاهلوا الحقيقة العلمية الثابتة ، وهى أنه ليس كل ما يذكر فى هذه الكتب صحيحاً ، بل هذه الكتب التى اعتمدوا عليها تشتمل على الغث والسمين ، والأصيل والدخيل ، والصحيح والعليل .

ونكتفى هنا بمثال واحد مما أورده المستشرقون من شبهات ؛ فقد اتهم المستشرق اليهودى (جولد تسيهر) الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنه بالتناقض فى مسألة الذبيح ، وهل هو إسماعيل أو إسحاق، فمرة ذكر الرواة عنه أنه قال : إن الذبيح هو إسماعيل ، ومرة أخرى ذكر الرواة عنه أنه قال إن الذبيح هو إسحاق ، وعد هذا من ابن عباس تناقضاً فى الرأى وفى ذلك يقول (جولد تسيهر) : « ولا نستطيع — على الرغم من كثرة الزيف القليل الفائدة — أن نقدر حق القدر ذلك النشاط الذى حفظ به الرواة المعلومات الهائلة ، الفياضة بالأقوال المتعارضة دون مبالاة ولا اكتراث ، وأول ما يتبادر للنظر فى ذلك النطاق هو تلك الظاهرة الغريبة ، حيث تسند إلى ابن عباس أقوال تصور آراء شديدة التناقض ،لاتقبل توفيقاً ولا تسوية ويوجد مثال لذلك فى مسألة الخلاف التى كثر حولها الجدل قديماً : أى ابنى إبراهيم أراد أبوه أن يذبحه طوعا لأمر الله » — ثم قال بعد أن استعرض كلا الرأيين المتعارضين فى هذا المجال — : « هكذا يقف الرأيان جميعاً ، أحدهما

بازاء الآخر ، كلاهما ثابت بالنقل ، مدعوم بالسند الكافى لإقناع مطالب العلماء الإسلاميين ، فيستطيع فريق إسحاق أن يرجع — عن طريق أبي هريرة — إلى العالم اليهودى : كعب الأحبار ، وهو من أهم مصادر الرواية للاسرائيليات والنصرانيات فى الأساطير الإسلامية ، بل لقد ذكر العباس ـ عم الرسول ـ الذى يقال إنه استند إلى النبى نفسه فى ذلك شاهدا لتأييد فريق إسحاق ، بيد أن الحجة الكبرى فى مسائل تفسير القرآن هو دائما ابن عباس ، فيظهر ابن عباس نفسه إذن على أنه أساس الإسناد عند كلا الفريقين ، وتسوق كلتا الروايتين قوله المدعوم برجال السلسلة فى نسق جيد دليلا على صحة مذهب كل منهما ، ففريق إسحاق يتخذ عكرمة ، وفريق إسماعيل يتخذ الشعبى أو مجاهد عمدة فى الرواية المباشرة عن ابن عباس أنه حسم فى هذا الموضوع بما يوافق رأى كل منهما »[١] .

هذا ما يقوله (جولد تسيهر) الذى أراد أن يصور لنا ابن عباس بصورة الرجل الذى يناقض نفسه ، وكذب (جولد تسيهر) فيما يقول ، لأن الرواية التى تنسب إلى ابن عباس أنه قال : إن الذبيح هو إسماعيل أصح من الرواية الأخرى ، وهى التى يجب أن يعتمد عليها فى هذا الموضوع ، وينبغى أن تحسم مادة الخلاف فيه ، واستمع معى إلى أستاذنا الجليل الدكتور محمد حسين الذهبى ، فقد رد على هـذا المستشرق ردا علمياً مفصلا ومدعماً بالدليل حيث يقول ـ رحمه الله ـ : « هذا ما حكم به الأستاذ جولد تسيهر على التفسير بالمأثور فى كتابه ، وكل ماقاله فى هذا الموضوع لا يعدو أن يكون محاولات فاشلة ، يريد من ورائها أن يظهر ابن عباس خاصة ، ومن تكلم فى التفسير من الصحابة عامة بمظهر الشخص الذى يناقض نفسه فى الكلمة الواحدة ، أو الموضوع الواحد ، كما يرمى من وراء ذلك إلى أن يصرف نظر المسلمين عن هذه الثروة الضخمة التى خلفها لهم السلف الصالح فى التفسير زعما أن هذا التناقض الموجود بين الروايات نتيجة لاختلاف وجهات النظر من شخص واحد أو أشخاص ، وتفسير هذا شأنه نحن فى حل من التزامه ، لأنهم قالوا بعقولهم ، ونحن مشتركون معهم فى هذا القدر .

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩٨ وما بعدها .

ونحن لا ننكر أن هناك اختلافاً بين السلف في التفسير ، كما لا ننكر أن هناك اختلافاً بين قولين أو أقوال لشخص واحد منهم ، ولكن هذا الاختلاف قلنا عنه - فيما سبق مفصلا - إن معظمه يرجع إلى اختلاف عبارة وتنوع ، لا اختلاف تناقض وتضاد ، فما كان من هذا القبيل فالجمع بينه سهل ميسور ، وما لم يمكن فيه الجمع فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا في الصحة عنه ، وإلا فالصحيح المقدم .

أما إذا تعارضت أقوال جماعة من الصحابة وتعذر الجمع أو الترجيح فيقدم ابن عباس على غيره ، لأن النبي ﷺ بشره بذلك حيث قال : « اللهم علمه التأويل » وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لحديث « أفرضكم زيد » .

وأما ما ساقه على سبيل المثال من اختلاف الرواية عن ابن عباس في تعيين الذبيح فقد رجعت إلى ابن جرير في تفسيره ، فوجدته قد ذكر عن ابن عباس هاتين الروايتين المختلفتين ، وساق كل رواية منهما بأسانيد تتصل إلى ابن عباس ، بعضها يرفعه إلى الرسول ﷺ ، وبعضها موقوف عليه .

وابن جرير - كما نعلم - لم يلتزم الصحة في كل ما يرويه ، ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدثين في نقد الرواية والترجيح لتبين لنا - بكل وضوح وجلاء - أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل أصح من غيرها وأرجح مما يخالفها ، لأنها مؤيدة بأدلة كثيرة ، يطول ذكرها ، وأيضاً فان الرواية التي يذكرها ابن جرير عن ابن عباس مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ، ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق في سندها الحسن بن دينار عن علي بن زيد ، والحسن بن دينار متروك ، وعلي بن زيد منكر الحديث كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره .

أما باقي الروايات الموقوفة على ابن عباس والتي تفيد أن الذبيح هو إسحاق فهي - وإن كانت صحيحة الأسانيد - محمولة على أن ما تضمنته من أن الذبيح هو إسحاق كان رأي ابن عباس في أول الأمر ، لأنه سمع ذلك من بعض الصحابة الذين كانوا يحدثون في مثل هذا بما سمعوه من كعب وغيره

من مسلمى اليهود ، ثم علم بعد أن ذلك قول اليهود فرجع عنه وصرح بنقيضه، كما قال ابن جرير : « حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمر بن قيس عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عباس أنه قال : « المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود » وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس ، إسناده على شرط الصحيح ، وهو - كما ترى - صريح في تكذيب اليهود فيما زعموه ، وهو يقضي على كل أثر بخلافه ، وبهذا الطريق تنتظم الآثار الواردة عن ابن عباس فى هذا الباب ، قال ابن كثير فى تفسيره - بعد ماساق الروايات في أن الذبيح هو إسحاق - . « وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار ، فانه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر رضى الله عنه ، وترخص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده عنه ، غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده »[1] .

جهود العلماء فى مقاومة الوضع :

ولأن الأمر جد خطير لم يكتف علماء الإسلام بما وضعوه من أمارات وقرائن لمعرفة الحديث الموضوع ، بل قاموا كذلك - فى سبيل الحفاظ على السنة - بجهود موفقة ومشكورة لمقاومة حركة الوضع فى الحديث ، وهذه الجهود تتمثل فيما يلى :

أولا - المبادرة إلى تدوين السنة :

لم تدون السنة فى عصر النبى ﷺ ، ولا فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، وإنما بدأ تدوينها فى عصر التابعين ، وهو العصر الذى كثر فيه الوضع فى الحديث ، وانتشرت الموضوعات بين الناس انتشارا كبيرا ، ويذكر المؤرخون أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه هو أول من فكر

---

(١) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ١٦١ وما بعدها .

في تدوين السنة ـ علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ وكان ذلك على رأس المائة الأولي من هجرة الرسول ﷺ ، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلي أبي بكر ابن حزم ـ عامله وقاضيه على المدينة ـ يقول :

« انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وكذلك كتب إلي عماله في أمهات المدن الإسلامية بجمع الحديث ، وممن كتب إليه بذلك الإمام محمد بن شهاب الزهرى[1] .

ومنذ ذلك الحين أقبل العلماء على جمع السنة ، وتدوين الحديث بهمة موفورة ونشاط بالغ ، وجد عظيم ، ولم يكد ينتهى القرن الثالث الهجرى حتى كانت الأحاديث النبوية مجموعة فى كتب معتمدة مثل كتاب الموطأ للامام مالك ، وكتاب المسند للامام أحمد ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجة وأبى داود ، وغيرها من الكتب التى حفظت لنا هذا التراث العظيم الذى تركه لنا رسول الإنسانية محمد ﷺ ، وبهذا العمل الجليل حال علمائنا الكرام بين الوضاعين وبين ما أرادوه من الإفساد والعبث فى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثانياً ـ وضع علم الجرح والتعديل :

ومن الجهود المباركة كذلك فى مقاومة حركة الوضع فى الحديث أن علماءنا الأجلاء قاموا بوضع علم يتعلق برجال الحديث ، وهو ما يعرف بعلم الجرح والتعديل ، وهذا العلم يبحث فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم ، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان .

---

(١) انظر الحديث والمحدثون ص ٢٤٤ وفي أصول الحديث ص ١٠٠ والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٠٢

ويصف الدكتور مصطفى السباعى هذا العلم بأنه من أجل العلوم التى نشأت عن تلك الحركة المباركة — يعنى حركة العلماء وجهودهم فى مقاومة الوضع — لا نعرف له مثالا أيضاً فى تاريخ الأمم الأخرى ، وقد أدى إلى نشأة هذا العلم حرص العلماء على الوقوف على أحوال الرواة ، حتى يميزوا بين الصحيح وغيره ، فكانوا يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة ، ويسألون السابقين ممن لم يعاصرونهم ، ويعلنون رأيهم فيهم دون تحرج ولا تأثم . إذ كان ذلك ذبا عن دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد قيل للبخارى : إن بعض الناس ينقمون عليك التاريخ يقولون : فيه اغتياب الناس ، فقال : « إنما روينا ذلك رواية ، ولم نقله من عند أنفسنا ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بئس أخو العشيرة المغتاب »(١) .

وإذن فالباعث على وضع هذا العلم هو صيانة السنة والذب عنها ، وتمييز ماصح من الأحاديث عن غيره ، وقد أجاز العلماء الجرح — وهو بيان حالة الراوى من كذب أو فسق أو جهل أو زندقة أو اعتقاد فاسد ونحو ذلك — لما يترتب عليه من صيانة الشريعة والذب عنها ، وبيان ماتطرق إلى السنة — وهى الأصل الثانى للدين — من أحاديث موضوعة وضعيفة ومنكرة وشاذة ، ولا يعد تجريح الراوى هنا من باب الغيبة المحرمة شرعاً قال أبو بكر بن خلاد ليحيى بن سعيد : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله ؟ فقال : لأن يكونوا خصمائى أحب إلى من أن يكون خصمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول لى : « لم لا تذب الكذب عن حديثى » وقال أبو تراب النخشبى لأحمد بن حنبل : لا تغتب العلماء ، فقال له أحمد : « ويحك ، هذا نصيحة ، ليس هذا غيبة » ، وقال بعض الصوفية لابن المبارك : تغتاب ؟ قال : اسكت ، إذا لم نبين كيف نعرف الحق من الباطل »(٢) .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٠٦ .

(٢) تدريب الراوى جـ ٢ ص ٣٦٩ .

والجرح له مراتب أشدها ثلاثة — وفيها يكون الراوى ساقطاً لايكتب حديثه ولا يعتبر به — المرتبة الأولى — وهى أقلها — أن يقولوا ، (مردود الحديث ، أوضعيف جداً ، أوطرحوا حديثه، أولا يساوى شيئاً)، والمرتبة الثانية — وتزداد قبحاً عن الأولى — أن يقولوا: (متروك الحديث ، أوساقط، أو لا يعتبر بحديثه ، أو متهم بالكذب أو بالوضع) ، والمرتبة الثالثة — وهى أقبح المراتب الثلاثة — أن يقولوا : (كذاب . أو دجال ، أو وضاع ، أو يضع الأحاديث)[1] .

ومما يدل على الدقة المتناهية لدى علماء الجرح والتعديل أنهم قالوا : إن الذى يكذب فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لاتقبل روايته بحال ، وإن تاب عن الكذب ، بخلاف الذى يكذب فى حديث الناس ، ثم يتوب : فان روايته تقبل بعد التوبة ، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير : « التائب من الكذب فى حديث الناس تقبل روايته ، خلافاً لأبى بكر الصيرفى ، فأما إن كان قد كذب فى الحديث متعمداً فنقل ابن الصلاح عن أحمد بن حنبل وأبى بكر الحميدى شيخ البخارى : أنه لاتقبل روايته أبداً ، وقال أبو المظفر السمعانى : من كذب فى خبر واحد وجب إسقاط ماتقدم من حديثه»[2], وعلق الشيخ أحمد شاكر على كلام ابن كثير هذا فقال : « ورد النووى هذا ، فقال — فى شرح مسلم — : « المختار القطع بصحة توبته ، وقبول روايته كشهادته ، كالكافر إذا أسلم » ، والراجح ماقاله أحمد بن حنبل ومن معه تغليظاً وزجراً بليغاً عن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعظم مفسدته ، فانه يصير شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة ، بخلاف الكذب على غيره والشهادة فان مفسدتهما قاصرة ليست عامة ، فلا يقاس الكذب فى الرواية

---

(١) أنظر تدريب الراوى ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) الباعث الحثيث ص ١١٢ .

على الكذب فى الشهادة أو فى غيرها ، ولا على أنواع المعاصى الأخرى[1] » :

هذا والكتب التى ألفها العلماء فى مجال الجرح والتعديل كثيرة ، منها ما أفرد لذكر الثقات فقط مثل كتاب الثقات لابن حيان ، ومنها ما أفرد لذكر الضعفاء والمتروكين فقط مثل كتاب الكامل لابن عدى ، ومنها ماجمع فيه بين الثقات والضعفاء مثل تواريخ البخارى الثلاثة : الكبير وهو مرتب على حروف المعجم ، والأوسط والصغير وهما مرتبان على السنين .

ثالثاً : تصنيف الكتب فى بيان الأحاديث الموضوعة :

ثم تتبع علماؤنا الأجلاء ـ جزاهم الله خيراً عن الإسلام وأهله ـ الأحاديث الموضوعة ، وأفردوها بالجمع والتأليف ، وبينوا مافى أسانيدها من الرواة الوضاعين ، ومافى متونها من إمارات الوضع ، وعلامات الكذب ، حتى لاينخدع بها أحد من المسلمين ، وبذلك أسدوا أجل الخدمات للسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا المجال مما يلى :

١ ـ كتاب الموضوعات للحافظ أبى الفرج ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ومما يؤخذ على هذا الكتاب أن ابن الجوزى تساهل فيه كثيرا ، بحيث أدخل فى الموضوع ماليس منه مثل الأحاديث الضعيفة التى لادليل فيها على الوضع ، وقد ذكر السيوطى ـ فى التدريب ـ أن فيه الحسن والصحيح ، ثم قال : « وأغرب من ذلك أن فيه حديثاً من صحيح مسلم وهو ماروا‌ه من طريق أبى عامر العقدى عن أفلح بن سعيد عن عبد الله بن رافع

(١) المصدر السابق ص ١١٣ .

عن أبي هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن طالت بك مدة أوشك أن ترى قوماً يغدون في سخط الله ، ويروحون في لعنته ، في أيديهم مثل أذناب البقر قال شيخ الإسلام - يعنى الحافظ ابن حجر : لم أقف في كتاب الموضوعات على شيء حكم عليه بالوضع - وهو في أحد الصحيحين - غير هذا الحديث ، وإنها لغفلة شديدة منه »[1] .

كما يقول ابن حجر - عن كتاب الموضوعات هذا - : « غالب ما في كتاب ابن الجوزى موضوع ، والذى ينتقد عليه - بالنسبة إلى ما لا ينتقد - قليل جدا ، وفيه من الضرر أن تظن ماليس بموضوع موضوعاً عكس الضرر بمستدرك الحاكم ، فانه يظن ماليس بصحيح صحيحاً ، ويتعين الاعتناء بانتقاد الكتابين ، فان الكتابين في تساهلهما عدم الانتفاع بهما إلا لعالم بالفن ، لأنه ما من حديث إلا ويمكن أن يكون قد وقع فيه التساهل »[2] .

٢ - كتاب اللالىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وقد ذكر السيوطي في التدريب أنه اختصره من كتاب ابن الجوزى ، فعلق أسانيده ، وذكر منها ماتمس إليه الحاجة ، وأتى بالمتون وكلام ابن الجوزى عليها ، وتعقب كثيراً منها ، وتتبع كلام الحفاظ في تلك الأحاديث ، خصوصاً ما ذكره شيخ الإسلام ابن حجر في تصانيفه[3] .

وللسيوطى أيضاً كتاب آخر في هذا المجال ، وهو ذيل اللالىء المصنوعة ، زاد فيه مافات ابن الجوزى في الموضوعات[4] .

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٧٨ وما بعدها (بتصرف) .
(٢) المصدر السابق جـ ص ٢٧٩ .
(٣) المصدر السابق بتصرف في العبارة .
(٤) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١١٧ .

٣ – كتاب الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للامام أبى عبد الله محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ لكنه أدرج فيه كثيراً من الأحاديث التي لم تبلغ درجة الوضع ، بل ومنها صحاح وحسان ، قلد فى ذلك ابن الجوزى وأضرابه من المتساهلين[١] .

٤ – كتاب تذكرة الموضوعات للحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، وقد ذكر فيه الأحاديث التي رواها الكذبة والمجروحون ، والضعفاء والمتروكون .

(١) الحديث والمحدثون ص ٤٨٩ .

أمثلة من الأحاديث الموضوعة فى التفسير

لقد كان التفسير من الميادين الفسيحة التى كثر فيها الوضع ، وجال فيها الوضاعون وصالوا ، ونشطوا فيها نشاطاً كبيراً ، فتارة كان الوضاعون يضعون الأحاديث فى أسباب النزول بغية أن يفسروا القرآن فى ضوئها على حسب أهوائهم ، وتارة أخرى كانوا يضعون الأحاديث فى المراد من بعض الآيات انتصاراً لمذهب معين ، وطوراً كانوا يضعون الأحاديث فى تحديد المعنى للآيات ، مثلما فعل الباطنية الذين كانوا يفسرون القرآن تفسيراً رمزياً ويستدلون على تفاسيرهم تلك ببعض الأحاديث الموضوعة .

وقد انتشر الوضع فى التفسير منذ عصر مبكر من عصور الإسلام ، حتى أنه يروى عن الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، أنه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى » وفى رواية : « ثلاثة كتب لا أصل لها : المغازى والملاحم والتفسير »[١] .

واختلف العلماء فى فهم المراد من كلام ابن حنبل هذا ، وماذا يريد بعبارته

---

(١) المغازى جمع مغزى ، يقال : غزا يغزوا غزوا ومغزى ، وأصل الغزو القصد ، ومغزى الكلام مقصده ، والمراد بالمغازى هنا ماوقع من قصد النبى صلى الله عليه وسلم الكفار بنفسه أو بجيش من قبله ، أى مايعم الغزوات والسرايا الحربية ، أما الملاحم فجمع ملحمة ، والملحمة هى الحرب ذات القتل الشديد كما فى لسان العرب ، وتطلق أحياناً على القتال فى الفتنة أو الوقعة العظيمة في الفتنة , ولعل هذا المعنى الأخير هو المراد هنا ، فالملاحم هى حروب الفتنة التى وقعت أو تقع بين المسلمين بعضهم مع بعض ولم يثبت فيها سوى أحاديث قليلة .

تلك ، فقال الخطيب البغدادى : « هذا محمول على كتب مخصوصة فى هـذه المعانى ، غير معتمد عليها ، لعدم عدالة ناقليها ، وزيادة القصاص فيها ، فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة ، وليس يصح فى ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة ، وأما كتب التفسير فمن أشهرها كتابا الكلبي ومقاتل بن سليمان ، وقد قال الإمام أحمد – فى تفسير الـكلبى – : « من أوله إلى آخره كذب » قيل له · فيحل النظر فيه ؟ قال : لا ، وقال أيضاً كتاب مقاتل قريب منه ، وأما المغازى فمن أشهرها كتب محمد بن اسحاق : وكان يأخـذ عن أهل الكتاب ، وقال الشافعى : كتب الواقدى كذب ، وليس فى المغازى أصح من كتاب موسي بن عقبة » (١) .

ويرى بعض العلماء أن المراد من كلام الإمام أحمـد هو أن ما لم يصح من الأحاديث – فى مجال التفسير – كثير جداً إذا قيس بالصحيح ، ومثل التفسير المغازى والملاحم ، قال ابن تيميـــة « ومعلوم أن المنقول فى التفسير أكثره كالمنقول فى المغازى والملاحم » ولهذا قال الإمام أحمد : « ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير والملاحم والمغازى ويروى : « ليس لهـا أصل » أي إسناد ، لأن الغالب عليها المراسيل » (٢) .

وقال الزركشي : « لطالب التفسير مآخذ كثيرة ، أمهاتها أربعة : الأول النقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الطراز الأول ، لـكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فانه كثير ، وإن سواد الأوراق سواد فى القلب ، قال الميمونى : سمعت أحمد بن حنبل يقول : « ثلاثة كتب ليس لهـا أصول : المغازي والملاحم والتفسير » ، قال المحققون من أصحابه : ومراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصـــلة ، وإلا فقد صح من ذلك كثير » (٣) .

---

(١) الحديث والمحدثون ص ٤٨٦ .

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٥٦ .

وسواء أكان المراد من العبارة هذا أم ذاك فانه يغلب على الظن أن هذه العبارة قيلت بسبب انتشار ظاهرة الوضع فى التفسير , فى هـذا العصر المبكر الذى عاش فيه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

وأيضاً يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى أوائل القرن الثامن الهجرى ـ أن كثيراً من كتب التفسير مشحون بالأحاديث الموضوعة التي لا أصل لها فيقول : « وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، مثل الحديث الذى يرويه الثعلبى والواحدى والزمخشرى فى فضائل سور القرآن سورة سورة , فإنه موضوع باتفاق أهل العلم ، والثعلبى نفسه كان فيه خير ودين , ولكنه كان حاطب ليل . ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ، والواحدى صاحبه ، كان أبصر منه بالعربية ، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف ، والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبى . لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة ، والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة ، منها الأحاديث الكثيرة الصريحة فى الجهر بالبسملة ، وحديث على الطويل فى تصدقه بخاتمه فى الصلاة ، فانه موضوع باتفاق أهل العلم ، ومثل ما روى فى قوله . « ولكل قوم هاد »(١) إنه على , « وتعيها أذن واعية »(٢) أذنك يا على » (٣) .

وبعد فاليك أمثلة من الأحاديث الموضوعة فى التفسير ، وما قاله العلماء فيها ، والله المستعان .

المثال الأول : قصة الغرانيق :

ذكر بعض المفسرين ـ عند تفسير قوله تعالى : «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى

---

(١) سورة الرعد : ٧

(٢) سورة الحاقة : ١٢ .

(٣) مقدمة فى أصول التفسير ص ٧٥ وما بعدها .

الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم »[1] — رواية باطلة في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، ملخصها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه سورة (النجم) أخذ يقرؤها على الناس ، ويلقيها على مسامع المشركين، فلما بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » . ألقى الشيطان بعد ذلك في قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم جملتين فاسدتين ، هما : « تلك الغرانيق العلا[2] ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، فسر المشركون بذلك سروراً عظيما ، لأنه ذكر آلهتهم بخير ، فلما سجد الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر السورة سجد معه المشركون ، وتقول الرواية — إمعاناً في نسج خيوط هذه القصة — أن هـذه الكلمة فشت في الناس وأظهرها الشيطان ، حتي بلغت أرض الحبشة ، وأن كثيراً من المهاجرين إلى الحبشة رجعوا إلى مكة ، إثر حدوث ذلك ، ظناً منهم أن مشركي مكة قد أسلموا[3] .

وممن انخدع بتصديق هـذه الرواية الباطلة من المفسرين العلامة جار الله الزمخشري ، حيث يقول : (والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عن قومه وشاقوه ، وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى — لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ما تمناه ، حتى نزلت عليه سورة (النجم) — وهو في نادى قومه ، وذلك التمني في نفسه — فأخذ يقرؤها ، فلما بلغ قوله تعالى : (ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان في أمنيته التي تمناها ، أى وسوس إليه

---

(١) سورة الحج : ٥٣ .

(٢) الغرانيق هنا الأصنام ، وهي في الأصل : الذكور من طيور الماء ، واحدها غرنوق وغرنيق ، سمى به لبياضه ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم ، فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع . اهـ من النهاية لابن الأثير .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٣٨ ، وتفسير الآلوسي جـ ١٧ ص ١٧٦

بما شيعها به ، فسبق لسانه — على سبيل السهو أو الغلط — إلى أن قال : (تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم لترتجى) — وروى الغرانقة — ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه ، وقيل : نبهه جبريل عليه السلام ، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى ، وطابت نفوسهم وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء ، زاد المنافقون به شكا وظلمة ، والمؤمنون نورا وإيقانا ، والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم[1] كذلك ، إذا تمنوا مثل ماتمنيت مكن الله الشيطان ، ليلقى فى أمانيهم مثل ما ألقى فى أمنيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، والله — سبحانه — له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن ، وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ، ويزيد فى عقاب المذبذبين »[2] .

وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الرواية مختلقة ولا أصل لها . وأنها من وضع الزنادقة وأعداء الدين ، وبينوا كذلك ماتنطوى عليه هذه القصة الخرافية من أدلة الفساد ، وشواهد الكذب ، قال الإمام الآلوسى — رحمه الله — : « وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة . فقال البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضى عياض — فى الشفاء — : « يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وفى (البحر)[3] . أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق ، جامع السيرة النبوية . فقال: هذا من وضع الزنادقة . وصنف فى ذلك كتاباً ، وذكر الشيخ أبومنصور

---

(١) يقال : مازال ذلك هجيراه — بكسر الهاء وتشديد الجيم — أى دأبه وشأنه وعادته , ا هـ من لسان العرب .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٥

(٣) يريد كتاب (البحر المحيط) لأبى حيان الأندلسى .

الماتريدى – فى كتاب (حصص الأتقياء) : الصواب أن قوله : (تلك الغرانيق العلا) من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة ، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ، ليرتابوا فى صحة الدين ، وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية » .

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبى صلى الله عليه وسلم بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور : منها تسلط الشيطان عليه – عليه الصلاة والسلام – وهو صلى الله عليه وسلم – بالإجماع معصوم من الشيطان ، لاسيما فى مثل هذا من أمور الوحى والتبليغ والاعتقاد ، وقد قال سبحانه : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »(١) وقال تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا »(٢) إلى غير ذلك ، ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم فى القرآن ماليس منه وذلك مما يستحيل عليه – عليه الصلاة والسلام – لمكان العصمة ، ومنها اعتقاد النبى صلى الله عليه وسلم ماليس بقرآن أنه قرآن ، مع كونه بعيد الالتئام متناقضاً ممتزج المدح بالذم ، وهو خطأ شنيع لاينبغى أن يتساهل فى نسبته إليه صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنه إما أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نطقه بذلك معتقداً ما اعتقده المشركون من مدح آلهتهم بتلك الكلمات ، وهو كفر محال فى حقه صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون معتقداً معنى آخر مخالفاً لما اعتقدوه ، ومباينا لظاهر العبارة ، ولم يبينه لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم ، فيكون مقراً لهم على الباطل ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يقر ذلك ، ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه مايلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك ، وهو يقتضى أنه – عليه الصلاة والسلام – على غير بصيرة فيما يوحى إليه ، ويقتضى أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك ، ملبساً على

---

(١) سورة الحجر : ٤٢ .

(٢) سورة النحل : ٩٩ .

النبى ، ولايصح ذلك كما قال — فى الشفاء — لافى أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد فى ذلك دليل المعجزة »[1].

وعلى الرغم من أن هذه الرواية ظاهرة البطلان ، وتفوح منها رائحة الوضع نجد الحافظ ابن حجر يميل إلي تصديق هذه الرواية ، ويجهد نفسه فى تأويل ما جاء فيها ، ويأخذ على أبى بكر بن العربى والقاضي عياض إنكارهما لصحة هذه الرواية ، فيقول — بعد أن ساق طرقاً لابن عباس وغيره : « وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا ، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين ، رجالهما على شرط الصحيحين » ثم قال : « وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته ، فقال : ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة باطلة ، لاأصل لها ، وهو إطلاق مردود عليه ، وكذا قول عياض : هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواة ثقـــة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، وكذا قوله : ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحـــد منهم ، ولارفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فى ذلك ضعيفة واهية ، قال : وقد بين البزار أنه لايعرف من طريق يجوز ذكره إلا طريق أبى بشر عن سعيد ابن جبير ، مع الشك الذى وقع فى وصله ، وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه ، ثم رده عن طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم قال : ولم ينقل ذلك — انتهى .

وجميع ذلك لا يتمشي على القواعد ، فان الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لهـا أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٧٧ .

لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر ، وهو قوله : « ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم لترتجى » فان ذلك لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد فى القرآن عمدا ماليس منه ، وكذا سهوا إذا كان مغايرا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك ، فقيل : جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة ، وهو لا يشعر ، فلما علم بذلك أحكم الله آياته ، وهذا أخرجه الطبرى عن قتادة ، ورده عياض بأنه لا يصح ، لكونه لا يجوز على النبى ﷺ ذلك ، ولا ولاية للشيطان عليه فى النوم ، وقيل : إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره ، ورده ابن العربى بقوله تعالى -حكاية عن الشيطان - : « وما كان لى عليكم من سلطان » [1] الآية ، قال : لو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقى لأحد قوة فى طاعة ، وقيل : إن المشركين كانوا إذا ذكروا آلهتهم وصفوهم بذلك ، فعلق ذلك بحفظه ﷺ ، فجرى على لسانه لما ذكرهم سهوا ، وقد رد ذلك عياض فأجاد ، وقيل : لعله قالها توبيخاً للكفار ، قال عياض : وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد ، ولا سيما وقد كان الكلام - فى ذلك الوقت - فى الصلاة جائزاً ، وإلى هذا نحا الباقلانى ، وقيل : إنه لما وصل إلى قوله : « ومناة الثالثة الأخرى » خشى المشركون أن يأتى بعدها بشىء يذم آلهتهم به ، فبادروا إلى ذلك الكلام ، فخلطوه فى تلاوة النبى ﷺ ، على عادتهم فى قولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » [2] ، ونسب ذلك للشيطان ، لكونه الحامل لهم على ذلك ، أو المراد بالشيطان شيطان الإنس ، وقيل : المراد بالغرانيق العلا الملائكة ، وكان الكفار يقولون : (الملائكة بنات الله) ويعبدونها ، فسيق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى » [3] ، فلما سمعه المشركون

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢

(٢) سورة فصلت : ٢٦

(٣) سورة النجم : ٢١

حملوه علي الجميع ، وقالوا : قد عظم آلهتنا ، ورضوا بذلك ، فنسخ الله تلك الـكلمتين ، وأحكم آياته ، وقيل : كان النبي ﷺ يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الـكلمات ، محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله وأشاعها ، قال : وهذا أحسن الوجوه »[1]

بيد أن جمهور علماء الإسلام القدامى والمحدثين رفضوا ـ بشدة ـ هذه القصة المشبوهة جملة وتفصيلا ، وشككوا فى صحة هذه الرواية الخطيرة التي تحمل فى طياتها ما ينافى عصمة الرسول ﷺ ، ويطعن فى صميم نبوته ، وهل هناك أخطر على عقيدة المسلم من أن يظن ـ بمقتضى هذه الرواية ـ أن النبي ﷺ تسلط الشيطان عليه ، أو تمكن من إلقاء الـكلام على لسانه : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »[2] ، ومن هؤلاء العلماء الذين شككوا فى صحة هذه الرواية الإمام عبد الحق بن عطية ـ أحد رجالات التفسير بالأندلس فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وكان معاصراً للقاضي أبى بكر بن العربى والقاضى عياض بن موسى اليحصبي ـ فقد قال ابن عطية فيما نقله عنه القرطبي : « وهذا الحديث الذى فيه (هى الغرانيق العلا) وقع فى كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخارى ولا مسلم ، ولا ذكره ـ فى علمى ـ مصنف مشهور ، بل يقتضى مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ، ولا يعينون هذا السبب ولا غيره ، ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس فى صورة هذا الإلقاء ، فالذى فى التفاسير ـ وهو مشهور ـ القول أن النبى ﷺ تكلم بتلك الألفاظ على لسانه ، وحدثنى أبى رضي الله عنه أنه لقى بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبى ﷺ ، وهو المعصوم فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الـكفار عند قول النبى ﷺ : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » وقرب صوته من صوت النبى ﷺ ، حتي

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ط المطبعة السلفية .

(٢) سورة الـكهف : ٥ .

حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها ، وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي ، وقيل : الذى ألقى شيطان الإنس ، كقوله عز وجل : « والغوا فيه »[1] .

وممن ذهب كذلك إلى عدم صحة هذه الرواية وبين أن معنى الآية لا يتوقف عليها الإمام شهاب الدين الآلوسي البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ ه فقد قال — بعد أن ذكر بالتفصيل وجهة نظر أولئك الذين حكموا بصحة هذه الرواية — : « لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد[2] ، فان الطاعنين فيه — من حيث النقل — علماء أجلاء ، عارفون بالغث والسمين من الأخبار ، وقد بذلوا الوسع فى تحقيق الحق فيه ، فلم يروه إلا مردودا ، وما ألقى الشيطان إلى أوليائه معدودا ، وهم أكثر ممن قال بقبوله ، ومنهم من هو أعلم منه ، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته فى سائر الطرق ، فرأوهم مجروحين ، وفات ذلك القائل بالقبول , ولعمرى أن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ، ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ، ثم نسخه سبحانه وتعالى ، لاسيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر دينى ، ولا معنى آية ولا ولا سوى أنه يتوقف عليه حصول شبه فى قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين ، لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد ، ويؤيد عدم الثبوت مخالفته لظواهر الآيات ، فقد قال سبحانه — فى وصف القرآن — « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[3] والمراد بالباطل ما كان باطلا فى نفسه ، وذلك الملقى كذلك »[4] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٨١

(٢) القتاد ـ كسحاب ـ شجر صلب له شوك كالإبر ، وخرط الشجر يخرطه ـ من باب ضرب وقتل ـ انتزع الورق منه اجتذاباً بالكف ، وفى المثل (من دون ذلك خرط القتاد) ويضرب للأمر الذى تحول دون تحققه الموانع .

(٣) سورة فصلت : ٤٢ .

(٤) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ١٨٢ .

ثم قال الآلوسى - بعد ذلك - : « وأنت تعلم أن تفسير الآية - أعنى قوله تعالى : (وما أرسلنا) إلخ - لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة ، وأقرب ماقيل فى تفسيرها - على القول بعدم الثبوت - هو وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبياً إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به ، كما قال تعالى : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم »[1] وقال سبحانه : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »[2] ، وهذا كقولهم - عند سماع قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنما حرم عليكم الميتة »[3] - : إنه يحل ذبيح نفسه ويحرم ذبيح الله تعالى ، وقولهم - على مافى بعض الروايات، عند سماع قراءته عليه الصلاة والسلام : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »[4] - : إن عيسى عبد من دون الله تعالى، والملائكة عليهم السلام عبدوا من دون الله تعالى ، ومعنى قوله تعالى : «فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » أى فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه ، ويذهب به بتوفيق النبى صلى الله عليه وسلم لرده ، أو بانزال ما يرده ، (ثم يحكم الله آياته) أى يأتى بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه، وعلى ذلك فهذه الآية مسوقة لتسلية النبى صلى الله عليه وسلم بأن السعى فى إبطال الآيات أمر معهود، وإنه لسعى مردود »[5] .

وأيضاً من العلماء المعاصرين الذين هاجموا هذه الأسطورة ، وردوا - بالأدلة العلمية - أقوال أولئك الذين مالوا إلى تصديقها العالم السورى المحقق

---

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٢) سورة الأنعام : ١١٢ .

(٣) سورة النحل : ١١٥ .

(٤) سورة الأنبياء : ٩٨ .

(٥) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص ١٨٦ ، ١٧٣ بشىء من التصرف فى النقل .

الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، فقد ألف كتاباً فى إبطال هذه القصة ، أسماه : « نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق » والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

المثال الثانى : قصة زينب بنت جحش :

وفي تفسير قول الله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه »[1] يورد بعض المفسرين رواية باطلة تتعلق بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها ،وتقول هذه الرواية : إن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب لكى يزور زيد بن حارثة فلم يجده ، ووجد زوجته (زينب بنت جحش) ، فوقع نظره عليها ، وأعجب بها ،وتعلق قلبه بحبها، ثم انصرف وهو يقول : (سبحان مقلب القلوب) ، ويزعم أصحاب هذه الرواية أن هذا هو المراد من قوله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه » فقد أخفى الرسول حبها فى قلبه آنذاك ،ولكن الله أظهره بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينب بعد ذلك .

ومن المفسرين الذين انساقوا وراء هذه الرواية الباطلة جارالله الزمخشرى فقد قال : « أمسك عليك زوجك : يعنى زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعدما أنكحها إياه — يقصد زيدا — فوقعت فى نفسه ، فقال : (سبحان الله مقلب القلوب) وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادتها لاختطبها ، وسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ففطن ، وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها، والرغبة عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال لرسول الله ﷺ : إنى أريد أن أفارق صاحبتى ، فقال : مالك ؟ أرابك منها شيء ؟ قال : لا والله مارأيت منها إلا خيراً ، ولكنها تتعاظم على لشرفها وتؤذينى ، فقال له : أمسك عليك

(١) سورة الأحزاب : ٣٧ .

زوجك واتق الله ، ثم طلقها بعد ، فلما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أجد أحداً أوثق فى نفسى منك ، اخطب على زينب ، قال زيد : فانطلقت فاذا هى تخمر عجينها ، فلما رأيتها عظمت فى صدرى، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهرى ، وقلت : يازينب أبشرى ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن (زوجنا كها) ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بها »[1].

كذلك ردد ابن القيم هذه الأكذوبة فى كتاب من كتبه، فقال : « وهذا سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها ، فقال :(سبحان مقلب القلوب) وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه ، فلما هم بطلاقها قال له : (اتق الله وأمسك عليك زوجك) . فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، من فوق سبع سماوات ، فكان هو وليها وولي تزويجها من رسول الله ﷺ وعقد عقد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله ﷺ : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه»[2].

والحق أن هذه الرواية لا أصل لها ولا سند ، وقد حكم المحققون من علماء الإسلام بأنها باطلة نقلا وعقلا ، وإليك بعض ماقالوه فى هذا الصدد:

١ — ذكر الإمام الآلوسى فى البداية المعنى الصحيح للاية ، وأن المراد من قوله تعالى : «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » هو ما أوحاه الله تعالى إلي نبيه من أن زينب سيطلقها زيد ، ويتزوجها الرسول صلي الله عليه وسلم من

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى لابن القيم ص ١٩٨ وما بعدها .

بعده ، وقال الآلوسى : « وإلي هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهرى وبكر بن العلاء والقشيرى والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم »[1] ، ثم بعد ذلك نعى الآلوسي على القصاص ماذكروه فى هذا المقام من كلام باطل لايعول عليه، ولاينبغى قبوله والالتفات إليه،لأنه مما يجب تنزيه ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم عن مثله ، وفى ذلك يقول الآلوسي : «وللقصاص فى هذه القصة كلام لاينبغى أن يجعل فى حيز القبول ، منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان أنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى بيت زيد فلم يجده ، وعرضت زينب عليه دخول البيت ، فأبى أن يدخل،وانصرف راجعاً يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى (سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب) ، فجاء زيد فأخبرته بما كان ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : بلغنى يارسول الله أنك جئت بمنزلى فهلا دخلت يارسول الله ، لعل زينب أعجبتك فأفارقها ، فقال عليه الصلاة والسلام : (أمسك عليك زوجك واتق الله) فما استطاع زيد إليها سبيلا بعد ، ففارقها ، وفى تفسير عن بن إبراهيم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بيت زيد ، فرآى زينب جالسة وسط حجرتها ، تسحق طيباً بفهر لها[1] ، فلما نظر إليها قال : (سبحان خالق النور ، تبارك الله أحسن الخالقين) فرجع ، فجاء زيد فأخبرته الخبر ، فقال لها : لعلك وقعت فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : أخشى أن تطلقني ولا يتزوجنى ، فجاء إلى رسول الله صلى عليه وسلم ، فقال له : أريد أن أطلق زينب ، فأجابه بما قص الله تعالى ، إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتتبع ، وفى

---

(١) الفهر — بالكسر — الحجر قدر مايدق به الجوز ونحوه ، وقيل : الحجر ملء الكف ، ويؤنث ، وسحق الشيء يسحقه سحقاً — كمنعه — : دقه أشد الدق ، وقيل : السحق الدق الرقيق . اهـ من القاموس ولسان العرب .

شرح (المواقف) أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله »[1].

٢ — كما فند القرطبي هذه الرواية الساقطة، وبين ماتشتمل عليه من مساس بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال: « فأما ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد - وربما أطلق بعض المجان لفظ (عشق) — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته، قال الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول)— وأسند إلى على بن الحسين قوله — : فعلى بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جواهراً من الجواهر، ودرا من الدرر أنه إنما عتب الله عليه فى أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: « أمسك عليك زوجك » وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه والله أحق أن تخشاه »[2].

٣ — كذلك أشار الحافظ ابن كثير إلى هذه الرواية الهابطة، وبين أنها غير صحيحة، ومن ثم أعرض عن ذكرها، فقال فى تفسير الآية « ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم ههنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً، لعدم صحتها، فلا نوردها »، ثم أورد ابن كثير — بعد ذلك — رواية على بن الحسين التى أشار إليها القرطبى فى تفسيره، والتى سبق ذكرها منذ قليل، فقال: « وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنى على بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة عن على بن زيد جدعان قال: سألنى على بن الحسين: مايقول الحسن[3] فى قوله: « وتخفى فى نفسك ماالله

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ض ٢٤، ٢٥ .

(٢) تفسير القرطبي حـ ١٤ ض ١٩١ .

(٣) لعله يقصد الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ وهو من كبار التابعين الذين اشتهروا بالوعظ والتفسير .

مبديه » ؟ فذكرت له[1]، فقال : لا ، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فقال : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه »[2].

٤ — كما أضرب الحافظ ابن حجر — فى فتح البارى — كذلك عن إيراد هذا القصص المشين ، وذكر أنه لا ينبغى التشاغل به ، وبين القول الصحيح فى تفسير الآية ، فقال : « وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى ، فساقها سياقاً واضحاً حسنا ، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون بين الناس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقى الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ، ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدا — وعنده من طريق على بن زيد عن على بن الحسين بن على قال : أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك قال الله : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

وقد أطنب الترمذى الحكيم فى تحسين هذه الرواية ، وقال إنها من جواهر العلم المكنون ، وكأنه لم يقف على تفسير السدى الذى أوردته ، وهو أوضح سياقا ، وأصح إسناداً إليه ، لضعف على بن زيد بن جدعان ، وروى عبدالرزاق

---

(١) يبدو أنه ذكر له جانبا من هذا القصص المشين الذى نتعرض لرده هنا .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٠ .

عن معمر عن قتادة قال : جاء زيد بن حارثة ، فقال : يارسول الله إن زينب اشتد على لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها ، فقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، قال : والنبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يطلقها ، ويخشى قالة الناس .

ووردت آثار أخرى أخرجها ابن ابى حاتم والطبرى ، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها ، والذى أوردته منها هو المعتمد ، والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى صلى الله عليه وسلم هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى بأمر لا أبلغ فى الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابنا ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعي لقبولهم ، وإنما وقع الخبط فى تأويل متعلق الخشية والله أعلم »[1] .

٥ — وأيضاً يقول أحد علمائنا المعاصرين — فى التعليق على كلام ابن القيم سالف الذكر — : « رحم الله ابن القيم وعفا عنه فقد انزلق — بحسن نية — إلي ما دسه المغرضون أعداء الإسلام ، لينالوا من مقام نبيه ويطعنوا فى خلقه ، غير مبالين بشهادة الله له « وإنك لعلى خلق عظيم »[2] ومنطوق آيات الأحزاب ومفهومها يعلنان شناعة هذا القول المفترى ، ويتبرآن من هذه الآثار الموضوعة ، ويردان على من فى قلوبهم مرض ، وليس فيها شيء يشين رسول الله ﷺ أو يحط من شأنه ، معاذ الله وحقيقة الأمر أن المولي اقتضت حكمته أن يضع حداً لما جرت عليه عادة العرب من التبنى ، وإعطاء الأدعياء جميع الحقوق والأحكام التي تخص الأبناء الحقيقيين ، من الميراث وحرمة

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ٥١٣ ، ٥٢٤ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

النسب وتحريم تزوج المتبنى بزوجة المتبنى بعد طلاقها، كما هو الحال فى زوجة الابن الحقيقى »[1] .

ثم أخذ فى شرح الآيات الكريمة من سورة الأحزاب على أساس من هذا الفهم السليم والمنطق القويم، وقال بعد ذلك : « هذا هو الحق الذى يؤيده القرآن بمنطوقه ومفهومه، ومعاذ الله أن يكون الرسول قد اشتهى زينب بعد أن زوجها هو لزيد مولاه، ولو كان له فيها رغبة لتزوجها أول الأمر، وقد كانت - ذلك الوقت - ممتنعة على زيد، ونافرة منه، وزاهدة فى الزواج به، فكيف تمتد عينه إليها بعد أن أصبحت ذات بعل والله يقول : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه »[2]، أكان الله يسمح له بعد هذا النهى بأن يتبع هواه، ويساير شهوته ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم »[3] .

والخلاصة أن هذه الرواية مختلقة ولا أصل لها، وأنها من وضع الزنادقة والملاحدة الذين أرادوا أن يثيروا بها الشبهات حول الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشككوا الناس فى رسالته، ويصوروه على أنه رجل شهوانى، يصدر عن نزوات نفسه، وتسيطر عليه ملذات حسه، ولكن أنى لهم ذلك، والرسول صلى الله عليه وسلم - فى عصمته وفى كمال خلقه وعظمته - أقوى من أن تنال منه تلك المحاولات الدنيئة، أو المقالات الرخيصة، إنه القمة الشامخة فى عليائها، فهل يضيرها عواء الذئاب أو نباح الكلاب؟ ويرحم الله الشاعر الذى يقول :

كناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

---

(١) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى بتحقيق الأستاذ الشيخ محمود عبد الوهاب فايد ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) سورة طه : ١٣١ .

(٣) الجواب الكافى ص ٢٠٢ .

المثال الثالث ـ الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن :

لقد وضع بعض الناس ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أحاديث في فضائل القرآن الكريم، ونسبوا هذه الأحاديث ـ كذبا ـ إلى الرسول ﷺ ، وكانوا يعتقدون أنهم بذلك يتقربون إلى الله تعالى، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقد برروا عملهم هذا بأنهم وجدوا الناس قد تشاغلوا عن القرآن الكريم بكتب الفقه والمغازي، فأرادوا ـ بهذه الأحاديث التي وضعوها ـ أن يرغبوا الناس في قراءة القرآن الكريم، فهؤلاء الجهال قد وضعوا تلك الأحاديث بحسن نية، إلا أن هذا لا يعفيهم من تحمل مسئولية الكذب، ولن يكون ذلك شفيعاً لهم يوم القيامة عندما يحاسبهم الله تعالى على ماوضعوا من أكاذيب وما اقترفوا من آثام .

وقد اشتهر من هؤلاء الكذابين أربعة، وضعوا الأحاديث في فضائل القرآن، وأسهموا بنصيب وافر في هذا الميدان :

الأول : هو أبو عصمة نوح بن أبي مريم، فقد روى الحاكم بسنده إلى أبي عمار المروزي أنه قيل لأبي عصمة هذا : من أين ذلك، عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا، فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة، وكان يقال لأبي عصمة هذا : نوح الجامع، قال ابن حبان : جمع كل شيء إلا الصدق[1]

والثاني هو ميسرة بن عبد ربه، فقد روى ابن حبان في الضعفاء عن ابن مهدي قال : قلت لميسرة بن عبدربه : من أين جئت بهذه الأحاديث : من قرأ كذا فله كذا ؟ قال : وضعتها أرغب الناس، وكان ميسرة هذا غلاما يتزهد ويهجر شهوات الدنيا، وغلقت أسواق بغداد لموته، ومع ذلك كان يضع الحديث[2] .

(١) تدريب الراوي جـ ١ ص ٢٨٢

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٣

الثالث والرابع هما بزيع بن حسان ومخلد بن عبد الواحد فقد قيل أنهما وضعا معاً الحديث الطويل عن أبي بن كعب - مرفوعاً - فى فضل القرآن سورة سورة، أو أن أحدهما وضعه والآخر سرقه، قال الشوكانى : « حديث : (من قرأ فاتحة الكتاب أعطي من الأجر كذا) فذكر فضل سورة سورة إلى آخر القرآن، رواه العقيلي عن أبى بن كعب مرفوعا، قال ابن المبارك : أظن الزنادقة وضعته، والآفة من بزيع، وروى - باسناد آخر أيضاً رواه ابن أبى داود - والآفة من مخلد بن عبد الواحد، ولهذا الحديث طرق كلها باطلة موضوعة، وذكر الخليلي فى الإرشاد عن ابن عباس مرفوعا وفى إسناده نوح بن أبى مريم، وقد أقر بأنه الواضع له : فقبح الله الكذابين ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبى بن كعب هذا موضوع، وقد اغتر به جماعة من المفسرين، فذكروه فى تفاسيرهم، كالثعلبي والواحدى والزمخشرى ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن »[1] .

وقال العراقى - تعليقاً على من ذكره من المفسرين - : « لكن من أبرز إسناده منهم كالأولين فهو أبسط لعذره، إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده، وإن كان لا يجوز له السكوت عليه، وأما من لم يبرز سنده وأورده بصيغة الجزم فخطؤه أفحش[2] .

وإليك أمثلة مما ذكره الزمخشرى من هذه الأحاديث الموضوعة فى أواخر تفسيره لبعض السور :

١ - فى آخر سورة (النازعات) أورد فى تفسيره هذا الحديث : « من قرأ سورة (والنازعات) كان ممن حبسه الله فى القبر والقيامة حتي يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة » .

٢ - وفى آخر سورة (الانفطار) أورد فى تفسيره هذا الحديث : « من

---

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٢٩٦

(٢) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٩

قرأ سورة (إذا السماء انفطرت) كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة » .

٣ — وفى آخر سورة (البروج) ذكر فى تفسيره هذا الحديث : « من قرأ سورة (البروج) أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات » .

٤ — وفى آخر سورة (الفجر) ذكر فى تفسيره هذا الحديث : « من قرأ سورة (الفجر) في الليالى العشر غفر له ، ومن قرأها فى سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة » .

٥ — وفى آخر سورة (الضحى) ذكر فى تفسيره هذا الحديث : « من قرأ سورة (والضحى) جعله الله فيمن يرضي لمحمد أن يشفع له ، وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل » .

٦ — وفى نهاية سورة (التين) أورد فى كشافه هذا الحديث : « من قرأ سورة (والتين) أعطاه الله خصلتين : العافية واليقين ، مادام في دار الدنيا ، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة » .

٧ — وفى نهاية سورة (التكاثر) جاء فى تفسيره هذا الحديث : « من قرأ (ألهاكم التكاثر) لم يحاسبه الله بالنعيم الذى أنعم به عليه فيدار الدنيا ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية » .

٨ — وفى نهاية سورة (الكوثر) جاء فى الكشاف هذا الحديث : « من قرأ سورة (الكوثر) سقاه الله من كل نهر في الجنة ، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر أو يقربونه » .

٩ — وفى آخر سورة (الكافرون) ذكر فى الكشاف هذا الحديث : « من قرأ سورة (الكافرون) فكأنما قرأ ربع القرآن ، وتباعدت منه مردة الشياطين ، وبرىء من الشرك ، ويعافى من الفزع الأكبر » .

١٠ — وفى آخر سورة (الفلق) جاء في الكشاف هذا الحديث : «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها» .

هذا ـ ومما يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام أن معظم ما أورده المفسرون فى فضل سور القرآن موضوع ، ماعدا أحاديث معينة صحت فى فضائل بعض السور ، وقد بينها الإمام السيوطي فقال : «واعلم أن السور التي صحت الأحاديث فى فضائلها : الفاتحة والزهراوان[١] والأنعام ، والسبع الطول[٢] مجملا ، والكهف ، ويس ، والدخان ، والملك ، والزلزلة والنصر والكافرون والإخلاص والمعوذتان ، وما عداها لم يصح فيه شيء»[٣] .

المثال الرابع ـ الأحاديث الموضوعة فى فضائل على رضى الله عنه :

سبق أن ذكرنا أن الشيعة ـ ولا سيما الروافض منهم ـ وضعوا كثيراً من الأحاديث فى فضل على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وآل بيته رضوان الله عليهم .

ويقتضى البحث هنا أن نذكر من هذه الأحاديث ما يتعلق بتفسير القرآن الكريم ، ونكتفى فى هذا المجال ببعض الأمثلة وهى :

١ — فى تفسير قوله تعالى : «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»[٤] يذكر المفسرون روايات تفيد أن على بن أبى طالب كان قائماً يصلى ، فمر سائل وهو راكع ؛ فأعطاه خاتمه ، فنزلت : (إنما وليكم الله ورسوله» .

---

(١) الزهراوان هما البقرة وآل عمران .

(٢) السبع الطول هى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، واختلف فى السابعة فقيل :هى الآنفال وبراءة،وقيل: هى يونس، وقيل : هى الكهف .

(٣) تدريب الراوى جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٤) سورة المائدة : ٥٥ .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذه الروايات لا يصح شيء منها بالكلية ، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها (١) ، كما قال ابن تيمية إن هذا الحديث موضوع باتفاق أهل العلم (٢) .

٢ — وفى تفسير قوله تعالى : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد »(٣) وضعت الشيعة هذا الحديث : « إذا كان يوم القيامة قال الله لى ولعلى بن أبى طالب : أدخلا الجنة من أحبكما ، وأدخلا النار من أبغضكما ، فذلك قوله تعالى : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد » .

وقد قال الشوكانى عن هذا الحديث — : « فى إسناده يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، وهو كذاب ، وإسحاق بن محمد بن أبان النخعى ، وهو الواضع له »(٤).

٣ — وفى تفسير قوله تعالى : « والنجم إذا هوى (٥) » يذكرون فى سبب نزول السورة هذا الحديث الموضوع : « لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء السابعة أراه الله من العجائب فى كل سماء ، فلما أصبح جعل يحدث الناس عن عجائب ربه ، وكذبه من كذبه من أهل مكة ، وصدقه من صدقه ، فعند ذلك انقض نجم من السماء ، فقال النبى ﷺ : فى دار من وقع هذا النجم فهو خليفتى من بعدى ، وطلبوا ذلك النجم ، فرجدوه فى دار على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال أهل مكة : ضل محمد وغوى ، وهوى أهل بيته ومال إلى ابن عمه . فعند ذلك نزلت هذه السورة : (والنجم إذا هوى) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٣٠

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ٧٨

(٣) سورة ق : ٢٤ .

(٤) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٨٢ .

(٥) سورة النجم : ١ .

وهذه الرواية يلوح عليها آثار الوضع ، لاسيما وأنها تتحدث عن مشكلة من أعقد وأعضل المشاكل التى واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا وهى الخلافة ، والشيعة — كما هو معروف — يزعمون أن عليا هو الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم الإمام الشوكانى على الحديث السابق بالوضع ، فقال : «رواه الجوزقانى عن ابن عباس مرفوعا، وفى إسناده ثلاثة كذابون ، وهو موضوع بلا ريب »[1] .

٤ — وفى تفسير قول الله تعالى : « ويطعمون الطعام عن حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا»[2] وضعت الشيعة هنا قصة طويلة فى سبب النزول ، ملخصها أن الحسن والحسين مرضاً ، فنذر علي وفاطمة وجارية لهما — إن شفاهما الله تعالى — أن يصوموا ثلاثة أيام شكراً ، فشفاهما الله تعالى ، فصاموا اليوم الأول ، وعندما جاء المغرب ،وحان وقت الإفطار مر عليهم مسكين ، فآثروه بالطعام ، ولم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صائمين ، وفى اليوم الثانى مرعليهم يتيم فآثروه بالطعام، ولم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صائمين ، وفى اليوم الثالث مر عليهم أسير ، فآثروه بالطعام ، ولم يذوقوا إلا الماء ، فلما أصبحوا أخذ على رضي الله عنه الحسن والحسين ، وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورآهم يرتعشون — كالفراخ — من شدة الجوع ، ثم قام الرسول صلى الله عليه وسلم فانطلق معهم إلي فاطمة رضى الله عنها فرآها فى محرابها قد التصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدة الجوع ، فرق لذلك الرسول صلى الله عليه وسلم . وهنا هبط جبريل بسورة الإنسان ، وفيها : « ويطعمون الطعام علي حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولا شكورا » .

---

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٦٩ .

(٢) سورة الإنسان : ٨ ، ٩ .

قال الآلوسي – تعليقاً على هذه القصة – : والخبر مشهور بين الناس ، وذكره الواحدي في كتاب (البسيط) وعليه قول بعض الشيعة :

إلام إلام وحتى متى ... أعاتب فى حب هذا الفتي
وهل زوجت غيره فاطم ... وفى غيره هل أتى هل أتى

وتعقب بأنه خبر موضوع مفتعل ، كما ذكره الترمذى وابن الجوزى ، وآثار الوضع ظاهرة عليه لفظا ومعنى »[1] .

كما يقول القرطبي – عن هذا الحديث – : « قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى (نوادر الأصول) : فهذا حديث مزوق مزيف ، قد تطرف فيه صاحبه ، حتي تشبه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفاً ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى فى تنزيله : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »[2] وهو الفضل الذى يفضل ، عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأن خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، « وابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم ، وقال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ، أفيحسب عاقل أن علياً جهل هذا الأمر حتي أجهد صبيانا صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ حتي تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم ، لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله ﷺ مابهم من الجهد ، هب أنه آثر على نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ وهب أن أهله سمحت بذلك لعلي فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال ، أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلى مثل هذا »[3] .

وإلى هنا نكون قد وفينا هذا النوع من الدخيل فى التفسير حقه من الدراسة والبحث ، ولننتقل الآن إلى نوع آخر منه ، والله المستعان .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٩ ص ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) سورة البقرة : ٢١٩

(٣) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ١٣٤

الفصل الثانى

بدع التفاسير اللغوية

البدعة اسم من الابتداع ، كالرفعة من الارتفاع ، وتطلق على الحالة المخالفة، إلا أنه غلب استعمالها فيما هو نقص فى الدين أو زيادة ، قال – فى القاموس – : « والبدعة – بالكسر – الحدث فى الدين بعد الإكمال ، أو مااستحدث بعد النبي ﷺ من الأهواء والأعمال ، وجمعها بدع كعنب » .

وإذا ما أطلقت البدعة فانها تنصرف غالباً إلى بدعة الضلال ، وهى التى تكون فى خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، وتلك داخلة فى حيز الذم والإنكار ، وعلى ذلك يحمل حديث : « كل محدثة بدعة » فان المراد به ماخالف أصول الشريعة ، ولم يوافق السنة ، وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا فى الذم .

هذا ما يتعلق بمعنى البدعة لغة وشرعا ، أما بدع التفاسير فذلك اصطلاح ورد على لسان الزمخشرى ، وتردد فى مواضع كثيرة من تفسيره المعروف بالكشاف ، ويعنى الزمخشرى بهذا الاصطلاح نوعا من الأنواع المخطئة أو الخاطئة فى التفسير ، تلك التى لاسند لها من الدين ولا من اللغة ، كأن يكون التفسير مخالفاً لما تقتضيه القواعد المأخوذة من الكتاب والسنة ، أو يكون منافياً لسياق الكلام ، بعيداً عن معنى الآية ، أو يكون قائماً علي أساس من التكلف والتعسف فى التأويل ، أو يكون مخرجا على الوجوه الضعيفة أو الشاذة بحسب القواعد النحوية ، وما إلى ذلك ، ومن الطريف أن الزمخشرى – وهو الذى استحدث هذا التعبير – قد وقع فى شيء من هذه البدع فى التفسير وسنبين ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والأسباب التي أدت إلى الوقوع في بدع التفاسير اللغوية كثيرة ، أهمها ما يلي :

١ — الجهل بقواعد اللغة وأوضاعها : فقد تصدى لتفسير كتاب الله تعالى جماعة من الذين ليست عندهم أهلية تامة للتفسير ، وليس لديهم معرفة واسعة بأوضاع اللغة وقوانينها ، فأخطئوا في التأويل ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وجاءوا لنا بالبدع والغرائب في التفسير ، وهؤلاء لا نعرف لهم كتباً خاصة فربما تكون هذه الكتب التي ألفوها في التفسير ضاعت مع الأيام وبمرور الزمان ، وكل الذي نعرفه عنهم إنما هي أقوال منسوبة إليهم ، مبثوثة هنا وهناك في كتب التفسير المختلفة ، وكتب الدراسات القرآنية بوجه عام .

ومن أمثلة ذلك ما حكي عن سفيان بن عيينة(١) في تفسير قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى »(٢) فقد فسر قوله تعالى : (تذكر إحداهما الأخرى) بمعنى : تجعل إحداهما الأخرى ذكرا ، يعني أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر .

وهذا التفسير – كما ترى – غريب من جهة المعنى ، لأن التذكير بمعنى جعل الأنثى ذكرا شيء غير معهود ولا مألوف في لغة العرب ، كما أن هذا التفسير بعيد عن روح الآية ، لأنه لا يتلاقى مع قوله : (أن تضل إحداهما) ومن ثم قال الزمخشري إن هذا الكلام من بدع التفاسير (٣) .

أما الإمام الآلوسي فقد فند هذا الوجه في تأويل الآية بأن فيه قصوراً من جهة المعنى واللفظ ، لأن التذكير في مقابلة النسيان معنى مكشوف وغرض بين ، ورعاية العدد لأن النسوة محل النسيان كذلك ، ولأن جعلها ذكرا مجاز

---

(١) انظر تفسير الآلوسي جـ ٣ ص ٥٩

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٨٩

عن إقامتها مقام الذكر ، ثم تجوز ثانياً لأنهما القائمتان مقامه ، فلم تجعل إحداهما الأخرى قائمة مقامه [1] .

٢ — التعسف في التأويل اتباعاً للهوى وانتصارا المذهب : فقد لجأ كثير من أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية إلى القرآن الكريم لتأييد مايعتنقون من عقائد وآراء ، فاذا ما وجدوا في القرآن الكريم نصاً مخالفاً لما يعتنقون أشهروا في وجهه سلاح التأويل ، وارتكبوا في سبيل ذلك مخالفات شنيعة ، وتمحلوا له تحلات غريبة ، وحملوا ألفاظ القرآن على معان ما أنزل الله بها من سلطان ، ولنضرب لذلك مثالا : وهو أن المعتزلة ينفون صفات الله تعالى ، فاذا ما صادفوا في القرآن الكريم نصاً يثبت صفة من هذه الصفات لجأوا إلى التعسف في التأويل انتصاراً المذهب ، فمثلا عند تفسير قوله تعالى : « وكلم الله موسي تكليما »[2] يقول بعضهم إن هذه الآية لا دلالة فيها على إثبات صفة الكلام لله تعالى ، لأن (كلم) هنا بمعنى جرح ، فهي من الكلم — بفتح فسكون — أي الجرح .

والزمخشري — وإن كان إماماً من أئمة الاعتزال — إلا أنه بحسه اللغوى ، وذوقه الأدبي لم يرتض هذا المسلك الغريب في تفسير الآية ، بل نجده يقول : « ومن بدع التفاسير أنه — يعني (كلم) — من الكلم ، وأن معناه وجرح الله موسي بأظفار المحن ومخالب الفتن »[3] .

ولما كانت الآية صريحة في إثبات صفة الكلام لله تعالى ، والفعل فيها مؤكداً بالمصدر الذى يرفع احتمال المجاز فيه نجد ابن المنير — في تعليقه على ذلك — يقول : « وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة ، لإنكارهم الكلام القديم

(١) تفسير الآلوسي جـ ٣ ص ٥٩

(٢) سورة النساء : ١٦٤

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٨

الذى هو صفة الذات ، إذ لا يثبتون إلا الحروف والأصوات قائمة بالأجسام ، لا بذات الله تعالى ، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام فى التكليم ، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفا وأصواتا قائمة ببعض الأجرام ، وذلك مشترك بين موسى وبين كل سامع لهذه الحروف ، حتى المشرك الذى قال الله فيه : « حتى يسمع كلام الله »(١) ، فيضطر المعتزلى إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم على التجريح ، وصدق الزمخشرى وأنصف إنه لمن بدع التفاسير التى ينبو عنها الفهم ، ولا يبين بها إلا الوهم والله الموفق »(٢) .

٣ — عدم مراعاة سياق الكلام : فقد تعسف قوم فى تأويل القرآن الكريم ، لأنهم لم يراعوا سياق الكلام ، ولم يضعوا فى اعتبارهم — وهم يفسرون القرآن — أن تكون الآيات بعضها مع بعض منسجمة المعانى ، مترابطة الأوصال ، ومن ثم جاءوا لنا فى التفسير بكلام متنافر الأجزاء ، مقطع الأوصال ، ممزق الأوشاج ، يلفظه الفهم الصحيح ، ويمجه الذوق السليم ، من ذلك ما نقل عن النضر بن شميل(٣) — وهو إمام من أئمة اللغة — وأظنه لا يصح عنه ، فقد فسر قول الله تعالى : « سنسمه على الخرطوم »(٤) بأن الخرطوم هى الخمر وأن معنى الآية سنحده على شربها ، وقد وصف الزمخشرى هذا التفسير بأنه تعسف(٥) ، كما قال الآلوسى إن هذا التفسير تنفيه الروايه والدراية معاً ، أما الرواية فلأن أولئك الكفار هلكوا قبل تحريم الخمر ، وأن الوليد بن المغيرة — وهو الذى نزلت الآية فى شأنه — لم يثبت

---

(١) سورة التوبة : ٦

(٢) الانتصاف على هامش الكشاف جـ ١ ص ٣٩٨

(٣) انظر تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٢٩ .

(٤) سورة القلم : ١٦ .

(٥) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٠ .

أنه حد على شرب الخمر ، وأما الدراية فلأنه تفسير يؤدى إلى تعقيد اللفظ وفوات فخامة المعنى [1] .

وحيث قد عرفنا أن هذا التفسير مردود فما معنى الآية إذن ؟ إن المعنى الصحيح الذى يتناسب مع السياق هو : سنجعل له سمة وعلامة على الخرطوم أى الأنف ، وهو كناية عن غاية الإذلال، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ والضمير يعود على الوليد بن المغيرة الذى جاءت أوصافه فى الآيات السابقة : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم » الخ ، وقد خطم بالسيف يوم بدر ، فبقيت سمة على خرطومه إهانة وإذلالا له فى الدنيا ، وقيل : هذا وعيد له بأمر يكون في الآخرة ، وهو أنه يوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره والله أعلم .

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٩ ص ٢٩ .

أمثلة من بدع التفاسير اللغوية

إن بدع التفاسير اللغوية كثيرة ومتنوعة ، فمنها ما يتعلق بالمعانى اللغوية ، ومنها مايتعلق بالقواعد النحوية ، ومنها ما يتعلق بالقراءات وتوجيهها ، ونحن هنا إن شاء الله تعالى سنتناول ـ بالدراسة ـ كل نوع من هذه الأنواع ، كما سنورد في كل نوع بعض الأمثلة التى توضحه وتلقى مزيداً من الضوء عليه ، وأيضاً سنبين ـ أثناء تناولنا لبدع التفسير ـ المعنى الصحيح في تفسير الآية إن اقتضى الأمر ذلك ، والله المستعان ، وإليك البيـان :

أولا ــ ما يتعلق بالمعانى اللغـوية :

١ تحريف الكلم عن مواضعه : وذلك بالتغيير فى بعض ألفاظ القرآن الكريم ، وتفسيرها على أساس من هذا التغيير ، ولا شك أن هـذا إلحاد فى آيات الله تعالى ، وتبديل فى رسم المصحف الشريف ، ولا يجترىء على ارتكاب مثل ذلك إلا منحرف أو زائغ ، بل إن هذا العمل يكاد يكون كفرا ، ومثال ذلك ما قيل فى تفسير قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه »[١] فقد حرف بعض الصوفية هذه الآية إلى (من ذل ذى) يعنى نفسه يشفع عنده ، يقصد أن من ذل نفسه فى طاعة الله كان حقيقا بالشفاعة عند مولاه ، وقد غفل هذا الجاهل عن أن فعل (ذل) لازم لا يتعدى إلى ما بعده ، كما غفل عن معنى الاستثناء الذى يقتضى أن يتقدم المستثنى شيء يصح أن يكون فى موضع المستثنى منه ، قال السيوطى ـ فى هذا الصدد ـ : «وسئل شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى عن رجل قال فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه » إن معناه : (من ذل) أى من الذل ، (ذى) إشارة إلى النفس ، (يشف) من الشفا جواب من ، (ع) أمر من الوعى ، فأفتى بأنه ملحد ، وقد قال الله تعالى : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا »[٢] قال

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٢) سورة فصلت : ٤٠ .

ابن عباس : هو أن يوضع الكلام على غير موضعه ، أخـــرجه ابن أبي حاتم »[1] .

ولعل من الواضح هنا أن معنى (من) فى هذه الآية استفهامية لا شرطية والاستفهام إنكاري بمعنى النفي ، ولذا جاء الاستثناء بعده ، والمراد من الآية بيان كبرياء الله تعالى وعظم شأنه ، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه ، بحيث يستقل أن يدفع ما يريده الله دفعا على وجه الشفاعة فضلا عن أن يستقل بدفعه عنـاداً ، وفى ذلك تأييس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله تعالى .

ومن أمثلة هـذا النوع ما ذكر فى تفسير قوله تعالى : « عيناً فيها تسمى سلسبيلا »[2] فقد حرف بعض الناس الآية إلى (سل سبيلا) ، وقال إنه أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته بسؤال السبيل إليها ، وقد نسب هـذا القول إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال الزمخشري : « وقد عزوا إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أن معناه : سل سبيلا إليها ، وهـذا غير مستقيم على ظاهره ، إلا أن يراد أن جمـلة قول القائل : (سل سبيلا) جعلت علماً للعين ، كما قيل : تأبط شرا ، وذرى حبا : وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته فى العربية تكلف وابتداع ، وعزوه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع، وفى شعر بعض المحدثين:

سل سبيلا فيها إلى راحة النفس براح كأنها سلسبيل »[3] .

وأغلب الظن أن هذا القول فى تفسير الآية لا يصح عن على كرم الله وجهه ، بل لقد نص بعض العلماء على أنه افتراء عليه رضى الله عنه[4] ،

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٤ .

(٢) سورة الإنسان : ١٨ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥١٢ .

(٤) تفسير الآلوسي جـ ٢٩ ص ١٦١ .

أما القول الصحيح في تفسير الآية فان السلسبيل - كالسلسل والسلسال - ما كان من الشراب غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق ، وكأن العين إنما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها .

٢ - تفسير اللفظ بغير ما يدل عليه في لغة العرب : فان هذا يؤد ولاشك إلي الخطأ في التأويل ، وتحميل ألفاظ القرآن مالا تحتمل من المعاني، ومثال ذلك ما روى عن محمد بن كعب القرظي [١] في تفسير قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بامامهم » [٢] من أن إماما جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم لا بآبائهم ، وقد ندد الزمخشري بهذا التفسير ، وتهكم عليه فقال : « ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة من الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا ، وليت شعرى أيهما أبدع : أصحة لفظه أم بهاء حكمته ؟ » [٣] .

كما فند الآلوسى هذه البدعة في التفسير من حيث اللفظ والمعنى فقال - رحمه الله - : « ووجه عدم قبوله علي ما في الكشف ، أما أولا فلأن إمام جمع أم غير شائع ، وإنما المعروف أمهات ، وأما ثانياً فلأن رعاية حق عيسي عليه السلام في امتيازه بالدعاء بالأم ، فان خلقه من غير أب كرامة له ، لا غض منه ليجبر بأن الناس أسوته في انتسابهم إلى الأمهات ، وإظهار شرف الحسنين بدون ذلك أتم ، فان أباهما خير من أمهما ، مع أن أهل البيت كحلقة مفرغة ، وأما افتضاح أولاد الزنا فلا فضيحة إلا للأمهات ، وهي حاصلة ، دعى غيرهم بالأمهات أو بالآباء ، ولا ذنب لهم في ذلك ، حتي يترتب عليه الافتضاح » [٤] .

---

(١) انظر تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ١٢١ .
(٢) سورة الإسراء : ٧١ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٧١٣ .
(٤) تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ١٢١ .

ويبدو أن صاحب هذه البدعة إنما استند ـ في بدعته ـ إلي بعض الأحاديث التي تفيد أن بعض الناس يدعون يوم القيامة بأسمـاء أمهاتهم ، غير أن هذه الأحاديث ضعيفة ومعارضة لما في الصحيح ، وفي ذلك يقول أحـــد العلماء المعاصرين : «روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس مرفوعا : «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه علي عبـاده » في إسناده وضاع ، وورد نحوه من حديث عائشة وأنس بأسانيد ضعيفة ، ولذا ذكره ابن الجوزى في الموضوعات،وهو معارض بحديث أبي الدرداء مرفوعاً : « إنكم تدعون يوم القيـامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم » رواه أبو داود باسناد جيد ، وفي صحيح البخارى عن ابن عمر مرفوعا : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غدرة فـلان ابن فلان » ه فهذان الحديثان الصحيحان يفيدان أن الناس يدعون يوم القيـامة بأسماء آبائهم »[1] .

وعلي ذلك فان الإمام في الآية لفظ مفرد ، وهو المقتدى به ، والمتبع عاقلا كان أو غيره ، والمعنى : يوم ندعو كل أناس من بنى آدم بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين ، أو كتاب أو دين ، فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا ، أو كتاب كذا والله أعلم .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن بعض المعتزلة فسر الكرسي بالعلم في قوله تعالى: « وسع كرسيه السموات والأرض »[2] ، واستدل على ذلك ببيت من الشعر كأنه مصنوع لهذا الغرض ، وهو :

ولا يكـــرسيء علم الله مخـــلوق

أى لا يعلم علم الله مخلوق ، وغرض من فسر الآية بذلك إنكار أن يكون

---

(١) بدع التفاسير للشيخ عبد الله محمد الصديق الغمارى ص ٧٨ بالهامش .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

لله تعالى كرسي ، وهو جسم عظيم بين يدي العرش محيط بالسماوات السبع كما يعتقد أهل السنة والجماعة ، وحقيقته لا يعلمها إلا الله تعالى .

وقد نعى ابن قتيبة على المعتزلة هذا المسلك الغريب في تفسير الآية ، فقال : « وفسروا القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلي مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم ، فقال فريق منهم في قوله تعالي : « وسع كرسيه السموات والأرض » أى علمه ، وجاءوا علي ذلك بشاهد لا يعرف ، وهو قول الشاعر :

ولا يكرسيء علم الله مخلوق

كأنه عندهم : ولا يعلم علم الله مخلوق ، والكرسي غير مهموز ، ويكرسيء مهموز ، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيا »[1] .

٣ — تخريج معنى الآية على لغة غريبة : من الواجب على المفسر أن يجتنب غريب اللغة والشاذ في تفسير القرآن الكريم ، وأن يعتمد اعتماداً كلياً على أفصح اللغات ، حتى يحمل القرآن على أحسن وجوه التأويل ، وقد أخطأ قوم فسروا القرآن بلغة غريبة أو شاذة ، فجاءوا لنا بالبدع والغرائب في التفسير ، ومن ذلك ماذكر في تفسير قوله تعالى — عن نسوة يوسف — : « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »[2] فقد قال بعد الناس : إن (أكبرن) بمعنى : حضن .

وقد وجه الآلوسي هذا القول الذى قيل إنه مروى عن ابن عباس في تفسير الآية ، ثم أعقبه بالرد عليه وتضعيف نسبته إلى ابن عباس ، وفي ذلك يقول

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ .

(٢) سورة يوسف : ٣١ .

الآلوسي : « وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى (أكبرن) حضن، ومن ذلك قوله :

يأتى النساء على أطهارهن ولا   يأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

وكأنه إنما سمى الحيض إكبارا لكون البلوغ يعرف به ، فكأنه يدخل الصغار سن الكبر ، فيكون فى الأصل كناية أو مجازاً ، والهاء — على هذا — إما ضمير المصدر ، فكأنه قيل :أكبرن إكبارا ، وإما ضمير يوسف عليه السلام ، على إسقاط الجار ، أى حضن لأجله من شدة شبقهن ، والمرأة — كما زعم الواحدى — إذا اشتد شبقها حاضت ، ومن هنا أخذ المتنبى قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع   إذا لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل : إن الهاء للسكت ، ورد بأنها لاتحرك ولاتثبت فى الوصل ، وإجراء الوصل مجرى الوقف ، وتحريكها تشبيها لها بالضمير كما فى قوله :

واحر قلباه ممن قلبه شبم

على تسليم صحته ضعيف فى العربية ، واعترض فى (الكشف) التخريجين الأولين ، فقال : إن نزع الخافض ضعيف ، لأنه إنما يجرى فى الظروف والصفات والصلات ، وذلك لدلالة الفعل على مكان الحذف، وأما فى مثل هذا فلا ، والمصدر ليس من مجازه ، إذ ليس المقام للتأكيد وزعم أن الوجه هو الأخير ، وكل ماذكره فى حيز المنع كما لايخفى .

وأنكر أبو عبيدة مجىء (أكبرن) بمعنى حضن ، وقال : لانعرف ذلك فى اللغة ، والبيت مصنوع مختلق ، لايعرفه العلماء بالشعر ، ونقل مثل ذلك عن الطبرى وابن عطية وغير واحد من المحققين ، ورواية ذلك عن ابن عباس إنما أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد ،

وهو — وإن روى ذلك عن أبيه على عن أبيه ابن عباس — لا يعول عليه، فقد قالوا: إنه — عليه الرحمة — ليس من رواة العلم »[1].

ولا يخفى أن المعنى الصحيح للآية هو: فلما رأت النسوة يوسف عليه السلام أكبرنه أي أعظمنه ودهشن برؤية جماله الفائق الرائع، فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، ومن هنا قطعن أيديهن بالسكاكين التي كانت في الأيدي لفرط دهشتهن من جمال يوسف عليه السلام.

ومن أمثلة هذا النوع كذلك ماقيل في تفسير قوله تعالى: « وعصى آدم ربه فغوى[2] » فقد ذكر بعض المتكلمين أن معنى (غوى) هنا بشم من كثرة الأكل، وكأنه بذلك يفر من إسناد الغي الذي هو ضد الرشد إلى آدم عليه السلام، ولم يدر أن آدم عليه السلام إنما أكل من الشجرة نسيانا، بدليل قوله تعالى: « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما »[3].

وقد حكم الزمخشري على هذا التفسير بأنه خبيث لأنه نسب آدم عليه السلام إلى الشره وهو دال على الدناءة، والأنبياء معصومون من الدناءة، كما أن هذا التفسير مخرج على لغة ضعيفة، قال الزمخشري: « وعن بعضهم: — فغوى — فبشم من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغه من يقلب الياء المكسور ماقبلها ألفا، فيقول في فنى وبقى فنا وبقا، وهم بنوطيء، تفسير خبيث »[4].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) سورة طه : ١٢١.

(٣) سورة طه : ١١٥.

(٤) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧.

كذلك من الأمثلة في هذا المجال ما نقل عن الجنيد[1] في تفسير قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »[2] فقد قال : إن السليم هنا بمعنى اللديغ من خشية الله تعالى، استناداً إلى اطلاق السليم في لسان العرب على اللديغ من باب التفاؤل ، قال الزمخشري : « ومن بدع التفاسير تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله »[3].

ومن الواضح أن حمل الآية على هذا المعنى غير سليم ، والتفسير الصحيح للآية هو أن نقول : إن يوم القيامة لا ينفع الإنسان فيه ماله ولا أولاده ، ولكن ينفعه أن يأتي الله بقلب سليم من الشرك والمعاصي والله أعلم .

٤ — تفسير اللفظ بمعنى مستهجن لا يصح حمل القرآن عليه، فان مثل هذه المعاني المستهجنة القبيحة مما يجب تجنبه في التفسير ، وتنزيه ساحة القرآن عنه ، وقد أقدم بعض الناس على ارتكاب هذا النوع في التفسير ، فأساءوا إلى القرآن الكريم إساءة بالغة ، ودل فعلهم هذا على ما هم عليه من جهل عظيم، وفهم سقيم ، ومن ذلك ما ذكروا في تفسير قوله تعالى : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا »[4] . فقد قال بعض الناس : إن قوله تعالى (واهجروهن) معناه : وأكرهوهن على الجماع واربطوهن، من هجر البعير إذا ربطه بالهجار ، والهجار — ككتاب — حبل يشد به البعير .

وهذا — ولاشك — معنى مستهجن لا يليق بالقرآن الكريم ، ولا بجلال ألفاظه ، فما الذي يجعلنا نعدل عن اللغة المشهورة في بيان معنى الهجر

---

(١) انظر تفسير الآلوسي ج ١٩ ص ١٠١ .

(٢) سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) سورة النساء : ٣٤ .

إلى هذه اللغة المسترذلة القبيحة من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، وقد علق الزمخشرى على هذا التفسير الشاذ فقال : « وهذا من تفسير الثقلاء »[1] ، وصدق فيما قال ، فان الزوجة إذا كانت ناشزا ومتمردة على الزوج ، فهل يليق به أن يرغمها على الجماع ، ويربطها من أجله ، إلا أن يكون سمجاً ثقيل الظل ، عديم الشعور والإحساس ، وإن الذى يحمل الآية على هذا المعنى إنما هو من هذا الصنف من الناس .

وقد ذهب الطبرى — فى تفسير الآية — إلى قريب من هذا المنزع ، واختار أن يكون معنى (اهجروهن) هوشدوهن وثاقا فى بيوتهن واحبسوهن من قولهم : هجر البعير أى ربطه بالهجار[2] .

ونحن نرى أن ما ذكره الطبرى هنا غير مقبول ، لأنه قد اختار فى تفسير اللفظه القرآنية هذا المعنى المرذول ، وإن لم يذكر الجماع ، ولا شك أن الذى اختاره الطبرى فى تفسير الآية لا يقل فى القبح عن القول السابق ، فهما مأخوذان من معين واحد ، ومن ثم نجد القرطبي يتعقب ماقاله الطبرى في هذا الصدد فيقول : « وفى كلامه فى هذا الموضع نظر ، وقد رد عليه القاضي أبو بكر بن العربى فى أحكامه فقال : يالها من هفوة من عالم بالقرآن والسنة ، والذى حمله على هذا التأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك أن أسماء بنت أبى بكر الصديق امرأه الزبير بن العوام كانت تخرج ، حتى عوتب فى ذلك ، قال : وعتب عليها وعلى ضرتها ، فعقد شعر واحدة بالأخرى،ثم ضربهما ضرباً شديداً ، وكانت الضرة أحسن اتقاء ، وكانت أسماء لا تتقى ، فكان الضرب بها أكثر ، فشكت إلي أبيها أبى بكر رضي الله عنه ، فقال لها : أى بنية ، اصبرى فان الزبير رجل صالح ، ولعله أن يكون زوجك فى الجنة ، ولقد بلغنى أن الرجل إذا ابتكر بامرأة تزوجها فى الجنة،فرأى الربط والعقد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبي جـ ٥ ص ١٧٢ .

مع احتمال اللفظ ، مع فعل الزبير ، فأقدم على هذا التفسير »[1] .

وغنى عن البيان أن الهجر في الآية بمعنى الترك، قال الآلوسي: «واهجروهن في المضاجع : أي مواضـــع الاضطجاع ، والمراد اتركوهن منفردات في مضاجعهن ، فلا تدخوهن تحت اللحف ، ولا تباشروهن ، فيكون الـكلام كناية عن ترك جماعهن ، وإلى ذلك ذهب ابن جبير، وقيل : المراد اهجروهن في الفراش بأن تولوهن ظهوركم فيه ، ولا تلتفتـوا إليهن ، وروى ذلك عن أبي جعفر رضي الله عنه ، ولعله كناية أيضاً عن ترك الجماع »[2] .

ومن أمثلة هذا النوع كذلك ما قاله بعض الناس في تفسير قوله تعـالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا »[3] من أن المراد بالأرض في قوله : « وأرضا لم تطئوها » نساء بني قريظة ، وقد عد الزمخشري هذا القول من بدع التفاسير[4] ، كما سخر منه أحد العلماء المعاصرين فقال : « هذا تأويل بعث عليه الشبق ، وانتقل ذهن صاحبه من وطء الأرض إلى وطء الفرج »[5] .

ونحن هنا نتساءل كيف يصح أن يحمل القرآن على هذا المعنى المستهجن وأمامنا المعنى المستقيم للآية ، الذي لا عوج فيه ولا التواء ، وهو أن الأرض هنا يراد منها الحقيقة لا المجاز . فقيـل : هي أرض خيبر التي فتحت بعد بني قريظة ، وقيل : هي مكة ، وقيل : أرض الروم وفارس ، وقيل : هي ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة والله أعلم .

٥ — تفسـير الآية بمعنى باطل عقلا وشرعا : وهذا ميدان فسيح لأهل

---

(١) المصدر السابق .

(١) تفسير الآلوسي جـ ٥ ص ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٧ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٠ .

(٤) بدع التفاسير ص ١٠٢ .

البدع والأهواء ، وأصحاب الاتجاهات المنحرفة فى تفسير القرآن ، فقد حمل بعضهم ألفاظ القرآن الكريم على معان ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لها دليل ولا برهان ، وإنما هى أوهام وترهات ، وأكاذيب وضلالات وقد غفل هؤلاء عن حقيقة لا يعزر أحد بجهلها ، وهى أنه ليس كل ما يحتمله اللفظ من المعانى جائزاً فى تفسير القرآن الكريم ، فقد يكون اللفظ — من حيث العربية — يحتمل معنى من المعانى ، إلا أن هذا المعنى لا يصح حمل القرآن عليه حيث قام الدليل على فساده وبطلانه ، وفى هذه الحالة يكون حمل القرآن عليه ضربا من ضروب الإلحاد فى آيات الله ، وتحريفا للكلم عن مواضعه ، وكذبا على الله تعالى ، وجهلا فاضحاً بحقائق التنزيل ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض الجهلة فى تفسير قوله تعالى : « قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »[1] فقد قال إن معنى (ليس من أهلك) إنه ابن زنا ، وهذا قول شنيع يدل على الجهل بمقام النبوة ، ثم إن هذا القول مردود بنص القرآن الكريم ، فان الله تعالى قال — قبل هذه الآية — : « ونادى نوح ابنه »[2] فنسب الإبن إليه ، وهذا دليل قاطع على أنه ابنه لصلبه ، إذ من المستحيل أن يكون ابن زنا وينسبه الله إليه ، كما يرد هذا القول أيضاً أن نوحا قال : « رب إن ابنى من أهلى »[3] ، فاشتمل كلامه على أمرين : نسبة الابن إليه ، وأنه من أهله ، ورد الله عليه فقال : « إنه ليس من أهلك » فأقر ببنوته ، ونفى أنه من أهله الناجين ، ولو لم يكن ابنه لقال له : ليس ابنك وليس من أهلك[4] .

ويرد هذا القول كذلك بأن الأنبياء لا يجوز في حقهم ما قد يجوز على بعض الناس من أن زوجاتهم يزنين ويحملن من سفاح ، وصدق من قال :

---

(١) سورة هود : ٤٦ .

(٢) سورة هود : ٤٥ .

(٣) سورة هود : ٤٥ .

(٤) انظر بدع التفاسير ص ٦٨ بالهامش .

« مابغت امرأة نبي قط » ، وقد ذكر القشيرى إجماع المفسرين على ذلك[1].

هذا وقد نسب القرطبي هذا القول الفاسد فى تفسير الآية إلى ابن جريج ، ثم قام بالرد عليه فقال : « وقال ابن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ابنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت امرأته خانته فيه ، ولهذا قال : « فخانتاهما »[2] ، وقال ابن عباس مابغت امرأة نبي قط ، وأنه كان ابنه لصلبه ، وقيل لسعيد بن جبير : يقول نوح : « إن ابنى من أهلى » أكان من أهله ؟ أكان ابنه ؟ فسبح الله طويلا . ثم قال : لاإله إلا الله ، يحدث الله محمداً ﷺ أنه ابنه ، وتقول إنه ليس ابنه ، نعم كان ابنه ، ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » وهذا هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به »[3].

كذلك من أمثلة هذا النوع الباطل ماقيل فى تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين »[4] فقد ذكر بعض الناس أن المراد بالخيانة هنا الزنا ، وقد فند الآلوسى هذا المعنى الفاسد فقال : « ولا تفسر — يعنى الخيانة — هنا

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٢٠٢ .

(٢) سورة التحريم : ١٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) سورة التحريم : ١٠ .

بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس : « مازنت امرأة نبي قط » ، ورفعه أشرس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الكشاف لا يجوز أن يراد بها الفجور ، لأنه سمج في الطبع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فان الكفر لا يستسمجونه ويسمونه حقا ، ونقل ابن عطية عن بعض تفسيرها بالكفر والزنا وغيره ؛ ولعمري لا يكاد يقول بذلك إلا ابن زنا ، فالحق عندي أن عهر الزوجات كعهر الأمهات من المنفرات التي قال السعد : إن الحق منعها في حق الأنبياء عليهم السلام ، ومايُنسب للشيعة مما يخالف ذلك في حق سيد الأنبياء ﷺ كذب عليهم ، فلا تعول عليه وإن كان شائعاً »[1] .

كما ذكر أحد العلماء المعاصرين — بالتفصيل — الأدلة العقلية والنقلية على فساد هذا القول وبطلانه فقال : « زعم بعض المعاصرين ممن أقحم نفسه في التفسير بغير علم أن المراد بالخيانة الزنا ، وهذا من بدع التفاسير ، وهو يدل على جهل صاحبه وغباوته ، فليست الخيانة هنا إلا المخالفة في العقيدة ، ومساعدة الكفار على زوجيهما ، وهو خلاف ماتقضيه العشرة الزوجية من صفاء المودة ، وحسن المراعاة .

والدليل على هذا أمور :

الأول : أن امرأة نوح كانت ترمي زوجها بالجنون ، وتساعد قومه عليه من شتمه وإيذائه ، وامرأة لوط كانت تدل قومه على ضيوفه ، إذا كانوا حسان الوجوه ، لم ينقل عنهما غير ذلك .

الثاني : لو ثبت عليهما شيء من الزنا لأسرع قوم نوح وقوم لوط إلى تعييرهما والتشنيع عليهما ، لكنهم لم يعرجوا على ذلك بحال .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ٢٨ ص ١٦٢ .

الثالث : أن من يقع الزنا في بيته بأهله وهو لا يشعر كيف يكون أهلا لأن يدعو أمة ، ويتزعم شعبا ؟ .

الرابع : أن أكبر عار يلحق بالرجل ويسقط حرمته وكرامته وقوع الزنا في أهله ، فكيف ينسب إلى رسولين كريمين ، كان أحدهما يكافح جريمة اللواط ، وكان من السهل جداً أن يقول له قومه : اذهب إلى بيتك فطهره من الفاحشة ، ثم تعال فطهرنا .

الخامس : لا يجوز أن يقع الزنا في بيت نبي يوحى إليه ، ولا ينبه الله عليه ، هذا محال لأن الله تعالى غيور ، كما ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ماحرم الله عليه » ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس في قصة قذف هلال بن أمية امرأته ، ونزول قوله تعالي : « والذين يرمون أزواجهم »[1] الآية ، وقول سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح[2] ، قال النبي ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد ، لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن » فكيف يرضاها في بيت رسول يختاره لتلقي وحيه ، ودعوة الناس إلى توحيده وإقامة دينه .

السادس : أن من الشروط التي يجب عقلا وجودها في الرسول الفطنة والذكاء والذي يقع الزنا في أهله — وهو لا يشعر — يكون بالغ النهاية في الغفلة والبلاهة ، ولا يجوز أن يكون الرسول مغفلا أو أبله ، بل الغفلة

---

(١) سورة النور : ٦ .

(٢) مصفح — بضم الميم وسكون الصاد وفتح الفاء — مائل علي صفحته أي جانبه ، والمعنى : لو وجدت رجلا مع امرأتي لضربته بحد السيف لأقتله ، ولا أضربه بجانب السيف الذي لا يقتل .

مذمومة في عموم الصالحين ، ألا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه : « لست بخب ، والخب لا يخدعني » تجده يتبرأ من الغفلة ، كما يتبرأ من الخبث ، فهو ليس بخبيث ، لكنه ليس من الغفلة ، بحيث يخدعه خبيث ، لأنه مؤمن ، والمؤمن فطن ، كما جاء في مسند الشهاب القضاعي من حديث أنس : « المؤمن كيس فطن حذر » .

السابع : أن كفر المرأة لا يعيبها ولا يلحق زوجها عار بسببه ، لأنه ينشأ عن عناد في الرأى ، أو اعتداد به ، أو تقليد للاباء . لكن زناها يعيبها ويعيب أهلها ، لأن سببه اغتلام الشهوة ، وانحطاط الخلق ، ودناءة الهمة ، وسوء التربية ، ولهذا لما جاءت هند زوجة أبي سفيان ، لتسلم وكانت من العنيدات في الشرك ، والمعتزات به - وعرض عليها النبي ﷺ - فيما عرض - « ولا تزنين » قالت مستنكرة : أو تزني الحرة ؟ فمن ثم جاز أن تكون زوج النبي كافرة ، ولم يجز أبداً بحال أن تكون زانية ، وهذا معني مارواه عبد الرزاق والطبرى وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مابغت امرأة نبي قط ، أي ما زنت »[1].

٦ - حمل الآية على معنى بعيد لا يتناسب مع السياق : وهذا كثير في كتب التفسير ، ونكتفي هنا بمثالين أرى أنهما من بدع التفاسير ، ولا يقل أحدهما عن الآخر غرابة وبعداً عن سياق القرآن الكريم ، وأحد المثالين قديم والأخر حديث ، وإليك البيان :

المثال الأول : ماذكره بعض اللغويين في تفسير قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون »[2] من أن المراد بالفرقان هنا القرآن ، والمعني : ولقد آتينا موسى الكتاب أي التوراة والإيمان بالفرقان أي القرآن ، أو المعنى : ولقد آتينا موسى التوراة وآتينا محمداً القرآن .

---

(١) بدع التفاسير ص ١٣٤ وما بعدها ،

(٢) سورة البقرة : ٥٣ .

وأنت ترى أن هذا المعنى بعيد كل البعد عن سياق الآية ، إذ أنه يحتاج لتقدير كلام ، وهذا الكلام المقدر لاضرورة تدعو إليه فى تفسير الآية ، والمعنى الصحيح للآية الذى لايحتاج إلى تقدير هو أن نقول : وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ، يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلا وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، والمراد بذلك التوراة ، كما تقول رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والشجاعة ، ونحوه قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً »[1] ، يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً ، وقيل : المعنى : وإذ آتينا موسى التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، وقيل : المراد بالفرقان الشرع الفارق بين الحلال والحرام ، أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان »[2] يريد به يوم بدر الذى انتصر فيه المسلمون على الكفار .

ومن الواضح أن هذه المعانى التى ذكرناها فى بيان المراد بالفرقان ، كلها تتناسب مع ذكر موسى عليه السلام ، أما القرآن فليس ثمة مناسبة واضحة بينه وبين موسى عليه السلام ، فما الذى يلجئنا إلى تقدير كلام لا يساعد عليه نظم القرآن الكريم ، ويرحم الله الإمام الآلوسي فقد رفض — بذوقه السليم — هذا الضرب من التأويل ، فقال : « وقيل : إنه القرآن، ومعنى إتيانه لموسى عليه السلام نزول ذكره له حتى آمن به ، حكاه ابن الأنبارى ، وهو بعيد ، وأبعد منه ما حكى عن الفراء وقطرب أنه القرآن ، والكلام على حذف مفعول ، أى ومحمدا الفرقان »[3] .

المثال الثانى : ما ذكره الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى : « وأرسل

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٨ .

(٢) سورة الأنفال : ٤١ .

(٣) تفسير الآلوسي ج ١ ص ٢٥٩ .

عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل »[1] فقد فسر الطير الأبابيل بالذباب الذي يحمل الجراثيم ، جريا وراء ما يسمى بالتجديد ومسايرة التطور العلمي ، فقال — رحمه الله — : « وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس ، الذي تحمله الرياح ، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم ، وتساقط لحمه ، وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا تخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها » .

ثم قال : « هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته ، ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل — وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما — ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر ، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر »[2] .

ونحن نرى أن هذا التأويل الغريب الذي ذكره الشيخ محمد عبده هنا بعيد عن روح الآية ، ومخالف لسياق الكلام ، وذلك من عدة وجوه :

---

(١) سورة الفيل آية : ٣ ، ٤ ، والأبابيل هي الجماعات ، جمع إبالة — بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة ، وحكى الفراء إبالة مخففا — وهي حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها ، والسجيل هو الطين المتحجر ، وهو معرب كما يستفاد من كلام ابن عباس .

(٢) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١٢٠ ط الشعب .

الوجه الأول : أن الجراثيم والميكروبات التى قال عنها إنها فرق وجماعات لم يعهد فى لغة العرب تسميتها بالطير الأبابيل ، فضلا عن أن العرب لم يكن لهم علم قط بما يسمى بالجراثيم والمكروبات ، فكيف ساغ له أن يفسر الآية بشيء لا يعرفه العرب ، وليس له ذكر في لسانهم ؟.

والوجه الثانى : أن الإمام قد اضطرب فى كلامه ، فنى أول الكلام نجده يقول إن الطير الأبابيل هى البعوض أو الذباب الذى يحمل الجراثيم ، وأن الجراثيم عبارة عن الحجارة فى نظره ، بينما نجده فى آخر الكلام يشير إلى أن الطير الأبابيل هى نفس المكروبات والجراثيم التى لا يحصى عددها إلا الله تعالى ، فعلى أى وجه تفهم الآية إذن ؟.

والوجه الثالث : أنه أطلق على المكروب أنه حجارة ، وأن الذباب يرمى بالحجارة أى بالمكروب ، وأظن أن هذا تعسف فى التأويل ، فهل المكروب - عند مكتشفيه — نوع من أنواع الحجارة ، أم أنه كائن حى كما اعترف هو نفسه بذلك ؟ .

وهل الذباب إذا أصاب أحداً بالمكروب يصح أن يقال عنه : إنه رماه بالحجارة ، أم أنه الولوع بما هو جديد فى عالم الطب بصرف النظر عن سياق الآية ، ومدلولات الألفاظ ؟ .

والوجه الرابع : أنه أراد أن يشكك فى صحة الروايات التى وردت فى قصة الطير الأبابيل ، ومعناها أن الله عزت قدرته أرسل طيرا حقيقية خاصة في منقارها وأظافرها الحجارة لإهلاك أصحاب الفيل ، مع أنه لا وجه لتضعيف هذه الروايات ، لا سيما وأن الحافظ ابن كثير - وهو إمام من أئمة الحديث — أورد فى تفسيره بعض هذه الروايات ، ثم حكم عليها بأن أسانيدها صحيحة [١] ، ومتى صحت الرواية فليس هناك ما يمنع من حمل الكلام عليها

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٥٠٨ .

وإرادة المعنى الحقيقى للطير وللحجارة ، فما ذلك على الله بعزيز ، كما أنه ليس فى الآية ما يصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز ، فلماذا إذن نلجأ فى تفسير السورة إلى هذا التأويل الموغل فى البعد والغرابة ؟ .

والوجه الخامس : أن سياق الآيات يدلنا دلالة واضحة على أن الكلام على حقيقته وليس فيه تجوز قط ، وأن ذلك إنما هو إشارة إلي أمر خارق للعادة حدث فى العام الذى ولد فيه الرسول ﷺ تكريما لمولده ، واحتفاء بمقدمه ، وإرهاصاً بمبعثه عليه الصلاة والسلام ، فهل موت أصحاب الفيل بواسطة الجراثيم والمكروبات التى تتسبب فى حدوث الأمراض يعتبر أمراً خارقا للعادة ، جديرا بالتنويه به فى سورة قرآنية ؟ اللهم لا ، وإذن فمن حق القرآن علينا أن نرفض هذا التأويل الغريب للسورة ، وأن نعتمد فى تفسيرها على ما ذكره جمهور المفسرين ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

(ثانيا) ما يتعلق بالقواعد النحوية

تكلمنا — فيما سبق — عن بدع التفاسير التي تتعلق بالمعانى اللغوية ، أى بمدلولات الألفاظ ، وقد حان الوقت الآن للحديث عن بدع التفاسير التى تتعلق بالقواعد النحوية ، ونعنى بها ماوقع فيه بعض المعربين من تخريجات نحوية مضطربة ، شاذة أو ضعيفة ، أدت إلى خلل فى معانى التنزيل ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وإليك مثالين على ذلك :

المثال الأول : فى تفسير قوله تعالى : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم »[1] قال بعض الناس : إن (ما) استفهامية ، أى فبأى شىء أغويتنى ، ثم ابتدأ بقوله : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) .

وهذا الإعراب المضطرب لايصح تخريج الآية عليه لأمرين :

الأمر الأول : أن الاستفهام هنا لامعنى له ، إذ كيف يسأل إبليس ربه ، بأى شىء أغواه وأضله ، والأمر الآخر : أن (ما) الاستفهامية إذا وقعت بعد حروف الجر فان ألفها تحذف فى فصيح الكلام ، قال تعالى : « عم يتساءلون »[2] : وقال عز من قائل : « فيم أنت من ذكراها »[3] : أما إثبات ألفها فى تلك الحالة ، فانه — كما يقول الزمخشرى — قليل شاذ[4] ، ومثل هذه اللغة القليلة الشاذة لايصح تخريج القرآن عليها .

---

(١) سورة الأعراف : ١٦ .

(٢) سورة النبأ : ١ .

(٣) سورة النازعات : ٤٣ .

(٤) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٨١ .

وعلى ذلك فان القول بأن (ما) هنا إستفهامية قول باطل ، والصواب أن تكون (ما) فى الآية مصدرية ، والباء للسببية ، والمعنى : فبسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، أى لأعترضن لهم على طريق الإسلام ، كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة .

المثال الثانى : فى تفسير قوله تعالى : « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله »[1] نجد بعض الجهلة يقف على (عرش) ، ثم يبتدى بقوله : (عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) ، يريد أن يجعل قوله (عظيم) خبراً مقدماً ، والمبتدأ هو قوله : (وجدتها) الخ ، والمعنى : أمر عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله .

وهذا — ولاشك — تخريج شاذ ، لايلجأ إليه إلا من فسدت سليقته، واختل ذوقه ، ومن ثم نجد الزمخشرى ينعى على ذلك بمسخ الذى الآية بهذا التخريج الأعوج ، فيقول : « ومن نوكي القصاص[2] من يقف على قوله : (ولها عرش) ، ثم يبتدىء : (عظيم وجدتها) ، يريد أمر عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فر من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع فى عظيمة وهى مسخ كتاب الله »[3].

كما أنكر الآلوسي هذا التخريج الشاذ الذى لايستقيم فى شىء مع الفصحى، ولاتساعد عليه أحكام الوقف والابتداء ، فقال : « قال صاحب المرشد : ولا يوقف على (عرش) ، وقد زعم بعضهم جوازه ، وقال : معناه عظيم عند الناس ، وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيره من المتقدمين ، ونسبوا

---

(١) سورة النمل : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) النوك — بضم النون وبفتحها — الحمق وقلة العقل ، ويقال : هو أنوك كأحمق . والجمع نوكي كحمقى وأسرى .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٤٢ .

القائل به إلى الجهل ، وقول من قال : عظم عبادتهم للشمس من دون الله قول ركيك لا يعتد به ، وليس فى الكلام ما يدل عليه »[1].

ولعل من نافلة القول أن نقول : إن (عظيم) فى الآية إنما هو وصف للعرش دون غيره ، ويتعين أن يكون الوقف على (عظيم) لأنه رأس آية ، أما قوله : (وجدتها) الخ فانه جملة مستأنفة ، قال الآلوسى : « واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها ، أو إلى عروش أمثالها من الملوك ، وجوز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله ، وإن كان عظيم الملك ، فانه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذى هم تحت طاعته ، وأيا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولا من ترغيبه عليه السلام فى الإصغاء إلى حديثه ، وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ، ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها ، حيث قال : (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى»[2].

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق .

(ثالثا) مايتعلق بالقراءات

وفى هذا المجال نجد كذلك كثيرا من بدع التفاسير اللغوية ويمكننا هنا أن نقسم هذه البدع إلى قسمين : القسم الأول هو استحداث قراءات لم يقرأ بها ، والقسم الثانى هو رد بعض القراءات الصحيحة ، وإنما صح لنا أن نعتبر ذلك من بدع التفاسير اللغوية لأن الأمر لم يقتصر على القراءات في حد ذاتها بالاختلاق أو بالإنكار فحسب ، بل تخطى هذا الجانب إلى محاولة حمل القرآن على معنى قراءة باطلة ، أو محاولة تنزيه القرآن عن معنى قراءة صحيحة ، وكلاهما من الخطورة بمكان .

أما القسم الأول فهو أن بعض الناس استباحوا لأنفسهم أن يستحدثوا بعض القراءات التى ليس لها سند قط ، وإنما هى شبيهة بالحديث الموضوع ، وهدفهم من وراء ذلك هو تأييد مذهبهم ، ونصرة معتقدهم ، وقد نقل شىء من هذا القبيل عن بعض المعتزلة وبعض الشيعة . وسنذكر هنا مثالين ، أحدهما للمعتزلة والآخر للشيعة :

المثال الأول : ماذكر فى تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق »[1] فقد قرأ بعض المعتزلة (من شر ماخلق) بتنوين شر وجعل (ما) نافية ، والمعنى : من شر لم يخلقه الله تعالى بل خلقه فاعله ، والذى حمل المعتزلة إلى اختلاق هذه القراءة الباطلة هو أنهم يعتقدون أن الله لايفعل القبيح لوجوب الصلاح والأصلح عليه ، وأن العباد هم الذين يخلقون أفعال أنفسهم ، فمن ثم حرف بعضهم الآية وقرأها بهذه القراءة التى لاسند لها ،

---

(١) سورة الفلق : ١ ، ٢ .

قال ابن عطية : « هي قراءة عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر ، وحملوا (ما) على النفي ، وجعلوا الجملة في موضع الصفة، أي من شر ماخلقه الله تعالى ولا أوجده ، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل »[1].

هذا — وعلى فرض أن هذه القراءة شاذة أي غير صحيحة السند فانه لايتعين فيها هذا التوجيه الذي ذكره المعتزلة ، بل يجوز — كما قال الآلوسي أن تكون (ما) بدلا من شر على تقدير محذوف، قد حذف لدلالة ماقبله عليه ، أي من شر شر ماخلق[2] .

المثال الثاني : مانسب إلى بعض الشيعة في تفسير قوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب »[3] من أنه قرأ (فانصب) بكسر الصاد ، والمراد بذلك عندهم : إذا فرغت ـ يامحمد ـ من أداء الرسالة فانصب عليا للامامة ، وهم بذلك ينتصرون لمذهبهم في أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه — هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ ، وأن تعيين الإمام إنما يكون بطريق النص عليه في القرآن والسنة ، وهذه الآية — في زعمهم — نص على أن الخلافة لعلي بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونحن نرى أن هذه القراءة باطلة ، فقد حكم ابن عطية عليها بأنها قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم[4] ، كما عد الزمخشري هذه القراءة بدعة من البدع فقال : «ومن البدع ماروى عن بعض الرافضة أنه قرأ (فانصب) بكسر الصاد ، أي فانصب عليا للامامة ، ولو صح هذا للرافضي لصح

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٣٠ ص ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة الشرح : ٧ .

(٤) تفسير الآلوسي جـ ٣٠ ص ١٧٢ .

للناصبي[1] أن يقرأ هكذا ، ويجعله أمراً بالنصب الذى هو بغض على وعداوته »[2] .

هذا وإن سلمنا جدلا أن هذه القراءة صحيحة المعنى — وهى غير ذلك كما قدمنا — فليس فيها دلالة على تخصيص على للخلافة بعد الرسول ﷺ كما يزعم الشيعة ، وفى ذلك يقول الآلوسي : « ونسب إلى بعض الإمامية أنه قرأ (فانصب) بكسر الصاد ، فقيل : أى فاذا فرغت من النبوة فانصب علياً للامامة ، وليس فى الآية دليل على خصوصية المفعول فللسنى أن يقدر أبا بكر رضى الله عنه[3] .

وإذا علمت أن هذه القراءة لا يعول عليها فان القراءة الصحيحة والمتواترة هى (فانصب) بفتح الصاد ، من نصب — كفرح — ينصب نصبا إذا تعب ، والمعنى : إذا فرغت من عبادة فاتعب فى عبادة أخرى ، شكراً لما عددناه عليك من النعم السابقة واللاحقة ، أو إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، أو إذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة ونحو ذلك .

وأما القسم الثانى — فى هذا المجال — فهو رد بعض القراءات الصحيحة بمقتضى بعض المذاهب النحوية ، وهذا عمل شنيع أقدم عليه بعض المفسرين ، وسجلوه فى كتبهم ، مما يسوغ لنا أن نعتبره حقاً من بدع التفاسير اللغوية ، ونكتفى هنا أيضاً بمثالين :

المثال الأول : ماذكره ابن عطية عند تفسير قوله تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا »[4] . فقد رد قراءة

---

(١) النواصب والناصبة وأهل النصب هم قوم يتدينون ببغضة على رضى الله سموا بذلك لأنهم نصبوا له أى عادوه . اهـ من القاموس .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٢ .

(٣) تفسير الآلوسي جـ ٣٠ ص ١٧٢ .

(٤) سورة النساء : ١ .

حمزة هنا بجر الأرحام ، فقال : « وهذه القراءة عند رؤساء نحويى البصرة لاتجوز ، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض ، قال الزجاج عن المازنى : لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان ، يحل كل واحد منهما محل صاحبه ، فكما لا يجوز : مررت بزيد وك ، فكذلك لا يجوز : مررت بك وزيد ، وأما سيبويه فهى عنده قبيحة لا تجوز إلا فى الشعر ، كما قال :

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب

ثم قال : « ويرد عندى هذه القراءة من المعنى وجهان : أحدهما أن ذكر الأرحام فيما يتساءل به لا معنى له فى الحض على تقوى الله ، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها ، وهذا تفرق فى معنى الكلام ، وغض من فصاحته ، وإنما الفصاحة فى أن يكون لذكر الأرحام فائدة مستقلة ، والوجه الثانى : أن فى ذكرها — على ذلك — تقريراً للتساؤل بها ، والقسم بحرمتها ، والحديث الصحيح يرد ذلك فى قوله عليه السلام : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »(١) ، وقالت طائفة : إنما خفض والأرحام على جهة القسم من الله ، على ما اختص به — لا إله إلا هو — من القسم بمخلوقاته ، ويكون المقسم عليه فيما بعد من قوله : (إن الله كان عليكم رقيباً) ، وهذا قول يأباه نظم الكلام وسرده ، وإن كان المعنى يخرجه »(٢).

ذلك ماذكره ابن عطية فى تفسيره ، فقد رد قراءة حمزة هنا ، وأثار الشبهات حولها ، وهذا من ابن عطية ولا شك اتجاه خاطىء تبع فيه رؤساء نحاة البصرة ، وعلى رأسهم أبو العباس المبرد الذى كان أول من شنع على

---

(١) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر فى كتاب الأيمان والنذور ، باب لا تحلفوا بآبائكم .

(٢) انظر منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم للمؤلف ص١٦٧ .

حمزة حتي قال : لايحل القراءة بها[١] ، وروى عنه أيضاً أنه قال : لو صليت خلف إمام يقرأ هذه القراءة لأخذت نعلي ومضيت[٢] .

ونحن لايمكن بحال أن نقبل من ابن عطية هـــذا الكلام الذى أثاره حول هذه القراءة الصحيحة ، فان كلامه باطل من عدة وجوه نبينها فيما يلى :

أولا : أن حمزة — وهو أحد القراء السبعة — لم يقرأ بهذه القراءة من قبل نفسه ، أو على حسب رأيه واجتهاده ، بل قرأ بها بناء على سماعها من الثقات الذين سمعوها من فى رسول الله ﷺ ، وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة السبعة ، فرد هذه القراءة الثابتة الصحيحة من ابن عطية أو غيره يعتبر شيئاً فى غاية الخطورة لأن ذلك بمثابة الرد على رسول الله ﷺ ، والتكذيب بالقرآن الذى أنزله الله عليه[٣] .

ثانياً : أن ماذكره ابن عطية — فى تخطئة هذه القراءة — من امتناع العطف على الضمير المخفوض إنما هو مذهب البصريين فقط ، ونحن لسنا متعبدين باتباعهم ، لاسيما إذا علمنا أن هذا المذهب غير صحيح ، بل الصحيح ماذهب إليه الكوفيون من الجواز ، فقد ورد ذلك في لسان العرب نثراً ونظماً ، وقد اختار ابن مالك مذهب الكوفيين هنا فقال :

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازما قد جعلا
وليس عندي لازما إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

ثالثاً : أن قراءة حمزة لايتعين توجيهها على أساس العطف ، بل يجوز

---

(١) انظر تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ١٨٤ .
(٢) انظر تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٣ .
(٣) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ١٦٧ .

أن توجه على جهة القسم من الله تعالى ، فتكون الواو للقسم ، والمقسم عليه هو قوله تعالى : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، ولله أن يقسم بما شاء على ماشاء ، وليس هذا التوجيه مما يأباه نظم الكلام وسرده — كما يقول ابن عطية — بل هو توجيه له قيمته ، حيث إن الله تعالى — بعد أن أمر بتقواه — أراد أن يؤكد الوصية بالأرحام ، فأقسم بها في هذا المقام ، على أنه رقيب على أعمال العباد ، فالآية — على ذلك — قريبة في المعنى لقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى »[1].

رابعاً : أما ماقاله ابن عطية من أن ذكر الأرحام فيما يتساءل به لامعنى له في الحض على تقوى الله تعالى فكلام ساقط عن درجة الاعتبار ، وغلو من ابن عطية في التحاكم إلى السياق ، لأن ذكر الأرحام في هذه الآية له أعظم الفائدة في الحض على تقوى الله تعالى ، فان الأرحام يراد بها القرابات ، لاسيما تلك القرابات التي كانت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين العرب ، فكأن العرب — وهم المخاطبون بهذه الآية خطاباً أولياً — أمروا هنا بتقوى الله ، ودعوا إلى الدخول في الإسلام ؛ وحضوا على ذلك بذكر باعثين في الآية ، أحدهما حق الله تعالى عليهم ، والآخر قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، فهل بعد هذا يصح أن يقول ابن عطية : إنه — على هذه القراءة — لامعنى لذكر الأرحام في الحض على تقوى الله ، وأن هذه القراءة تؤدى إلى التفرق في معنى الكلام ، والغض من فصاحته[2] .

خامساً : أما الشبهة التي تعلق بها ابن عطية — في رد هذه القراءة — بأن عطف الأرحام على المضمر المخفوض يقتضى تقرير التساؤل بها ، والقسم بحرمتها ،

---

(١) سورة النساء : ٣٦ .

(٢) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٦٩ .

والحديث الصحيح يرد ذلك للنهى فيه عن الحلف بغير الله تعالى فتلك شبهة واهية، لأنا لا نسلم أن الحلف بغير الله مطلقاً منهى عنه ، بل المنهى عنه ما كان مع اعتقاد وجوب التعظيم ، وأما الحلف على سبيل التأكيد مثلا فلا بأس به ، فقد جاء فى الخبر : « أفلح وأبيه إن صدق » ، وأيضاً ذكر بعض العلماء أن هذه القراءة لاتفيد معنى الحلف . وإنما تفيدمعنى التوسل والاستعطاف ، وعلى ذلك فليس فى هذه القراءة ما يقتضى تقرير الحلف بالأرحام ، المنهى عنه فى الحديث الصحيح ، قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ : « وقد ذكر بعضهم أن قول الشخص لآخر : أسألك بالرحم أن تفعل كذا ليس الغرض منه سوى الاستعطاف ، وليس هو كقول القائل : والرحم لأفعلن كذا ، ولقد فعلت كذا ، فلا يكون متعلق النهى فى شيء »[1] .

من هذا كله يتبين لنا أن قراءة حمزة هنا قراءة صحيحة يجب قبولها ولا يجوز ردها ، وقد نص أئمة القراء على أن الاعتماد فى قبول القراءة إنما يتوقف على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل ، لا على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية ، وفى ذلك يقول أبو عمرو الدانى ـ فيما نقله عنه ابن الجزرى ـ : « وأئمة القراء لا تعمل فى شيء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها والمصير إليها »[2] .

وأيضاً يقول الإمام القشيرى ـ فى مقام الرد على من انتقد قراءة حمزة هذه ـ : « ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواترا يعرفه أهل الصنعة ، وإذا ثبت شيء عن النبى ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبى ﷺ ، واستقبح ما قرأ به ، وهذا

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٤ ص ١٨٤ ، ١٨٥

(٢) النشر ج ١ ص ١٠ ، ١١

مقام محذور ، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو ، فان العربية تتلقى من النبي ﷺ ولا يشك أحد فى فصاحته »[1] .

المثال الثانى : ما فعله الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم »[2] فقد وجدناه هو الآخر يرد قراءة ابن عامر ببناء الفعل المفعول الذى هو القتل ، ونصب الأولاد وجر الشركاء ، وقد استند الزمخشرى – فى رد هذه القراءة – إلى أنه لا يجوز – عند النحويين – الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف ، وفى ذلك يقول : « وأما قراءة ابن عامر : (قتل أولادهم شركائهم) برفع القتل ، ونصب الأولاد وجر الشركاء ، على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف فشىء لو كان فى مكان الضرورات – وهو الشعر – لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج ورد : (زج القلوص أبى مزاده)[3] ، فكيف به فى الكلام المنثور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ، والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ، لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب »[4] .

وقد وافق الزمخشرى فى بدعته تلك بعض النحاة ، ومن هؤلاء أبو جعفر

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤

(٢) سورة الأنعام : ١٣٧

(٣) هذا شطر بيت من الشعر ، والبيت بتمامه هو :

فزججتهـــا بمزجـــة زج القلوص أبى مزاده

والضمير فى زججتها للكتيبة ، والزج الطعن ، والمزجة رمح قصير ، والقلوص الناقة الشابة .

(٤) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٧٢

النحاس فقد قال : « وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز في كلام ولا في شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، لأنه لا يفصل فأما بالأسماء غير الظروف فلحن »(١) ، ومنهم كذلك أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى حيث يقول : « قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية ، وهى زلة عالم ، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه ، ورد قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يرد من زل منهم أو سها إلى الإجماع ، فهو أولى من الإصرار على غير الصواب ، وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يفصل »(٢) .

وهذا الاتجاه الخاطيء من الزمخشرى وأمثاله فى رد هذه القراءة الصحيحة مبنى لديهم على أساس خاطيء . وهو أنهم ظنوا أن القراء إنما قرأوا بهذه القراءات اجتهاداً منهم ، مع أن من الحقائق العلمية الثابتة أن القراءات توقيفية، وليست اجتهادية . وأن القراء السبعة — ومنهم ابن عامر — إنما تلقوا قراءاتهم عن الثقات الذين تلقوها بدورهم عن رسول الله ﷺ ، ولقد شنع على هؤلاء فى هذا المجال غير واحد من العلماء ، وهذا هو الإمام القشيرى يقول — فى هذا الصدد — : « وقال قوم : هذا قبيح ، وهذا محال ، لأنه اذا ثبتت القراءة بالتواتر عن النبى ﷺ فهو الفصيح لا القبيح ، وقد ورد ذلك فى كلام العرب ، وفى مصحف عثمان (شركائهم) بالياء ، وهذا يدل على قراءة ابن عامر ، وأضيف القتل — فى هذه القراءة — إلى الشركاء لأن الشركاء هم الذين زينوا ذلك ، ودعوا إليه ، فالفعل مضاف إلى فاعله ، على ما يجب فى الأصل ، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه وقدم المفعول ، وتركه منصوباً على حاله ، إذا كان متأخراً فى المعنى ، وأخر المضاف إليه ، وتركه مخفوضاً على حاله ، إذ كان متقدماً بعد القتل . والتقدير : وكذلك زين لكثير من المشركين

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٩٢
(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٩٢ ، ٩٣

قتل شركائهم أولادهم ، أى أن قتل شركاؤهم أولادهم »[١] .

أما ابن المنير السكندرى فقد حمل حملة شعواء على الزمخشرى ، فى رده لقراءة ابن عامر هذه ، وناقشه مناقشة علمية مفصلة ، وبين جهله فى علمى القراءة والأصول ، فقال : « لقد ركب المصنف فى هذا الفصل متن عمياء ، وتاه فى تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله ، وأبرىء حملة كتابه وحفظة كلامه مما رماهم به ، فانه تخيل أن القراء — أئمة الوجوه السبعة — اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعاً فلذلك غلط ابن عامر فى قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى (شركائهم) ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لايضاف المصدر إلى أمرين معا ، فقرأه منصوباً ، قال المصنف — يريد الزمخشرى — وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه — يعنى ابن عامر — من الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، الذى يسمج فى الشعر فضلا عن النثر ، فضلا عن المعجز ، فهذا كله — كما ترى — ظن من الزمخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشرى أن هذه القراءة — بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها — يعلم ضرورة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل ، كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبى صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرءون بها خلفا عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر ، فقرأها أيضاً كما سمعها ، فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة ، أنها متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم ، فاذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرى ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر ، فان المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه

---

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٩٣

براء منه قطعاً وضرورة ، ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين ، أعنى علم القراءة وعلم الأصول ، ولا يعد من ذوى الفنيين المذكورين لخيف عليه الخروج من ربقة الدين »[1] .

وبعـــد :

فهذه هى بدع التفاسير اللغوية – وهى نوع من أنواع الدخيل فى التفسير – تكلمنا عليها بالتفصيل ، فالى نوع آخر من الدخيل ، وهى تأويلات الباطنية ، والله ولى التوفيق .

---

(١) الانتصاف على هامش الكشاف جـ ١ ص ٤٧١

الفصل الثالث
تأويلات الباطنية

الباطنية اسم يطلق على جماعات متعددة من غلاة الشيعة ، كالاسماعيلية ، والقرامطة ، والخرمية ، والرافضة . وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسبب أنهم يتفقون جميعاً على أمر واحد ، وهو التأويل الباطنى للنصوص ، ويقولون: إن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، وأن الظاهر بمثابة القشر ، أما الباطن فانه يمثل اللباب عندهم ، وبذلك أسقطوا التكاليف الشرعية ، وقالوا : إنه لا يراد بها الحقيقة ، وإنما هى رموز إلى أشياء معينة ، زينها الشيطان لهم ، فتمسحوا بها وزعموا أنها مما تلقوه عن الإمام المعصوم،ومن ثم فقد ورد عنهم بعض التأويلات الفاسدة لألفاظ القرآن الكريم ، وهذه التأويلات ترفضها قوانين العربية ، وتتعارض — تماما — مع قواعد الشرع ، مما يحق لنا أن نعتبر تلك التأويلات من جملة الدخيل الذى تسلل إلى رحاب القرآن الكريم .

حركة الباطنية وأهدافها :

نشأت حركة الباطنية فى أحضان الفكر الشيعى المتطرف ، وقد ظهرت هذه الحركة بصورة منظمة — فى زمن الخليفة المأمون العباسى — على يد رجل يدعى : (ميمون بن ديصان) المعروف بالقداح ، يقال : إنه كان مجوسيا من سبي الأهواز [1] ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق[2] .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٩٣ ط صبيح .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

ويذكر البغدادى أن هذا الرجل اشترك مع جماعة ممن على شاكلته فى تأسيس هذا المذهب الباطنى الذى يدعو إلى دين المجوس بالتأويلات الرمزية التى يتأولون عليها القرآن والسنة ، حيث اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان فى سجن والى العراق ، فأسسوا فى ذلك السجن مذهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن [١] .

كما يذكر البغدادى أن ميمون بن ديصان هذا أخذ يجوب الآفاق، داعيا الناس إلي مذهبه ، ثم رحل إلي ناحية المغرب ، وانتسب فى تلك الناحية إلى عقيل بن أبى طالب ، وزعم أنه من نسله ، فلما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه ، على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل ابن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب[٢] .

وهذا المذهب الباطنى الذى أخذ يدعو الناس اليه بعضه مستمد من عقائد المجوس ، وبعضه مأخوذ من كلام الفلاسفة ، ويبدو أن أولئك الذين ساعدوه علي انتشار دعوته جماعة من فصيلته أبناء الفرس الذين تظاهروا بالاسلام ، إلا أن قلوبهم كانت تنطوى على بعض العقائد المجوسية والوثنية تلك التى كانت لآبائهم وأجدادهم ، ويشرح البغدادى صلة هذا المذهب الباطنى بالمجوسية فيقول : « ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين ، فوضع الأغمار منهم أسسا من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل أديان المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم »[٣] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وأيضاً يبين الغزالى أن الباطنية أخذوا عقائدهم وتعاليمهم من المجوس تارة ومن الفلاسفة تارة أخرى فيقول : « فنرى أن نشتغل بالرد عليهم فيما اتفقت كلمتهم عليه — وهو إبطال الرأى ، والدعوة إلى التعليم من الإمام المعصوم — فهذه عمدة معتقدهم وزبدة مخضهم[١] ، فلنصرف العناية إليه ، وما عداه فمنقسم إلى هذيان ظاهر البطلان ، وإلى كفر مسترق من الثنوية[٢] والمجوس فى القول بالإلهين ، مع تبديل عبارة : (النور والظلمة) بالسابق والتالى ، إلى ضلال منتزع من كلام الفلاسفة فى قولهم : إن المبدأ الأول علة لوجود العقل على سبيل اللزوم عنه ، لا على سبيل القصد والاختيار »[٣] — إلى أن قال : « فصار أكثر مذهبهم موافقا للثنوية والفلاسـفة فى الباطن ، وللروافض والشيعة فى الظاهر ، وغرضهم بهذه التأويلات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق »[٤] .

ويحدثنا ابن الجوزى حديثا مفصلا عن السبب الذى حمل هؤلاء الباطنية على الدخول فى هذه البدعة فيقول : « اعلم أن القوم أرادوا الانسـلال من الدين ، فشاوروا جماعة من المجوس والمزدكية[٥] ، والثنوية وملحدة الفلاسفة

---

(١) جاء فى لسان العرب: «مخض اللبن يمخضه ويمخضه ويمخضه مخضا — ثلاث لغات — فهو ممخوض ومخيض : أخذ زبده » اهـ .

(٢) الثنوية هم المجوس حيث أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفسـاد ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأهرمن — انظر الملل والنحل جـ ١ ص ٢١٢ .

(٣) فضائح الباطنية ص ٤٠ ط الـكويت .

(٤) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٥) المزدكية هم أصحاب (مزدك) ، وهو الذى ظهر فى أيام (قباذ) والد (أنو شروان) من ملوك الفرس ، ودعا مزدك (قباذ) إلى مذهبـه فأجابه ، واطلع (أنوشروان) على خزيه وافترائه ، فقتله ، ومذهب مزدك يقوم — أساسا — على الإباحية فى النساء والأموال وجعل الناس شركة فيهما — انظر الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٩ .

فى استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين عليهم ، حتى أخرسوهم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار الصانع ، وتكذيب الرسل ، وجحد البعث ، وزعمهم أن الأنبياء ممخرقون ومنمسون[1] ، ورأوا أمر محمد ﷺ قد استطار فى الأقطار ، وأنهم قد عجزوا عن مقاومته ، فقالوا : سبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم ، أركم عقلا ، وأسخفهم رأيا[2] ، وأقبلهم للمحالات ، والتصديق بالأكاذيب ، وهم الروافض ، فنتحصن بالانتساب إليهم ، ونتودد إليهم بالحزن على ماجرى على آل محمد من الظلم والذل، لنمكننا شتم القدماء الذين نقلوا إليهم الشريعة ، فاذا هان أولئك عندهم لم يلتفتوا إلى ما نقلوا ، فأمكن استدراجهم إلى الانخلاع من الدين ، فان بقى منهم معتصم بظواهر القرآن والأخبار أوهمناه أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن ، وأن المنخدع بظواهرها أحمق ، وإنما الفطنة فى اعتقاد بواطنها ، ثم نبث إليهم عقائدنا ، ونزعم أنها المراد بظواهرها عندكم ، فاذا تكثرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج باقى الفرق»[3] .

وأخيراً يلخص لنا الغزالى مذهب الباطنية بصورة إجمالية ، فيقول : «أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستبصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان ولا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع

---

(١) نمس عليه الأمر : لبس عليه ودلس ، ومخرق مثله .

(٢) فى الأصل : (أذكاهم عقلا وأتحفهم رأيا) ، والصواب ماذكرناه كما فى فضائح الباطنية ص ١٩ .

(٣) تلبيس إبليس ص ١٠٦ وهذا الكلام الذى ذكره ابن الجوزى مأخوذ من فضائح الباطنية ص ١٨ ، ١٩ .

إليه فيما يستبهم من أمور الدين ، هذا مبدأ دعوتهم ، ثم إنهم — بالآخرة — يظهرون ما يناقض الشرع ، وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرونهم عليها ، فهذه جملة المذهب »[1] .

هذا — وقد استفحل أمر الباطنية ، واشتد خطرهم على الدولة العباسية ، في فترات متلاحقة من الزمن ، ففي أيام الخليفة المعتصم العباسي ظهرت طائفة من الباطنية تدعى بالبابكية أو الخرمية[2] ومذهب هؤلاء يتلخص في طي بساط التكليف ، وحط أعباء الشرع عن المتعبدين ، وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات ، وقضاء الوطر من المباحات والمحرمات[3] ، وكان زعيم هذه الطائفة هو بابك الخرمي ، ظهر في بعض الجبال بناحية أزربيجان سنة ٢٠١ هـ وتبعه خلق كثيرون ، واستفحل أمر هؤلاء واستباحوا المحظورات ، وخرجوا على الخليفة العباسي ، فأرسل الخليفة جيشاً لقتالهم ، واستمرت الحرب بين الفريقين عشرين سنة ، وفي النهاية استطاع الأفشين قائد المعتصم أن يهزم بابك الخرمي ، وأن يسيره هو وأخاه مكبلين بالحديد إلى الخليفةالعباسي ، فأمر بقتلهما وصلبهما في (سر من رأى) سنة ٢٢٣ هـ .

وبعدذلك ظهرمن طوائف الباطنية القرامطة ، وهؤلاء القرامطة ينتسبون إلى رجل يقال له : (حمدان قرمط) لقب بذلك لقرمطة في خطه أو في خطوه[4] ، وقد تلقى هذا الرجل الدعوة الباطنية على يد داع من دعاتها ،

---

(١) فضائح الباطنية ص ٣٧ .

(٢) خرم — على وزن سكر — لفظ أعجمي ينبيء عن الشيء المستلذ المستطاب الذي يرتاح الإنسان له ، وقد كان هذا الاسم لقبا للمزدكية وهم أهل الإباحة من المجوس ، فسمي هؤلاء بهذا الاسم لمشابهتهم إياهم .

(٣) فضائح الباطنية ص ١٤ وتلبيس إبليس ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٨٢ .

وعاهده الداعي على كتم السر ، فالتزم حمدان عهده ، واندفع الداعي في تعليمه فنون جهله حتى استغواه واستجاب له في جميع مادعاه ، ثم انتدب حمدان للدعوة ، وصار أصلا من أصول هذه البدعة ، فسمى أتباعه بالقرامطة(١).

وقد تغلب القرامطة على ناحية البحرين سنة ٢٨٦ هـ بزعامة رجل منهم شديد البأس اسمه أبو سعيد الجنابي كان من أتباع حمدان ، وقد قوى أمره آنذاك ، وقتل مالايحصي من المسلمين ، وخرب المساجد ،وأحرق المصاحف، وفتك بالحجاج(٢)، ولما مات خلفه ابنه أبو طاهر ، ففعل مثلما فعل أبوه ، وهجم على الكعبة ، فأخذ مافيها من الذخائر ، وقلع الحجر الأسود، فحمله إلى بلده ، وأوهم الناس أنه الله عز وجل(٣) .

وهناك رواية أخرى تقول إن الذى سرق الحجر الأسود رجل من القرامطة يقال له : سليمان بن الحسن ، فقد دخل مكة سنة ٣١٧ هـ وقتل من وجده في الطواف ، واقتلع الحجر وحمله إلى البحرين ، ثم رد منها إلى الكوفة ، ورد بعد ذلك من الكوفة إلى مكة على يد أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى النيسابورى فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة(٤).

ولاندرى هل وقعت هذه الحادثة المشئومة مرتين، أم أنه حدث اضطراب فى أحد المصدرين ، أم أن الشخصين تعاونا معاً على ارتكاب تلك الجريمة النكراء ؟

وفي أواخر القرن الثالث الهجرى ظهر رجل من الباطنية بناحية القيروان

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٠٥ وفضائح الباطنية ص ١٣ ، ١٤

(٢) تلبيس إبليس ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

اسمه عبيد الله بن الحسين الملقب بالمهدى ، وخدع قوماً من كتامة ، وقوما من المصامدة ، وشرذمة من البربر بحيل أظهرها لهم ، وظن الأغمار أنها معجزة له ، فتبعوه لأجلها ووافقوه على بدعته ، فاستولى بهم على بلاد المغرب[1]، وأسس الدولة الفاطمية أو العبيدية فى بلاد المغرب ثم لم تلبث هذه الدولة أن انتقلت إلى مصر سنة ٣٦٢هـ على يد أحد أحفاده وهو المعز لدين الله الفاطمى الذى أنشأ مدينة القاهرة ، وبنى الجامع الازهر ، وظلت هذه الدولة قائمة فى مصر حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبى فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ومن الباطنية الذين كان لهم دور خطير فى تاريخ الاسلام والمسلمين جماعة اشتهرت بالاغتيالات الفردية ، وزعيم هذه الجماعة هو الحسن بن الصباح الذى تلقى تعاليم الباطنية فى مدينة الرى بفارس ، ثم رحل إلى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٧١ هـ للتفقه فى هذا المذهب ، وبعد أن أقام فى مصر نحو عام ونصف العام عاد إلى فارس ليبث الدعوة فيها ، وتسلل فى عام ٤٨٣ هـ إلى قلعة حصينة بناحية قزوين تسمى قلعـــة (الموت) ، واستولى عليها ، وكان له فيها أتباع عديدون ، واتخذ من تلك القلعة معقلا له ، وقام هو وأتباعه بعدة غارات على الأماكن المجاورة ، واستولى مباغة على الحصون الموجودة فيها ، وبنى حصونا جديدة ، ويقال إنه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون من أتباعه يتمتعون فيها بالمـــلاذ التى يتوقعون التنعم بها فى الفردوس ، ولـكن الأرجح - كما فى دائرة المعارف الإسلامية - ان جنتهم تلك كانت محض خيـال يصوره لهم الحشيش الذى كانوا يدخنونه[2].

وقد عمرت دولة ابن الصباح طويلا فى بلاد فارس ، ولم يستطع أحد من

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨ ،

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٣٧٧ .

سلاطين المسلمين القضاء عليها ، ولكن شاءت إرادة الله أن تسقط هذه الدولة الباطنية على يد (هولاكو) المغولى سنة ٦٥٤ هـ قبل أن يتوجه لتخريب (بغداد) ، وذلك فى أثناء الزحف المغولي على بلاد المشرق الإسلامى .

وهكذا كان للباطنة دور خطير فى العالم الإسلامي من الناحيتين الفكرية والسياسية على السواء ، ولقد قام الخلفاء العباسيون وولاتهم بمطاردة هؤلاء الباطنية ، ومكافحة خطرهم عن طريق القوة العسكرية كما بينا ، أما علماء الإسلام فقد تصدوا — مشكورين — لمقاومة هذا المذهب الباطنى الشاذ بالردود العلمية ، وألفوا الكثير من الكتب لبيان فضائح الباطنية وضلالاتهم وعقائدهم الفاسدة ، ومن هؤلاء صدر الإسلام الإمام عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ فقد خصص فصلا من فصول كتابه : (الفرق بين الفرق) لذكر الباطنية وبيان خروجهم عن جميع فرق الإسلام . ومنهم كذلك حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فقد ألف كتاباً فى الرد على الباطنية أسماه : (فضائح الباطنية) وهكذا .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الباطنية لهم ألقاب كثيرة ذكرها الغزالى فى كتابه : (فضائح الباطنية) ، وأشهر هذه الألقاب ثلاثة : الإسماعيلية ، والسبعية ، والتعليمية :

أما اللقب الأول — وهو الإسماعيلية — فقد لقبوا بذلك لقولهم بثبوت الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق ، بالنص عليه من أبيه جعفر ، وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه ، إنما هو بقاء الإمامة فى عقبه ، كقصة هارون مع موسى صلوات الله عليهما ، قالوا : ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم السابع التام ، وقد تم دور الأئمة السبعة به ، ثم ابتدىء منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون فى البلاد سراً ، ويظهرون الدعاة جهراً ، فالامام عندهم قد لايكون له شوكة فيستتر ،

وتـكون دعاته ظاهرين ، إقامة للحجة على الخلق ، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته[1].

وأما اللقب الثانى وهـو السبعية فانما لقبوا بذلك لأمرين : أحدهما اعتقادهم أن دور الإمامة سبعة على مابينا ، وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الأدوار ، وهو المراد بالقيامة ، وأن تعاقب هذه الأدوار لاآخر له ، والثانى لقولهم أن تدبير العالم السفلى منوط بالـكواكب السبعة : زحل ثم المشترى ثم المريخ ثم الزهرة ثم الشمس ثم عطارد ثم القمر[2].

وأما اللقب الثالث وهو التعليمية فقـد لقبوا بذلك لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأى ، وإفساد تصرف العقول ، ودعاء الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ، وأنه لاتدرك العلوم إلا بالتعليم[3].

هذا — ومن جملة هذه العلوم التى زعموا أنهم أخذوها عن الإمام المعصوم تلك التأويلات الباطنية التى سنتعرض لها الآن ، والله المستعان .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩ ، ١٨٠ ط الشعب .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٦ .

اعتماد الباطنية على التأويل الباطني أو التفسير الرمزي

الباطنية – بالنسبة للتأويل الباطني – فريقان :

الفريق الأول : يذهبون إلى إبطال ظواهر النصوص ، ويقولون : إنه لا عبرة بهذه الظواهر ، ولا تعويل عليها ، ويعتمدون اعتماداً كلياً على المعاني الباطنية ، والرموز الخفية التي تضمنتها ظواهر الشريعة في زعمهم ، وهؤلاء هم غلاة الباطنية الذين يطرحون الظاهر ، ويعتقدون الباطن ، وهم الذين عناهم ابن الجوزى بقوله : « الباطنية سموا بذلك لأنهم يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن ، تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورتها توهم الجهال صوراً جلية ، وهى عند العقلاء – ويريدون أنفسهم – رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار[1] ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، قالوا : وهم المرادون بقوله تعالى : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »[2] ، ومرادهم أن ينزعوا من العقائد موجب الظواهر ، ليقدروا – بالتحكم بدعوى الباطن – على إبطال الشرائع »[3] .

والفريق الثانى : وهم جماعة من الأذكياء منهم – لا يرون إبطال ظواهر

---

(١) الغور – بفتح الغين وسكون الواو – من كل شيء قعره ، ومنه يقال : (فلان بعيد الغور) أى حقود ، ويقال : عارف بالأمور ، وغار فى الأمر : إذا دقق النظر فيه ، وجمع غور أغوار .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧

(٣) تلبيس إبليس ص ١٠٢

الشريعة بالكلية ، ويأنفون من مقالة الفريق الأول ، ويقولون : إن ظواهر الشريعة معمول بها فى ظاهرها ، ولها أيضاً بواطن هى سرها ولبابها ، فيعملون بزعمهم على الظواهر والبواطن جميعا[١] .

وكلا الفريقين يقول: إن هذه المعانى الباطنية لا تؤخذ بالأقيسة وبالاستنباط والاجتهاد , وإنما تؤخذ من أفواه الأئمة المعصومين من آل البيت رضوان الله عليهم ، ويبدو أنه لا يوجد فرق واضح بين الفريقين لأن القول بالباطن قدر مشترك بينهما ، وأن المقالة التى أعلنها الفريق الثانى إنما كانت منهم على سبيل التقية أو التستر على ماتنطوى عليه نفوسهم من عقيدة فاسدة ، ومذهب باطل، وسنزيد هذا الأمر وضوحاً عما قريب إن شاء الله تعالى .

هذا ــ وقد حاول الباطنية فى سبيل الانتصار لمذهبهم فى التأويل الباطنى والتفسير الرمزى أن يستدلوا على صحة ذلك بآيات من القرآن الكريم ، إلا أن هذه الآيات لا دلالة فيها على مايدعون ، فمثلا يستدلون بالآيات التى تذكر فيها الحكمة مثل قوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » [٢] وقوله جل شأنه : « وأنزل عليك الكتاب والحكمة » [٣] ، وقوله سبحانه : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » [٤] ، فيقولون : إن المراد بالحكمة فى هذه الآيات هو باطن الكتاب وتأويله ، وهو أحد جزئى الكتاب ، والجزء الثانى ظاهر الكتاب وهو تنزيله ، فباطنه التأويل ، وظاهره التنزيل [٥] .

ونحن نرى أن هذا الاستدلال غير سديد ، بل هو ضرب من التخبط ،

---

(١) انظر مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار للامام يحيى بن حمزة العلوى ص ٦٥ ، ٦٦ طبع دار الفكر الحديث .

(٢) سورة الجمعة : ٢

(٣) سورة النساء : ١١٣

(٤) سورة البقرة : ٢٦٩

(٥) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص ١١٥

وفن من الضلال ، لأن المراد بالكتاب هنا هو هذا القرآن المنزل من السماء ، أما الحكمة فيختلف معناها باختلاف مواقعها ، ففي قوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » وفي قوله : « وأنزل عليك الكتاب والحكمة » يراد بالحكمة السنة ، وفي قوله « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » يراد بالحكمة العلم والعمل ، فالحكيم عند الله هو العالم العامل بما علمه ، وعلى ذلك فان استدلال الباطنية بهذه الآيات على صحة القول بالباطن فاسد حيث إن كلامهم في واد ، والآيات القرآنية التي يستدلون بها في واد آخر .

وأيضاً يستدل الباطنية على نصرة الباطن بدليل آخر ، وهو أن هناك في القرآن مالا يمكن حمله بزعمهم على ظاهره ، وإذا لم يمكن حمله على الظاهر تعين أن يكون المراد به الباطن، وضربوا لذلك بعض الأمثلة منها قوله تعالى : «في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون» (١) فقد قالوا : إن الله أخبر عن القرآن بأنه لا يمسه إلا المطهرون، وهذا الخبر إذا حمل على ظاهره تطرق الكذب إليه، لأنه ليس من المتعذر على من ليس بطاهر أن يمس الكتاب ، وخبر الله يجب أن يكون صادقا ، وإذن فلابد من القول بالباطن ، وهنا يسبحون في خضم التأويلات الفاسدة ، والهذيانات المضحكة .

وقد رد عليهم أحد العلماء الأجلاء ، وأبطل استدلالهم بهذه الآية فقال : «ليس يخلو حال الجملة الفعلية في قوله . (لا يمسه إلا المطهرون) من أن تكون صفة للكتاب أو صفة للقرآن (٢) ، فان كانت صفة للكتاب فالمراد به اللوح المحفوظ ، وهو لا يحتاج إلى تأويل . فانه لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة، وإن كانت صفة للقرآن فالغرض منه أنه نفي في معنى النهي ، كأنه قال : إنه لقرآن كريم فانتهوا عن مسه ، وبعد هذا فلا شك ولا ريب ، وهذا

---

(١) سورة الواقعة : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) يعني في الآية السابقة على هاتين الآيتين وهي قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم » .

بحث يليق بمقاصد الإعراب ، ومما يؤكد الأضحوكة على مذهبهم أن يقال : إذا كان لامحيص لكل ظاهر عن باطن ، فلعل باطن قوله تعالى : «لايمسه إلا المطهرون» أحد أمرين : إما لا يكشف أستار الباطنية إلا المتكلمون ، وإما لا يطلع على إلحاد الاسماعيلية إلا الموحدون »[1] .

ومن الآيات التى يتعلقون بها فى هذا المجال كذلك قوله تعالى - فى صفة البيت الحرام - : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا »[2] فقد قالوا : إن حمل الآية على ظاهرها غير ممكن ، لأنا نعلم أن البيت يدخله الآمن ، كما يدخله الخائف ، وخبر الله لابد أن يكون صادقاً لا كذب فيه ، ومن أجل ذلك تعين فى هذه الآية التأويل وأن يراد بها الباطن .

إلا أننا يمكننا أن نرد عليهم بأن ظاهر هذه الآية مراد ، ولا استحالة فيه، غاية مافى الأمر أن الخبر هنا بمعنى الأمر ، ومعناه : ليأمن كل من دخله، ومخالفة الأمر لا كذب فيه ، لأن الإنشاء يخالف الخبر ، وعلى ذلك فليس فى هذه الآية دليل لهم على مايزعمون .

إذن نستطيع أن نقول : إن التأويل الباطنى الذى اعتمد عليه الباطنية لا سند له فى كتاب الله تعالى ، بل ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا أن هؤلاء الباطنية الذين سلكوا هذا المسلك الشاذ إنما ظهرت حركتهم بصورة منظمة فى أيام العباسيين ، بيد أنه يمكننا أن نرجع بداية التأويل الباطنى إلى غلاة الشيعة الذين ظهروا فى أيام الدولة الأموية ومن هؤلاء طائفة السبئية ، وهم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى زعم بعد مقتل على - كرم الله وجهه - أنه حى لم يمت ، وأنه صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنه سينزل إلى الدنيا ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وقد زعم بعض السبئية أن عليا فى السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه،

---

(١) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص ١٢٨

(٢) سورة آل عمران : ٩٧

ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال : عليك السلام ياأمير المؤمنين[1] ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا ... يردون للسلام على السحاب
ولـكنى أحب بكل قلبي ... وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا ... به أرجو غداً حسن المـآب

ومما لاشك فيه أن السبئية أرادوا بهـذه التأويلات المنحرفة إفساد عقائد المسلمين ، كما أفسدت من قبل عقائد النصارى ، وفى ذلك يقول البغدادى : « قال المحققون من أهل السنة إن ابن السوداء — يعنى ابن سبأ — كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته فى على وأولاده ، لـكى يعتقدوا فيـــه ما اعتقدت النصارى فى عيسى عليه السلام »[2].

ومن غلاة الشيعة كذلك الذين كان لهم دور بارز فى التأويل الباطنى طائفة الـكيسانية ، وهم أصحاب (كيسان) مولى أمـير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقد قالوا : إن الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك على رجال ، فحمل ذلك بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل[3].

ومن هؤلاء الغلاة أيضاً الذين أسهموا فى مجال التأويل الباطنى

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣١ ، ١٣٢

طائفة المنصورية أتباع (أبي منصور العجلي) الذي صلب في أيام هشام بن عبد الملك وكان يزعم أن الإمامة انتقلت إليه بعد وفاة الإمام محمد الباقر، ومن تأويلاته الفاسدة قوله: إن الجنة رجل أمرنا بموالاته، وهو إمام الوقت، وإن النار رجل أمرنا بمعاداته، وهو خصم الإمام، وإن المحرمات كلها أسماء رجال أمرنا الله تعالى بمعاداتهم، وإن الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم، وغرض هذه الطائفة من تأويل الفرائض والمحرمات بأسماء رجال هو إسقاط التكليف وأن من ظفر بالإمام وعرفه فقد سقط عنه التكليف، وارتفع الخطاب، إذ قد وصل إلى الجنة وبلغ الكمال[1].

وممن وضعوا بذور التأويل الباطني كذلك طائفة الجناحية، وهم أتباع (عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب) الذي خرج على الأمويين في عهد آخر خلفائهم مروان بن محمد، فقد تأولوا قول الله تعالى: « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا »[2] الآية على أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم، ووصل إلى الكمال[3].

وهذه الطائفة استحلت كل ما حرم الله، وأسقطت التكاليف الشرعية، وفي ذلك يقول البغدادي: « كفرت هذه الطائفة بالجنة والنار، واستحلوا الخمر والميتة والزنى واللواط وسائر المحرمات، وأسقطوا وجوب العبادات، وتأولوا العبادات على أنها كنايات عمن تجب موالاتهم من أهل بيت علي، وقالوا في المحرمات المذكورة في القرآن: إنها كنايات عن قوم يجب بغضهم كأبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة »[4].

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨، ١٥٩

(٢) سورة المائدة: ٩٣

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٥

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٤٦

هؤلاء هم غلاة الشيعة القدامى الذين ظهروا أيام الدولة الأموية ، ووضعوا بذور التأويل الباطنى والتفسير الرمزى ، ولا شك أن الباطنية الذين ظهروا أيام العباسيين قد سلكوا سبيلهم ، وساروا على نهجهم ، إلا أنهم توسعوا كثيراً فى هذا المضمار ، وبالغوا مبالغة شديدة فى تأويل النصوص ، حتى ارتبط اسمهم - فى تاريخ الفكر الإسلامى - بهذه التأويلات الفاسدة التي تروى عنهم ، والتى ليس لها سند من اللغة ولا من الدين .

هل الباطنية يؤمنون بالظاهر ؟

سبق أن ذكرنا أن الباطنية فريقان : الفريق الأول يهملون الظواهر ، وينكرون الشرائع ، ويسقطون التكاليف ، ويقولون : إن ظواهر القرآن والسنة لا يراد منها الحقيقة ، بل هذه الظواهر رموز إلى أسرار باطنية ، وحقائق خفية ، فهم لا يعولون إلا على هذه الرموز التي يزعمون أنهم أخذوها من أفواه الأئمة المعصومين من آل البيت رضوان الله عليهم .

والفريق الثانى - وهم أخف وطأة من السابقين - يقولون : إنهم يعتمدون على الظاهر والباطن معاً ، ويتحرجون من مقالة الفريق الأول ، إلا أن اهتمامهم بالبواطن أشد ، وعنايتهم بالرموز أعظم .

بيد أننا نرى أنه لا يكاد يوجد فرق واضح بين الفريقين فى هذا المجال ، لأن الظاهر الذى يعتمد عليه الفريق الثانى هو ما يكون موافقاً لمذهب الروافض من الشيعة ، لا ما يكون موافقاً للمذاهب المجمع عليها من المسلمين ، ومن ثم فإنهم ينكرون الظاهر الذى أجمع عليه المسلمون ، فآل الأمر عندهم إلى إهمال الظاهر والقول بالباطن ، شأنهم فى ذلك شأن الفريق الأول الذى ذهب إلى التعويل على الباطن دون الظاهر ، وكل ما فى الأمر أن الفريق الأول من الباطنية جماعة من الأغبياء بخلاف الفريق الثانى فإنهم جماعة من الأذكياء .

وقد صور لنا الغزالى عقيدة الباطنية بوجه عام فيما يتعلق بالظواهر والبواطن فقال - رحمه الله - : « والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب

واستباحة المحظورات واستحلالها ، وإنكار الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم ، وإنما الذى يصح من معتقدهم فيه أنهم يقولون : لابد من الانقياد للشرع فى تكاليفه ، على التفصيل الذى يفصله الإمام ، من غير متابعة للشافعى وأبى حنيفة وغيرهما ، وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين ، إلى أن ينالوا رتبة الكمال فى العلوم ، فاذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر انحلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكاليف العملية ، فان المقصود من أعمال الجوارح تنبيه القلب لينهض لطلب العلم ، فاذا ناله استعد للسعادة القصوى ، فيسقط عنه تكاليف الجوارح ، وإنما تكليف الجوارح فى حق من يجرى بجهله مجرى الحمر التى لا يمكن رياضتها إلا بالأعمال الشاقة ، وأما الأذكياء والمدركون للحقائق فدرجتهم أرفع من ذلك ، وهذا فن من الإغواء شديد على الأذكياء ، وغرضهم هدم قوانين الشرع »[1] .

ونحن نرى أن الإمام الغزالى الذى حكم على الباطنية بهذا الحكم صادق فى قوله ، وعادل فى حكمه ، لأنه — وإن كان خصماً من خصوم الباطنية ، والذى دعاه إلى تأليف كتابه (فضائح الباطنية) هو مارآه فى عصره من استفحال أمر الباطنية ، وبث دعاة الاسماعيلية من قبل الدولة الفاطمية فى مصر للدعوة للخليفة الفاطمى (المستنصر بالله) ضد الخليفة العباسى (المستظهر بالله)[2] — أقول إن الغزالى — على الرغم من ذلك — راعى الدقة فى تصوير مذهب الباطنية ، حيث استمد معلوماته عنهم من أناس كثيرين كانوا قد استجابوا لهم ، وانخدعوا بهم ، ثم تابوا إلى الله ، ورجعوا عن غوايتهم ، ويحدثنا الغزالى عن ذلك فيقول : « فان قيل : ماجلبتموه من العظائم لايتصور أن

---

(١) فضائح الباطنية ص ٤٦ ، ٤٧

(٢) انظر مقدمة الدكتور عبد الرحمن بدوى لكتاب (فضائح الباطنية) ص (ح) .

يخفى على عاقل ، وقد رأينا خلقاً كثيراً ، وجما غفيرا من الناس يتابعونهم في معتقدهم ، وتابعوهم في دينهم ، فلعلكم ظلمتموهم بنقل هذه المذاهب عنهم في خلاف مايعتقدونه ، وهذا هو القريب الممكن ، فانهم لو أظهروا هذه الأسرار نفرت القلوب عنهم ، واطلعت النفوس على مكرهم ، وما باحوا بها إلا بعد العهود والمواثيق ، وصانوها إلا عن موافق لهم في الاعتقاد ، فمن أين وقع لكم الاطلاع عليها ، وهم يسترون دياناتهم ، ويستبطنون بعقائدهم ؟ قلت : أما الاطلاع على ذلك فانما عثرنا عليه من جهة خلق كثير ، تدينوا بدينهم ، واستجابوا لدعوتهم ، ثم تنبهوا لضلالهم ، فرجعوا عن غواياتهم إلى الحق المبين ، فذكروا ما ألقوا إليهم من الأقاويل ، وأما سبب انقياد الخلق إليهم في بعض أقطار الأرض فانهم لايفشون هذا الأمر إلا إلى بعض المستجيبين لهم ، ويوصون الداعي ويقولون له : إياك أن تسلك بالجميع مسلكا واحداً ، فليس كل من يحتمل هذه المذاهب يحتمل الخلع والسلخ[1] ، ولا كان من يحتمل الخلع يحتمل السلخ ، فليخاطب الداعي الناس على قدر عقولهم ، فهذا هو السبب في تعلق هذه الحيل ورواجها»[2].

أجل إن الغزالي صادق في قوله ، وعادل في حكمه ، ومما يؤيد ذلك أنني وقعت على كتابين في معتقدات الفاطميين وتأويلاتهم هما (دعائم الإسلام) ، و (تأويل الدعائم) ومؤلفهما هو القاضي النعمان بن محمد التميمي المتوفى سنة

---

(١) الخلع والسلخ حيلة من حيل الباطنية التي يستدرجون بها الناس ويستغوونهم ، والفرق بين الخلع والسلخ أن الخلع يختص بالعمل ، فاذا أفضوا بالمستجيب إلى ترك حدود الشرع وتكاليفه يقولون : وصلت إلى درجة الخلع ، أما السلخ فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين ، فاذا انتزعوا ذلك من قلبه دعوا ذلك سلخاً ، وسميت هذه الرتبة : البلاغ الأكبر ـ انظر فضائح الباطنية ص ٣٢

(٢) فضائح الباطنية ص ٣٣

٣٦٣ هـ ، وقد عاش هذا الرجل قبل الغزالى بأ كثر من قرن من الزمان ، وكان داعية من أكبر دعاة الفاطميين ، حيث خدم المهدى بالله مؤسس الدولة الفاطمية ، ثم ولي قضاء طرابلس فى عهـــد القائم بأمر الله الخليفة الثانى للفاطميين ، وفى عهد الخليفة الثالث المنصور بالله عين قاضياً للمنصورية ، ووصل إلى أعلى الراتب فى عهد المعز لدين الله الخليفة الفاطمى الرابع ، إذ رفعه إلى مرتبة قاضي القضاة وداعى الدعاة(١) .

كما يقول رواة الفاطميين : إن هذا القاضى لم يؤلف شيئاً دون الرجوع إلى أئمة عصره ، ويعتبر أقوم كتبه — وهو كتاب (دعائم الإسلام) — من عمل المعز نفسه ، وليس من عمل قاضيه الأكبر ولهذا كان هـذا الـكتاب هـو القانون الرسمى منـــذ عهد المعز حتي نهاية الدولة الفاطمية(٢) .

وقد خرجت من هاذين الـكتابين بحقيقة هامة ، وهى أن الفاطميين الذين يزعمون أنهم يعملون بالظاهر والباطن معاً لايختلفون كثيراً عن غـلاة الباطنيـة ، الذين يهملون الظواهر ، ويعتمدون على الرموز والبواطن ، ولإيضاح ذلك نقول :

أولا : أعان قاضى الفاطميين — فى بداية الأمر — أن العقيدة عندهم هى أن يعملوا بالظاهر والباطن معاً فقال : « اعلموا أن كل ما اجتمع عليه كتاب (دعائم الإسلام) من علم ظاهر الفرائض والأحكام ، والحـــلال والحرام ، هو ظاهر دين الله عز وجل الذى تعبدكم باقامتـه والعمل به ، فاعملوا بما أمرتم به فيه وأقيموه ، وتنزهوا عما نهيتم عنه فيه واجتنبوه ،

---

(١) انظر كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ج ١ ص ١١ ط دار المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ١٢

وإن الذي سمعتموه وتسمعونه من تأويل ذلك وباطنه علم وحكمة ، ونعمة ورحمة ، بين لكم الله عز وجل على ألسنة أوليائه - يقصد أئمة أهل البيت - ذلك بما دل عليه مما تعبدكم الله بظاهره ، وما تعبدكم به من ولايتهم ، والسكون معهم ، والسمع والطاعة لهم ، وأنه لا ينفع عمل عامل في ظاهر ولا باطن إلا بذلك ، وبين ذلك في كتابه بقوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١) .

واستدل هذا القاضي الفاطمي على تلك العقيدة بدليلين :

الدليل الأول : هو قول الله تعالى : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »(٢) فقد قال — في وجه الاستدلال بهذه الآية — : « ومن أجل نعمه ما تعبد العباد به وجعله لهم سبباً لنيل النعمة العظيمة الدائمة من الثواب في دار المآب ، فأخبر أن ذلك لايكون إلا ظاهراً وباطناً »(٣) .

والدليل الثاني : هو قول الله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه »(٤) حيث يقول — في مقام الاستدلال بهذه الآية — : « فلم يقبل الله ترك مانهي عنه إلا ظاهراً وباطناً ، كما لم يقبل ما أمر به إلا كذلك ، فجعل كل شيء مما تعبد العباد به ظاهراً وباطناً ، وافترض عليهم أن يأتوا به كذلك» (٥) .

ولقد هاجم هذا القاضي غلاة الشيعة الذين يعتمدون في التأويل على

---

(١) تأويل الدعائم للقاضي النعمان بن محمد جـ ٢ ص ٨٥ ط دار المعارف ، والآية الأخيرة رقم ٥٩ من سورة النساء والاصل به شيء من التحريف .

(٢) سورة لقمان : ٢٠

(٣) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٨٦

(٤) سورة الأنعام : ١٢٠

(٥) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٨٦

الباطن دون غيره ، ثم ذكر طرفاً من أخبارهم فى عهد الإمام على رضى الله عنه والأئمة من بعده ، وكيف أن عليا أحرق جماعة منهم وقال :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أضرمت نارى ودعوت قنبرا[1]

وكيف أن أئمة آل البيت كانوا يلعنون هؤلاء الغلاة ويتبرءون منهم ، لأنه لم يكن للأئمة من السلطان مايمكنهم من معاقبة هؤلاء الغلاة[2] .

ثم ذكر القاضي أن الإمام جعفر الصادق أخبر بأن من شيعته جماعة تعدوا الحدود ، واستحلوا المحارم ، واطرحوا الظاهر ، وتأولوا الفرائض على أنها أسماء رجال ، وزعموا أن الفواحش أشخاص ، فقال ـ مجيبا لمن كتب يسأله عن حكم هؤلاء الناس ـ : « وكتبت تسألنى عن ذلك وعن حالهم وما يقولون فأخبرك أنه من كان يدين الله بهذه الصفة التى كتبت تسألنى عنها ، فهو عندى مشرك بالله بين الشرك ، فلا يسع أحدا أن يشك فيه ، ألم يسمع هؤلاء قول الله عز وجل : « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن »[3] وقوله جل ثناؤه : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه »[4] فظاهر الحرام وباطنه حرام كله ، وظاهر الحلال وباطنه حلال كله ، وإنما جعل الظاهر دليلا على الباطن والباطن دليلا على الظاهر ، يؤكد بعضه بعضا ، ويشده ويقويه ويؤيده ، فما كان مذموماً فى الظاهر فباطنه مذموم ، وما كان ممدوحاً فى الظاهر فباطنه ممدوح »[5] .

---

(١) انظر كتاب دعائم الإسلام جـ ١ ص ٤٨ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٥٠
(٣) سورة الأعراف : ٣٣
(٤) سورة الأنعام : ١٢٠
(٥) دعائم الإسلام جـ ١ ص ٥٢

ثانياً : وبعد أن أكد هذا القاضي — بوضوح — تلك العقيدة التي تعتمد على الظاهر والباطن معاً نجده يهاجم — بشدة — مذاهب الأئمة من أهل السنة مثل مالك والشافعي وأبي حنيفة ، ويرميهم بالجهل والضلال ، وينادي بعدم إتباعهم[1] ، ثم يذكر أن الذين يجب إتباعهم — في هذا الصدد — هم أئمة أهل البيت دون غيرهم ، ومعنى ذلك أن الظاهر الذى يؤمن به هو وأمثاله هو ما يكون موافقاً لمذهب الشيعة الفاطمية ، لا ما يكون موافقاً للمذاهب الإسلامية التي تلقتها الأمة بالقبول ، وفى ذلك يقول : « إن الذى يجب قبوله وتعلمه ونقله من العلم ما جاء عن الأئمة من آل محمد ﷺ ، لا ما يؤخذ عن المنسوبين إلى العلم من العامة المحدثين المبتدعين الذين اتخذوا دينهم لعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وقنعوا برياستها ، وبعاجل ما نالوه بذلك من حطامها ، فجلسوا غير مجالسهم ، ووردوا غير شربهم ، ونازعوا الأمر أهله ، وأنفوا أن يتخطوا إليهم فيه ، فيسألونهم كما أمرهم الله عزوجل عما لا يعلمون ، ويسمعون لأمرهم ويطيعون ، بل قالوا فى دين الله عز وجل بآرائهم ، على قياسهم ، واتبعهم جهال الأمة ورعاعها ، وقلدوهم فيما ابتدعوه فيه ، ليصلوا بعدهم من الرياسة إلى ما وصلوا إليه ، وكلما أغرق أئمتهم فى الجهل اعتدوا لهم بذلك الفضل »[2] .

وفى موضع آخر يؤكد عقيدته الشيعية المتطرفة فيحكم على أن من لم يدخل فى دعوة الحق — وهى فى نظره الدعوة الشيعية الفاطمية — ليس له حظ فى الإسلام فيقول : « فكما لا يقبل الله جل وعز من أحد طاعته إلا مقرونة بطاعة رسوله ، كذلك لا تقبل طاعة الرسول إلا مقرونة بطاعة أولى الأمر » ، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا حظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة » فظاهر الصلاة ما قد عرفتموه ، وباطنها ماقد أخبرتم به من الدخول فى دعوة الحق ، فمن ترك الصلاة الظاهرة والباطنة أو إحداها لم يكن له حظ

---

(١) انظر دعائم الإسلام ج ١ ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) دعائم الإسلام ج ١ ص ٨٤ .

فى الإسلام لأن الله جل وعز لا يقبل من عباده ما افترض عليهم حتى يقوموا به ظاهراً وباطنا »[١] .

ثم نجده ينكر الظاهر الذى عليه أهل السنة ، ويأمر باطراحه ونبذه ظهريا ، فيقول : « ومثل قوله : إن عليا — عليه السلام — كان يمشى خلف الجنازة حافيا ، فالحافى خلاف الناعل ، والنعل مثلها فى الباطن مثل ظاهر أهل الخلاف — يعنى المخالفين لهم من أهل السنة — ومنه قول الله عز وجل لموسى عليه السلام « فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى »[٢] ، ذلك فى أول اتصاله ، فأمر باطراح ظاهر أهل الخلاف الذى كان عليه معهم ، وكذلك يفعل من صار إلى دعوة الحق واتبعها ، وذلك كما ذكرناه مثله مثل اتباع الجنازة ، ففعل ذلك على ـ عليه السلام ـ ليدل بظاهره على الباطن فيه »[٣] .

ثالثا : ثم نجده فى مكان آخر يصرح بأن الباطن أهم من الظاهر لديه ، لأن الباطن يمثل الجوهر واللباب ، وفضله على الظاهر كفضل الروح على الجسد فيقول : « وجاء من قبل ذلك فى هذا الخبر عن على صلوات الله عليه قوله — إذ حكى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله — أنه قال : « أردت أن أكبه لوجهه ، لأغسل ظهره ، فنوديت : لا تكبه ، فقلبته لجنبيه وغسلت ظهره » تأويل ذلك أن الظهر مثله مثل الظاهر ، والبطن مثله مثل الباطن ، والباطن أعلى وأشرف ، وهو الجوهر واللباب ، والعلم الحقيقى الروحانى ، لأنه علم فوائد تحيا به الأرواح ، وعلم الظاهر علم عمل على جوارح البدن الظاهرة ، وليس ذلك مما يخل به ، ولا مما يضيع من مواجبه ومفترضه ، بل فرضه واجب ، وعلمه والعمل به لازم ، ولكن فضل الباطن عليه كفضل الروح على الجسد ، وكلاهما له فضل »[٤] .

---

(١) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) سورة طه : ١٢ .

(٣) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٤٨ .

ومن هذا كله يتبين لنا أن مذهب الفاطميين الذين تظاهروا بالاعتدال في باطنيتهم إنما هو قريب من مذهب الغلاة من الباطنية الذين أبطلوا الظواهر وقالوا بالرموز والأسرار دون غيرها ، ومن ثم نستطيع أن نؤكد أن الإمام الغزالي كان عادلا في حكمه ، ومحقاً في قوله : « إنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض »(١) ، ولقد أشار الغزالي في كتابه إلي الفاطميين على أنهم من الباطنية فقال : « وطريقنا أن نرتب شبهتهم على أقصي الإمكان ثم نكشف عن مكمن التلبيس فيها ، وآخر دعواهم أن العارف بحقائق الأشياء هو المتصدى للامامة بمصر ، وأنه يجب على كافة الخلق طاعته والتعلم منه ، لينالوا به سعادة الدنيا والآخرة »(٢) .

ونحن سنذكر لك - أيها القارىء الكريم - بعد قليل أمثلة من التأويلات الباطنية التي وردت في كتاب « تأويل الدعائم » للقاضي النعمان بن محمد ، حتى لايكون لديك أدنى شك في تلك الحقيقة التي توصلنا إليها في بحثنا هذا ، وهي أن الفاطميين - شأنهم في ذلك شأن سائر الباطنية - يعولون على الباطن أكثر من تعويلهم على الظاهر ، وأن الظاهر لديهم هو ما يكون موافقا لمذهبهم ، لا ما يكون موافقاً للمذاهب المجمع عليها من المسلمين .

---

(١) فضائح الباطنية ص ٣٧

(٢) فضائح الباطنية ص ٧٣

موقفنا من التأويل الباطني أو التفسير الرمزى

ليس ثمة شك فى أن مسلك الباطنية فى التأويل الذى يقوم أساساً على إبطال الظاهر والقول بالباطن إنما هو إلحاد في آيات الله ، وتحريف للكلم عن مواضعه وضلال مبين ، وهذا هو أحد علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى ، وهو الإمام يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ يناقش الباطنية فى قولهم بالرموز والكنايات ، ويصمهم بالكفر والزندقة فى إبطالهم لظواهر النصوص ، ويبين أن هذا المسلك منهم إنما هو مناقض لقصد صاحب الشريعة وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول — رحمه الله — : « يقال لهم : معاشر الجهالة من الباطنية وبقية الملاحدة : ما تقولون فى النصوص القرآنية ، وما تضمنته الأخبار المروية ، من الأوامر والنواهى ، والقصص وأحوال الجنة والنار ، وصفات الثواب والعقاب ، والحشر والنشر ؟ هل تفيد بظواهرها معنى أم لا ؟

فان قالوا : لا تفيد بظواهرها معنى ، ولكنها رموز وكنايات عن أسرار باطنية ، كما ذهب إلى هذا طوائف منهم ، فيقال لهم : هذا هو الكفر والرد ، والخروج عن الدين وتجاوز الحد ، فانا نعلم من قصد صاحب الشريعة فهم هذه الظواهر ودعاء الخلق إليها ، وتعويله على العمل عليها وقبولها ، ونعلم من دين الأمة — باضطرار — الأخذ بها والاكباب على العمل بها ، والتصديق بمخبراتها ، بحيث لا يغادرهم فيها شك ، ولا يعتريهم عنها لبس ، ونعلم ضرورة أن واحداً من أقيال الأمة لو قال بحضرتهم : إن هذه الظواهر كلها ليس الغرض بها ما هو المفهوم من ظاهرها ، وإنما هى رموز إلى أسرار ، وأن لها بواطن غفلتم عنها ، وإنكم فى غطاء عن حقائقها لبادروا إلى تكذيبه والحكم بردته واستحلال دمه ، وهذا يفهمك معرفتهم بقصد صاحب الشريعة فيها ،

وأن غرضه ظواهرها ، وكيف لا وقد رغبهم فيها وأرهبهم بها ، وكررها على آذانهم ، ووعتها قلوبهم ، وطرقت أسماعهم مرة بعد مرة ، وكل ذلك لا يعقل إلا وظواهرها مفهومة يعقلونها . ويصغون آذانهم إليها ، فأما إذا كان القصد منها غير ظاهرها ، وأن تحتها أسراراً لم يعقلوها ، ورموزا لم تخطر لأحد منهم على بال فهذا هذيان ، واستئصال لقواعد الشريعة ، واجتهاد فى محو رسوم المسلة »[1] .

هذا ما قاله الإمام يحي بن حمزة العلوى فى رده على الباطنية الذين يعتمدون على التأويل الباطنى ، والتفسير الرمزى ، وقد سبقه ـ فى هذا المجال ـ الإمام أبو حامد الغزالي فهدم نظرية الباطنية التي تقول إن مصدر التأويل الباطنى هو الإمام المعصوم ، وكان هدمه لهذه النظرية من وجهين :

الوجه الأول : أنه أثار الشكوك فى صدق الإمام المعصوم بزعمهم فيما يصدر عنه من تأويل باطنى ، وقال لهم : كيف تصدقون الإمام بدون معجزة ، ولا تصدقون الرسول ﷺ مع المعجزات ؟

والوجه الثانى : أنه أثار الشكوك فى قول الإمام المعصوم على فرض صدقه ، حيث بين أن ظاهر اللفظ الذى صدر عن الإمام فى تأويله الباطنى للنصوص محتمل كذلك لا محالة للرمز والباطن ، ومادام ظاهر اللفظ محتملا للرمز والباطن فكيف يتم لهم ما يدعون ؟ ألست ترى أن الغزالى هنا يحاربهم بنفس السلاح الذى شهروه وهو سلاح الرمز والباطن ؟

واستمع معي إلى الإمام الغزالى وهو يناقشهم بالأدلة الدامغة ، ويفحمهم بالبراهين القاطعة . فيقول ـ رحمه الله ـ بصدد تأويلهم الحشر والنشر والجنة والنار بالرموز : « لو قال الباطنى: أخبرنى الإمام المعصوم أن البعث مستحيل فصدقته قيل له : وما الذى دعاك إلى تصديق الإمام المعصوم بزعمك ،

---

(١) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص ٥٦ ، ٥٧

ولا معجزة له ، وصرفك عن تصديق محمد بن عبد الله مع المعجزات ، والقرآن من أوله إلى آخره دال على جواز ذلك ووقوعه ؟ فهل لك من مانع سوى أن عصمته علمت بمعجزته ، وعصمة من تدعيه علمت بهذيانك وشهوتك ، فان قال إن ما في القرآن ظواهر هي رموز إلى بواطن لم يفهموها ، وقد فهمها الإمام المعصوم فتعلمنا منه ، قلنا : تعلمتم منه بمشاهدة ذلك في قلبه بالعين ، أو سماعا من لفظه ، ولا يمكن دعوى المشاهدة ، ولا بد من الاستناد إلى سماع لفظه ، قلنا : وما يؤمنك أن لفظه له باطن لم تطلع عليه ، فلا تثق بما فهمته من ظاهر لفظه ، فان زعمت أنه صرح معك وقال : ماذكرته هو ظاهر لا رمز فيه ، والمراد ظاهره ، قلنا : وبم عرفت أن قوله هذا ـ وهو أنه ظاهر لا رمز فيه ـ أيضاً ظاهر ، وليس فيه رمز إلى مالم تطلع عليه[1] ؟ فلا يزال يصرح بلفظه، ونحن نقول : لسنا ممن يغتر بالظواهر ، فلعل تحته رمزا ، وإن أنكر الباطن فنقول : تحت إنكاره رمز ، وإن حلف بالطلاق الثلاث على أنه ما قصد إلا الظاهر ، فنقول : في طلاقه رمز ، وإنما هو مظهر شيئاً ، ومضمر غيره ، فان قلت : فذلك يؤدى إلى حسم باب التفهيم ، قلنا : فأنتم حسمتم باب التفهيم على الرسول ، فان ثلث القرآن في وصف الجنة والنار ، والحشر والنشر ، مؤكد بالقسم والأيمان ، وأنتم تقولون : لعل تحت ذلك رمزا ، وأنتم تقولون ، وأي فرق بين أن يطول في تفهيم الأمور التطويل الذى عرف في القرآن والأخبار ، وبين أن يقول : ما أريد إلا الظاهر ؟ فان جاز عليه أن يفهم الظاهر ، ويكون مراده غيرما علم قطعاً أنه ما وصل إلى إفهام الخلق ، ويكون كاذبا في جميع ماقال ، لأجل مصلحة وسر فيه ـ جاز أن يكون إمامكم المعصوم بزعمكم يضمر معكم خلاف ما يظهره ، وضد ما يفهمه ، ونقيض ما يتيقن أنه الواصل إلى أفهامكم . ويؤكد ذلك بالأيمان المغلظة ، لمصلحة له وسر فيه ، وهذا لا جواب عنه أبد الدهر . وعند هذا ينبغى أن يعرف الإنسان أن رتبة هذه الفرقة أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، إذ لا نجد فرقة ينقض

(١) في الأصل : (وفيه رمز إلى مالم تطلع عليه) ولعل الصواب ماذكرناه حتى يستقيم المعنى .

مذهبها بنفس المذهب سوى هذه ، إذ مذهبها إبطال النظر ، وتغيير الألفاظ عن موضوعاتها بدعوى الرموز ، وكل ما يتصور أن ينطلق به لسانهم إما نظر أو نقل ، أما النظر فقد أبطلوه ، وأما اللفظ فقد جوز أن يراد باللفظ غير موضوعه ، فلا يبقى لهم معتصم فان قيل : فهذا ينقلب عليكم ، فأنتم تجوزون أيضاً تأويل الظواهر ، كما أولتم آية الاستواء وخبر النزول وغيرهما ، قلنا : ما أبعد هذا القلب فان لنا معياراً في التأويل وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك ، بشرط أن يكون اللفظ مناسباً له بطريق التجوز والاستعارة ، فقد دل الدليل على بطلان الاستواء والنزول ، فان ذلك من صفات الحوادث ، فحمل على الاستيلاء ، وهو مناسب للغة ، وأما الحشر والنشر ، والجنة والنار فليس في العقل دليل على إبطاله ، ولامناسبة بين الألفاظ الواردة فيه وبين المعنى الذى أولوه عليه، حتى يقال إنه المراد ، بل التأويل فيه تكذيب محض »[1] .

وأيضاً نجد الإمام ابن الجوزى فى كتابه : (تلبيس إبليس) يناقش الباطنية فى تأويلاتهم الرمزية بأسلوب آخر ، فيقول : « ثم يقال لهم : هذه البواطن والتأويلات يجب إخفاؤها أم إظهارها ؟ فان قالوا : يجب إظهارها قلنا : فلم كتمها محمد ﷺ ؟ وإن قالوا : يجب إخفاؤها قلنا : ما وجب على الرسول إخفاؤه كيف حل لـكم إفشاؤه ؟ قال ابن عقيل : هلك الإسلام بين طائفتين : بين الباطنية والظاهرية ، فأماأهل الباطن فانهم عطلوا ظواهر الشرع بما ادعوه من تفاسيرهم التى لا برهان لهم عليها ، حتى لم يبق فى الشرع شىء إلا وقد وضعوا وراءه معنى ، حتى أسقطوا إيجاب الواجب ، والنهي عن المنهى ، وأما أهل الظاهر فانهم أخذوا بكل ماظهر ممالا بد من تأويله ، فحملوا الأسماء والصفات على ما عقلوه ، والحق بين المنزلتين ، وهو أن نأخذ بالظاهر مالم يصرفنا عنه دليل ، ونرفض كل باطن لا يشهد به دليل من أدلة الشرع »[2] .

---

(١) فضائح الباطنية ص ٥١ وما بعدها .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٠٨ ، ١٠٩

وإذا ثبت أن مسلك الباطنية في التأويل مرفوض ، يجب رده ، ولا يمكن قبوله فهل هناك مقياس لصحة التأويل ، وقبول الباطن فى التفسير ؟

نعم ، إن هناك مقياساً دقيقاً جاء على لسان الإمام الشاطبي فى (الموافقات) فقد تكلم الشاطبي عن القرآن الكريم على أنه الأصل الأول للتشريع ، وبين أن له ظاهرا وباطنا ، وأن المراد بالظاهر هو المفهوم العربى ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه ، فكل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر ، كالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية ، وكل ما كان من المعانى التى تقتضي تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية ، فذلك هو الباطن المراد ، والمقصود الذى أنزل القرآن لأجله[1] .

وبعد أن قرر الشاطبي ذلك بالتفصيل ذكر شرطين لقبول الباطن في تفسير القرآن الكريم ، هما موافقة اللغة ، وشهادة الشرع ، قال الشاطبي -رحمه الله- : « وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم فى المسألة قبلها ولكن يشترط فيه شرطان : أحدهما — أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ، ويجرى على المقاصد العربية ، والثانى : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض ، فأما الأول فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا ، فانه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا باطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه ، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا ، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما ، فاثبات إحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم ، والأدلة المذكورة فى أن القرآن عربى جارية هنا .

---

(١) انظر الموافقات جـ ٣ ص ٢٢٧ وما بعدها ط المطبعة السلفية بمصر .

وأما الثاني فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء، وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم أنه الباطن، لأنهما موفران فيه. بخلاف ما فسر به الباطنية فانه ليس من علم الباطن، كما أنه ليس من علم الظاهر، فقد قالوا: في قوله تعالى: «وورث سليمان داود»[1] أنه الإمام ورث النبي علمه: وقالوا — في الجنابة —: إن معناها مبادرة المستجيب بافشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى الغسل: تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الطهور: هو التبرى والتنظيف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام»[2] إلخ.

وإذن فلابد لقبول الباطن في التفسير من شرطين: موافقة اللغة وشهادة الشرع، وإلا كان هذا الباطن فاسدا ومردودا، ومن هذا القبيل تأويلات الباطنية، فانها فاقدة للشرطين معاً، وقد حكم عليها الشاطبي — كما رأينا — بأنها ليست من علم الباطن، ولا من علم الظاهر في شيء، وإنما هي في حقيقة الأمر ضرب من ضروب الهذيان، وفن من فنون الضلال.

أما الإمام يحي بن حمزة العلوى فانه يحدثنا عن معيار آخر دقيق، لمعرفة ما يقبل من التأويل وما يرد، ويحكم — بمقتضى هذا المعيار — على تأويلات الباطنية بالفساد والبطلان، وهذا المعيار الذى ذكره الإمام العلوى يشبه — إلى حد كبير — ماذكره الشاطبي في (الموافقات)، لأنه يعتمد هو الآخر على دعامتين: إحداهما لفظية وهي اللغة العربية، والأخرى معنوية وهي الأصول الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع وشهادة العقل، وفي ذلك يقول الإمام يحيي العلوى: «الأصل الأول: في المعيار الصادق، والفيصل الفارق في تمييز مايعرف به صحيح التأويل من سقيمه، وذلك ضربان: لفظى ومعنوى، أما اللفظى فهو اللغة العربية، وذلك لأن الله تعالى أنزل

---

(١) سورة النمل: ١٦.

(٢) الموافقات جـ ٣ ص ٢٣٥ . ٢٣٦.

القرآن بلغة العرب ولسانها ، كما قال تعالى : « بلسان عربي مبين »[1] وقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[2] وقد تقرر في العقول أن الله تعالى لا يجوز أن يخاطبنا بخطاب لا نفهمه ولا نعلمه ، ولا يريد بخطابه غير ما وضع له إلا وبينه لنا ، فإذا تم ذلك فالواجب أولا عرض التأويلات المختلفة على اللغة العربية وقوانينها ، فإن كانت غير محتملة لهذه التأويلات من جهة اللغة إن كان الكلام لغويا . ولا من جهة الشرع إن كان الكلام شرعياً ، ولا من جهة العرف إن كان الكلام عرفياً ، أسقط هذا التأويل ، وألقى واطرح ، ونس ولم يقع عليه تعويل ، ولا إلى العمل به سبيل ، وهذا كتأويلات الباطنية — أبادهم الله تعالى — كلها فإنهم راعوا في صحة التأويلات قول الإمام بزعمهم ، ولم يلتفتوا إلى شيء من موضوعات اللغة وقوانينها ، وهذا كما قالوا : إن المراد باللوح والقلم : السابق والتالى ، وأن المراد باللبن العلم ، وأن الثعبان هو البرهان إلى غير ذلك من هذيانهم ، فانا إذا عرضنا هذه التأويلات على اللغة العربية وجدنا ذلك غير جائز فيها ، لا على قرب ولا بعد ، وإن أحدا من أرباب اللغة وأئمة الأدب لا يعرف اللوح والقلم بمعنى السابق والتالى ، بل لا يعرف السابق والتالى أبدا بالمعنى الذى كذبوه . فيجب إذن إلقاء ماقالوه واطراحه .

أما المعنوى فهو ما إذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى ، ومفهوماً منه وجب حينئذ الرجوع في معرفة صحته وفساده إلى الأصول من جهة المعنى ، فما حكمت به تلك الأصول بفساده أو بعضه سقط ، وما حكمت بصحته ثبت واستقر ، وتلك الأصول هى أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والعقل »[3] .

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٥ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤ .

(٣) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص ١٠١ ، ١٠٢ .

أمثلة من تأويلات الباطنية

وهنا سنذكر — إن شاء الله تعالى — نوعين من الأمثلة :

النوع الأول : ماورد من تأويلات الباطنية فى بعض كتبهم ، وهذا النوع من الأمثلة إنما يصور لنا مسلكهم فى التأويل الباطنى أصدق تصوير ، كيف لا وهو كلامهم الذى صدر عنهم .

والنوع الثانى : ما ورد من تأويلات الباطنية فى كتب بعض خصومهم، وسنرى أن هؤلاء الخصوم لم يفتاتوا عليهم في شيء ، لا سيما إذا ما قارنا هذه الأمثلة التى ذكرها الخصوم لهم ، بالأمثلة التى وردت فى كتبهم .

ما ورد من تأويلات الباطنية فى بعض كتبهم :

الباطنية — بوجه عام — يحرصون أشد الحرص على كتم تعاليمهم ، والإسرار بمعتقداتهم ، ومن أجل ذلك لم ينشر من كتبهم إلا القليل ، ومن هذه الكتب القليلة التى نشرت لهم — فى مجال التأويل الباطنى — كتاب (تأويل الدعائم) للقاضي الفاطمى النعمان بن محمد التميمي ، ونحن سنعتمد — فى هذا الصدد — على هذا الكتاب الذى نشرته دار المعارف بمصر ، فكل ما نذكره هنا من الأمثلة إنما هو مستمد من هذا الكتاب ، حيث إنه لم يتح لنا الإطلاع على غيره من كتب الباطنية التى عنيت بالتأويل الباطنى ، فإلى أن ييسر الله لنا الإطلاع على غيره من الكتب نكتفى الآن بذكر هذه الأمثلة التى وردت فى كتاب (تأويل الدعائم) والله المستعان .

١ — فى قوله تعالى: « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(١) ذكر القاضي النعمان بن محمد

(١) سورة الأنفال : ٤١

بعض الخزعبلات فى التأويل الباطنى هذه الآية ، مثل قوله إن خمس الغنائم هو علم من علوم الله عز وجل جعل استنباطه واستخراجه وإظهار مافيه من باطن الحكمة والتأويل لأوليائه ومن أقامه لذلك بأمره ، وأن المراد باليتامى والمساكين فى الباطن الأئمة وأولياء عهودهم ، وأن ابن السبيل فى الباطن هم طبقات الدعاة إلى أولياء الله ، واستمع إليه — وهو يسترسل فى هذه السخافات المضحكة — حيث يقول : « جاء عن الصادق جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال : الخمس لله عز وجل ، جعله للرسول ﷺ ولقرابته ويتاماهم ومساكينهم وأبناء سبيلهم ، وكذلك يقول كثير من العوام ، وقالوا : قوله (فان لله) افتتاح كلام ، والله عز وجل له كل شيء ، والخمس لهؤلاء الخمسة الأصناف : للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فهذا هو القول والحكم فى الخمس فى الظاهر ، وتأويل ذلك فى الباطن ماقد ذكرناه أن مثل مال الخمس — فى حيث وجب ذلك — علم من علم الله جل وعز ، جعل استنباطه واستخراجه وإظهار مافيه من باطن الحكمة والتأويل لأوليائه ، ومن أقامه لذلك بأمره ، وماجرت به فى ذلك سنته . وذكر الخمس من ذلك لأنه يجرى ويدور على خمسة أصناف ، لكل صنف منهم ذلك من قسطه ، على حسب ماذكرناه فى ابتداء ذكر الزكاة .

يقول الله جل وعز : (فان لله خمسه) ، هو مافسره الصادق صلوات الله عليه : أنه لله عز وجل ، أى هو علمه سبحانه ، أعطاه من ذكره من أولياء الله ، وأمرهم باعطاء ماأجرى منه لمن يقيمونهم من أسبابهم ، فالرسول أحد الأصناف من ذلك ، وأولو القربى الأسس[1] ، وهم قرابة الرسول وأوصياؤهم

---

(١) الأسس جمع أساس ، وهو الصامت والوصي ، فقد قالوا : فى العالم العلوى عقل ونفس كلى فوجب أن يكون فى هذا العالم عقل مشخص هو كل . وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ، ويسمونه : (الناطق) وهو النبي ، ونفس مشخصة وهى كل أيضاً ، وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال ، أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام ، أو حكم الأنثى المزدوجة بالذكر ، ويسمونه : (الأساس) وهو الوصي — انظر الملل والنحل ج١ ص١٧٣

وأولو الأمر من بعدهم ، واليتامى هم في الباطن الأئمة ، وسموا يتامى لأن كل واحد منهم فى عصره فرد منقطع القرين ، لامثل له فيه ، ومن ذلك قيل للدرة التي لانظير لها من الدر : اليتيمة ، وقيل لهم أيضاً : يتامى لأن آباءهم ، وهم الأئمة من قبلهم فى الظاهر والباطن ، قد نقلوا من الدنيا ، ولا يكون إماماً فى الدنيا وأبوه حي ، والمساكين وهم فى الباطن أولياء عهود الأئمة فى حياتهم ، وحججهم ، والذين تصير إليهم الإمامة من بعدهم ، وقبلهم مساكين لأنهم محتاجون مفتقرون إلى معروف الأئمة ظاهراً وباطناً ، لايملكون من ذلك إلا ما ملكوهم وأعطوهم ، خاضعون مستكينون إليهم ، وابن السبيل فى الباطن هم طبقات الدعاة إلى أولياء الله ، وقيل لهم : أبناء السبيل لتصوفهم وتفرقهم فى سبيل جزائر الأرض وأقاليمها ، يدعون إلى أولياء الله من استجاب لهم من أهلها ، كما يكون كذلك أبناء السبيل فى الظاهر ، الضاربون فى الأرض ، فهذه خمسة أصناف ، قد جزأ الله جل وعز عليها ماقسمه لعباده المؤمنين من العلم والحكمة ، فلكل أهل طبقة منهم قسطهم من ذلك ، على ماحده سبحانه وأوجبه وجرت به سنة الله فى عباده»[1].

٢ — وفى قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين »[2] يبين ما فى هذه الآية من تأويل ، فيذكر أن البيوت — فى الباطن — هم أولياء الله أى الأئمة ، والسكن — فى الباطن — ماتسكن إليه قلوب المؤمنين من علم أولياء الله وهو علم التأويل ، وأن الجلود والأصواف والأوبار والأشعار هى الظاهر الذى يعمل به إلى حين سقوط الأعمال بحضور الساعة ، ولاندرى ماذا يريد بالساعة فى كلامه هل يريد بها ساعة الموت أم يريد بها ساعة وصول الباطنى إلى رتبة الكمال فى العلوم ، والإحاطة من جهة الإمام بحقائق الأمور ، فتسقط

---

(١) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٢) سورة النحل : ٨٠

عنه التكاليف العملية، كما هو مذهب الباطنية، ثم ألست معى فى أن هذا التأويل الباطنى الذى ذكره هذا الداعية الفاطمى ماهو إلا ضرب من ضروب التخبط والخبال، والفساد والضلال ؟ يقول القاضى النعمان . «فأمثال البيوت فى الباطن أولياء الله وأسبابهم الذين أقاموهم لصلاح عبادهم، إليهم يأوى المؤمنون على طبقاتهم، كل طبقة منهم (تأوى)[1] إلى من أقيم لهم، ومن ذلك قول الله جل من قائل : «وأتوا البيوت من أبوابها[2]»، تأويله ألا يؤتى أحد منهم إلا من الباب الذى أقامه . ومنه قول رسول الله ﷺ : «أنا مدينة العلم، وعلى بابها»، ومثل الجلود والأصواف، والأوبار والأشعار مثل الظاهر، وعنى بالسكن ماتسكن اليه قلوب المؤمنين من علم أولياء الله، علم التأويل . وبالجلود والصوف والوبر والشعر ظاهرهم، فلذلك يعمل به، ويستمتع منه الى حين دفع الأعمال بحضور الساعة»[3] .

٣ ـ ثم نجده يؤول لنا قول الله تعالى : «وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون»[4] فيذكر أن الماء الذى ينزل من السماء ــ فى الباطن ــ هو العلم الذى يصير من الناطق إلى الحجة، وأن النبات ــ فى الباطن ــ هم المؤمنون الذين تنبتهم حكمة أولياء الله، ويختلفون فيما بينهم كما تختلف أصناف النبات والثمار، وفى ذلك يقول : «فمثل ماينزل من السماء من الماء مثل مايخرج عن الناطق من العلم، ومصيره إلى الأرض وما أودعته من ذلك مثله مثل ماصار من العلم من قبل الناطق إلى حجته، ومثل مايخرج عن ذلك من النبات أمثال المؤمنين الذين تنبتهم حكمة

---

(١) هذه الكلمة ليست فى الأصل . وقد زدناها لكى يستقيم النص .

(٢) سورة البقرة : ١٨٩

(٣) تأويل الدعائم جـ٢ ص ١١٣

(٤) سورة المؤمنون : ١٨، ١٩

أولياء الله، وهم ضروب كما يخرج من الأرض من النبات والثمار والحبوب، فما كان من ذلك من الثمار والأعناب والتمر وما أشبه ذلك مما يعصر منه، ويكون فيه عصير من الثمار أو حلاوة، فمثله مثل النقباء والدعاة وأسبابهم الذين يعتصر منهم العلم والحكمة، ويميزون بين التنزيل والتأويل، وبين الظاهر والباطن، ويكون العلم والحكمة عندهم، وذلك مافى هذه الثمار من الحلاوة، وهم على طبقات وأصناف، كما كذلك الثمرات، والحنطة وأجناسها أمثال المأذونين، وسائر الحبوب والأشجار غير المثمرة والحشائش أمثال المستجيبين»[1].

فانظر إلى هذا التصنيف العجيب الذى نشم منه رائحة كريهة. هى رائحة التفرقة بين المؤمنين، وتفضيل بعضهم على بعض، لا على أساس من التقوى والعمل الصالح، كما تقضي بذلك تعاليم الدين الحنيف، بل على أساس من التشيع الكاذب، والتعصب البغيض، والطائفية الممقوتة، والجرى وراء وهم يقال له: الإمام المعصوم، عصمنا الله من الزلل. ووقانا شر الفتنة ماظهر منها وما بطن، إنه على مايشاء قدير.

٤ — وفى قوله تعالى: «قد أفلح من تزكي»[2] يذكر لنا معنى باطنياً غريباً لزكاة الفطر التى أشارت إليها هذه الآية، فيقول: إن زكاة الفطر معناها — فى الباطن — أن كل من صار إلى دعوة الحق عليه أداء الواجب إلى من يلى أمره من الدعاة، ومعنى ذلك أن دعوة الحق — وهى الدعوة الشيعة الفاطمية عنده — دين فى عنق كل شخص، وعليه أن يستجيب لدعاتها، ويخضع خضوعاً تاماً لهم، كما يجب أن يؤدى عن نفسه زكاة الفطر، وأنت ترى أنه لاتوجد أدنى مناسبة بين زكاة الفطر، وهذا المعنى الباطنى الذى ذهب إليه، يقول القاضى النعمان — فى هذا الصدد —: «فزكاة الفطر واجبة على

---

(١) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ١٢٩ . ١٣٠
(٢) سورة الأعلى: ١٥

الصغير والكبير، والغنى والفقير فى الظاهر، وتأويلها – فى الباطن – أنه يجب على جميع من صار إلى دعوة الحق من المفيدين والمستفيدين، الذين أمثالهم أمثال الذكور والإناث، وأهل الاتساع منهم فى العلم والمقصرين فيه الذين أمثالهم أمثال الاغنياء والفقراء، وذوى الرفعة فىالدرجات منهم والدون الذين أمثالهم أمثال الكبار والصغار، فعلى أهل هذه الحدود كلها – على تفاوت درجاتهم، وتباين مراتبهم، واختلاف أحوالهم – فكاك رقابهم بأداء الواجب في ذلك عليهم إلى من يلى أمر كل فريق منهم[1] ».

٥ – ثم نجده يؤول القتل الذى ورد فى القرآن بأنه ترك المفيد بلا فائدة، ويقول: إن قتل الأولاد – فى الباطن – ترك الداعى أهل دعوته لايفيدهم، وأن القتل بالحق – فى الباطن – هو أن يقطع الإمام مادة العلم عن الداعى الذى يفعل ذلك، وأن قتل النفس – فى الباطن – هو الإعراض عن العلم والحكمة، استمع إليه يقول: « ومن ذلك قول الله جل ذكره: « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا »[2] وقوله: « ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا »[3] فقتل الأولاد – فى الباطن – خشية الإملاق، والإملاق الفقر: ترك الداعى أهل دعوته – وهم فىالباطن – أولاده، لايفيدهم، يخشي أن يصير لهم من العلم مايترأسون به عليه[4]، فيحلوا محله، ويريد أن يكونوا أبداً جهالا، وهو عالم وحده بينهم، فلولى الزمان ولمن أقامه لمثل ذلك

(١) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ١٣١

(٢) سورة الأنعام : ١٥١

(٣) سورة الإسراء : : ٣٣

(٤) في الأصل : (يصيرهم من العلم مايترأسوا به عليه) وهو خطأ، والصواب ماذكرنا.

سلطان على من فعل ذلك، (وهو)[1] أن يقيد منه، والقتل — فى التأويل — ترك المفيد بلا فائدة، فيفعل من له السلطان بمن فعل ذلك مثل فعله، وذلك أن يقبض يده عن الدعوة، ويقطع عنه مادة العلم، فهذا هو تأويل القتل بالحق ومثل القصاص من القاتل، والقتل الأول هو مثل القتل ظلماً، ومثل المعرض عن العلم والحكمة — وهو يجدها — مثل من قتل نفسه فى الباطن، وقد قال الله جل من قائل: «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[2]. فافهموا أيها المؤمنون تأويل ماعلمتم ظاهره من أمر دينكم، وباطن ذلك، وأقيموا ظاهر ما تعبدتم به وباطنه، وفقكم الله لذلك وأعانكم عليه، وصلى الله على محمد نبيه، وعلى الأئمة من آله، وسلم تسليما، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[3].

٦ — وأخيراً وليس آخراً يؤول الطير الذى جاء فى القرآن بالدعاة، ولا ندرى ماهى العلاقة التى جعلته يربط بين الطير الذى يسبح فى كبد السماء، والدعاة الذين ينتشرون على وجه الأرض لدعوة الناس إلى المذهب الشيعى الباطنى، واستمع إليه فى هذا التأويل الذى يقوم أساساً على التحريف والتخريف حيث يقول: «والميت الذى يلقى على وجه الأرض أو يصلب مثله — فى حال الموت المحمود — مثل الداعى الذى يرفع فوق الدعاة، وهو دون النقيب، لأن هذا إنما صار على وجه الأرض، ولم يغب فيها، ومنه قول الله جل ذكره — حكاية عن يوسف عليه السلام —: «وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه»[4] ومثل الطير مثل الدعاة، ومثل أكلها من رأسه إفادتها عنه مايفيده من الحكمة، ومن مثل الطير أنهم فى الباطن الدعاة

---

(١) هذه الكلمة ليست فى الأصل، وقد رأينا زيادتها لكى يستقيم الكلام.

(٢) سورة النساء: ٢٩

(٣) تأويل الدعائم ج ٢ ص ٩٨ . ٩٩

(٤) سورة يوسف: ٤١

قول الله عز وجل : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير »[1] يعني – في التأويل الباطن – أتباعه من أهل الباطن وأهل الظاهر والدعاة ، وقوله لإبراهيم : «فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك »[2] وقد ذكرنا تأويل ذلك وبيانه وأنه عنى – في الباطن – أربعة من الدعاة ، فافهموا أيها المؤمنون بيان التأويل ، وعلم باطن الدين والتنزيل »[3].

وبعد :

فهذه أمثلة من تأويلات الباطنية التي وردت في كتاب (تأويل الدعائم) للنعمان بن محمد التميمي قاضي الدولة الفاطمية ، وهي – كما ترى طائفة من الخزعبلات والمضحكات التي لا تكاد تصدر عن عاقل ، كما أنها – في جملتها – تدور حول عقيدة (الإمام المعصوم) ، وتعميق إيمان الناس بها ، ودعوتهم إلى الاستجابة لها ، والالتفات حولها ، وفي ذلك انتصار للدعوة الشيعية الفاطمية ، ونحن نرى أن هذه التأويلات التي تدور في هذا الفلك تشبه – إلى حد كبير – مايسمى في عصرنا الحاضر بالدعاية السياسية الحزبية التي يطلقها رجال الأحزاب ، وأصحاب المصالح المشتركة ، لصالح رجل معين أو جماعة معينين ، والفرق الوحيد بين النمطين هو أن هذه التأويلات الباطنية قد أخذت طابعاً دينياً ، بخلاف ما نشاهده اليوم من الدعايات الحزبية ، ومن ثم نرى أن هذه التأويلات الباطنية فاسدة وباطلة ، كيف وهي لا تستقيم مع اللغة ولا مع الشرع في شيء ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) سورة النمل : ١٧

(٢) سورة البقرة : ٢٦٠

(٣) تأويل الدعائم جـ ٢ ص ٧٥

ما ورد من تأويلات الباطنية فى كتب بعض خصومهم

وإلى جانب ماتقدم نجد أمثلة لهذه التأويلات الفاسدة فى كتب أهل السنة الذين رفضوا هذا المذهب الباطنى جملة وتفصيلا ، وهاجموا أصحابه مهاجمة شديدة ، وحكموا عليهم بالزندقة والإلحاد ، وعند المقارنة بين هذه الأمثلة التى وردت فى كتب أولئك الخصوم ، وبين الأمثلة التى وردت فى كتب الباطنية أنفسهم ، والتى سبق أن ذكرنا طرفا منها نجد أن النوعين من الأمثلة تخرجان من مشكاة واحدة ، ومن منبع واحد ، مما يؤكد لنا أن علماءنا الأجلاء من أئمة أهل السنة لم يكونوا يصدرون أحكامهم بطريقة عشوائية ، اتباعا للهوى أو بدافع التعصب الممقوت ، بل كانت أحكامهم عادلة ، ونظراتهم صادقة ، ودراساتهم دقيقة ، وأبحاثهم محررة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجزاهم عن الإسلام وأهله أحسن الجزاء ، وإليك أمثلة مما ورد من تأويلات الباطنية فى بعض هذه الكتب :

١ — ذكر الإمام البغدادى فى كتابه : (الفرق بين الفرق) أمثلة من تأويلات الباطنية فقال : « والباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحى والأمر والنهى ، بل ينكرون أن يكون فى السماء ملك ، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم ، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم ، والأبالسة على مخالفيهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل ، طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة ، وكل واحد منهم صاحب دور مسبع ، إذا انقضى دور سبعة تبعهم دور آخر(١) ،

(١) فى الأصل : (تبعهم فى دور آخر) ، ولعل الصواب ما ذكرناه .

وإذا ذكروا النبي والوصي[1] قالوا : إن النبي هو الناطق ، والوصي أساسه الفاتق ، وإلى الفاتق تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل إليه هواه ، فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة ، ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته ، وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام ، والزنى عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها ، وتأولوا في ذلك قوله : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[2] ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل »[3] .

٢ — وعقد الإمام الغزالي فى كتابه : (فضائح الباطنية) فصلا فى تأويلات الباطنية للظواهر ، وذكر طرفا منها فقال : « والقول الوجيز فيه أنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها ، واستفادوا — بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ — إبطال معانى الشرع ، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم المبايعة والموالاة ، وأنهم لو صرحوا بالنفى المحض ، والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين ، وكانوا أول المقصودين المقتولين ، ونحن نحكى من تأويلاتهم نبذة لنستدل بها على مخازيهم ، فقد قالوا : كل ما ورد من الظواهر فى التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن أما الشرعيات ، فمعنى الجنابة عندهم مبادرة المستجيب بافشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه ، ومعنى الغسل : تجديد العهد على من فعل ذلك ، ومجامعة البهيمة معناها عندهم معالجة من لا عهد عليه ، ولم يؤد شيئاً من صدقة النجوى ،

---

(١) فى الأصل : (الوحى) فى هذا الموضع والذى يليه ، وهو خطأ ، والصواب ما ذكرناه .

(٢) سورة الحجر : ٩٩

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

وهى مائة وتسعة عشر درهما عندهم ، فلذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ، وإلا فالبهيمة متى وجب القتل عليها ، والزنى هو إلقاء نطفة العلم الباطن فى نفس من لم يسبق معه عقد العهد ، والاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر فى غير محله ، فعليه الغسل ، أى تجديد المعاهدة ، والطهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام ، والصيام هو الإمساك عن كشف السر ، والكعبة هى النبى ، والباب على ، والصفا هو النبى والميقات هو الأساس ، والتلبية إجابة الداعى ، والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة » [1] . إلى آخر هذه الخزعبلات .

٣ — ثم نجد شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالته التى أسماها (مقدمة فى أصول التفسير) سلك الباطنية فى سلك المفسرين الذين يحملون ألفاظ القرآن على معان فاسدة ، وألفاظ القرآن لا تدل عليها بحال ، فيخطئون فى الدليل والمدلول معاً ، وفى هذا المجال ذكر لنا بعض تأويلاتهم الفاسدة للنصوص فقال : — بصدد الحديث عن التفاسير الباطلة بوجه عام — « وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن ، إما دليلا على قولهم ، أو جواباً عن المعارض لهم ، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ، ويدس البدع فى كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب (الكشاف) ونحوه ، حتى إنه يروج — على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل — من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم — يعنى هؤلاء المبطلين — ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ، ولا يهتدى لذلك ، ثم إنه بسبب تطرف [2] هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر فى الفلاسفة والقرامطة

---

(١) فضائح الباطنية ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) فى الأصل : « تطرق » بالقاف ، ولعل الصواب ما ذكرناه .

والرافضة، فانهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضى منها العالم عجبه، فتفسير الرافضة كقولهم: «تبت يدا أبى لهب»(١) هما أبو بكر وعمر، و«لئن أشركت ليحبطن عملك»(٢) أى بين أبى بكر وعمر، وعلى فى الخلافة، و«إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة»(٣) هى عائشة، و«فقاتلوا أئمة الكفر»(٤) طلحة والزبير، و«مرج البحرين»(٥): على وفاطمة، و«اللؤلؤ والمرجان»(٦): الحسن والحسين، «وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين»(٧): فى على بن أبى طالب، و«عم يتساءلون عن النبأ العظيم»(٨): على بن أبى طالب»(٩)، وهكذا.

٤ – ثم نجد الإمام يحيى بن حمزة العلوى فى كتابه: «مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار» يورد لنا الكثير من هذه التأويلات المنحرفة والإمام يحيى العلوى – وإن كان شيعياً زيدياً – إلا أنه لم يرتض هذا المسلك الذى سلكه الباطنية فى التأويل. بل حاربهم حربا لا هوادة فيها. وخصص كتابه سالف الذكر للرد عليهم والتنديد بهم، ومن المعروف أن الزيدية هم أقرب طوائف الشيعة إلى أهل السنة ولذلك فان الفريقين مشربهم يكاد يكون واحداً فى الأصول والفروع.

---

(١) سورة المسد: ١

(٢) سورة الزمر: ٦٥

(٣) سورة البقرة: ٦٧

(٤) سورة التوبة: ١٢

(٥) سورة الرحمن: ١٩

(٦) سورة الرحمن: ١٩

(٧) سورة يس: ١٢

(٨) سورة النبأ: ١، ٢

(٩) مقدمة فى أصول التفسير ص ٨٦، ٨٧ ط الكويت

يقول الإمام يحيى – فى هذا الصدد – : « المطلب الخامس فى ذكر طرف من خرافاتهم ليعجب منها العقلاء ، ونقتصر منها على أنواع خمسة ، فانا نضن بالبياض عن أن نسوده بهذه الترهات »[1] وبعد أن ذكر الأنواع الأربعة الأولى التى تتعلق بأحوال العبادات ، والأمور الشرعية ، والمحرمات والمعجزات شرع فى بيان النوع الخامس فقال : « النوع الخامس : أمور خارجة عما ذكرنا أولا ، منها إبليس وآدم ، زعموا أنهما عبارة عن أبى بكر وعلى إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة فأبى واستكبر ، والدجال عبارة عن أبى بكر ، وكان أعور لأن أبا بكر لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن، ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر ، والشياطين هم أهل الظاهر الذين كلفوا الأعمال الشاقة ، والقيامة عندهم هو قيام السابع الناسخ للشرع ، المغير للأمر ، وهو محمد بن إسماعيل ، والمعاد عندهم هو عود كل شيء إلى أصله ، حتى يصير البدن تراباً وناراً وهواء وماء ، لأن هذه الأشياء هى أصل الأجسام ، والذى نقلناه بالنسبة لهذيانهم قطرة من بحر لجى ، لأن جميع ظواهر الشريعة ونصوصها أولوها على ما عن وسنح من هذيانهم بغير هدى من الله ، ولا نور من تبيانه فحصل من هذا أنه لا غرض لهم إلا التسلق بلطيف الاستدراج ، ودقة الحيلة والتفرس إلى إبطال الشريعة ومحو آثارها ، ويأبى الله إلا إتمام نوره وتشييد معالمه ولو كره المشركون »[2] .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من بحث هذا الموضوع ، ودراسة جوانبه المختلفة ، ولننتقل الآن إلى موضوع وثيق الصلة به وهو شطحات الصوفية وبالله التوفيق .

---

(١) مشكاة الأنوار ص ١٦٢

(٢) المصدر السابق ص ١٦٣ ، ١٦٤

الفصل الرابع

شطحات الصوفية فى التفسير

متى بدأ التصوف ؟

يمكننا أن نقول : إن التصوف الإسلامى بمعناه العام — وهو الزهد والتقشف — ترجع بدايته إلى عصر مبكر من عصور الإسلام ، وهو عصر الصحابة والتابعين ، بيد أن الصحابة والتابعين — رضوان الله عليهم — لم يعرفوا باسم الصوفية أو المتصوفة ، فالجيل الأول منهم — وهم الصحابة — لم يطلق عليهم سوى هذا الوصف الكريم الذى يربطهم بالرسول ﷺ ، وهو وصف الصحبة ، إذ لا شرف ولا أفضلية فوقها ، ولما أدركهم أهل الجيل الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين .

وفى القرن الثانى الهجرى وما بعده نشأ بين الناس الإقبال على الدنيا ، والانغماس فى شهواتها ، فظهر آنذاك جماعة من الناس لهم شدة عناية بأمر الدين قيل لهم : الزهاد والعباد .

ولما نشأت الفرق الإسلامية ادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعباداً ، وهنا انفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم (الصوفية أو المتصوفة) ، واشتهر هذا الأسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (١) .

---

(١) انظر تعليق الشيخ مصطفى عبد الرازق على مادة (التصوف) فى دائرة المعارف الإسلامية جـ ٩ ص ٢٣٧ .

ونتساءل هنا : مم اشتق لفظ (الصوفى) أو (المتصوف) ؟

اختلف الناس فى ذلك اختلافا كبيرا ، فالإمام القشيرى يرى أن هذا اللفظ غير مشتق ، حيث يقول : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب »[1] .

ويرى آخرون أن هذا اللفظ مشتق ، والقائلون بالاشتقاق اختلفوا فيما بينهم فمن قائل : إنه مشتق من الصفاء أو الصفو ، والمراد صفو قلوب أهل التصوف وانشراح صدورهم ، ورضاهم بما يجريه الله عليهم ، ثم إنهم مع الله فى صفاء لا يشوبه شاغل ، وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل ، قالوا : وكان فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك فقيل : صوفى .

ومن قائل : إن اللفظ مأخوذ من الصوف ، لأن لباس الصوف كان يكثر فى الزهاد ، ويستأنس لذلك بأن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام ، فنسبهم إلى ظاهر اللباس ، فقال عز وجل : « إذ قال الحواريون »[2] الآية ، وكانوا قوماً يلبسون البياض ، فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية — والله أعلم — نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين ، وشعار المساكين المتنسكين .

وقال قائلون : إن الصوفية نسبوا إلى الصفة[3] التى ينسب إليها كثير من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ ط الشعب .

(٢) سورة المائدة : ١١٢

(٣) الصفة من البيت جمعها صفف ، مثل غرفة وغرف . اهـ من المصباح المنير ، وجاء فى القاموس : أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام ، كانوا يبيتون فى صفة مسجده ﷺ ، وهو موضع مظلل من المسجد اهـ .

الصحابة ، فيقال : أهل الصفة ، وأهل الصفة هم زهاد من مهاجرى الصحابة فقراء غرباء ، كانو سبعين ويقلون حينا ويكثرون ، لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد ، يسكنون صفة المسجد ، وهو موضع مظلل فى مسجد المدينة ، لكن النسبة إلى الصفة لا تجىء على الصوفى ، بل على الصفى .

وقيل : إن الصوفى نسبة إلى الصف الأول ، لأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة وارتفاع الهمة مع الله تعالى والقرب منه ، أو لأنهم كانوا أسرع الناس إلى الصف الأول فى المساجد عند الصلاة[1] .

ويرى البيرونى أن هذا اللفظ إنما هو تحريف للكلمة (سوف) اليونانية التى تعنى الحكمة ، حيث يقول : « وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فان (سوف) باليونانية الحكمة ، وبها سمى الفيلسوف (بيلا سوبا) أى محب الحكمة ، ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم »[2] ثم أشار البيرونى بعد ذلك إلى أن الاسم دخله التصحيف

ونحن نرى - كما يرى كثير من الباحثين - أن أرجح هذه الأقوال وأقربها إلى الصواب القول بأن الصوفى نسبة إلى الصوف ، وأن المتصوف مأخوذ منه كذلك ، يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فهذا القول له - كما رأينا - وجه سائغ فى الاشتقاق ، وتسمية القوم بذلك إنما يرجع - كما يقول ابن خلدون - إلى أن المتقدمين من سلفهم كانوا فى الغالب مختصين بلبس الصوف ، لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب[3] .

---

(١) انظر تعليق الشيخ مصطفى عبد الرازق على مادة التصوف فى دائرة المعارف الإسلامية جـ ٩ ص ٣٣٩ . ٣٤٠ .

(٢) الفلسفة الهندية للبيرونى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ ، وانظر كذلك عوارف المعارف للسهروردى ص ٩١ .

وقد دافع أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود عن هذا الرأي الذي ينسب الصوفية إلى الصوف فقال — رحمه الله — : « وإذا كانت هذه الكلمة تنتسب إلى الملبس — وهو مظهر وشكل ورسم — فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال ، وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ، إذ المعنى الأصلي قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ، ومن أجل ذلك فانه لامجال لتخوف هؤلاء الذين لايريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه ، حقيقة أن الباحثين كثيراً مايجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً ، والواقع أن التصوف أصبح معنى معروفاً لاشان له بالمظاهر والأشكال »[1].

وتعليقاً على ذلك نقول : إن ابن خلدون قد ذكر لنا في مقدمته — كما سبق أن وضحنا — صلة وثيقة بين الصوفية والصوف ، فقال : إن القوم كانوا في الغالب مختصين بلبس الصوف الخشن على سبيل التقشف مخالفين بذلك ما كان عليه الناس من التحلي بفاخر الثياب ، والتمتع بزينة الحياة الدنيا ، فمن هنا سموا بالصوفية ، وأطلق هذا الاسم عليهم منذ ذلك الحين ، وهذا الذي ذكره العلامة ابن خلدون لايتعارض قط مع مايراه أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود — رحمه الله — من أن التصوف أصبح معنى معروفاً لاشأن له بالمظاهر والأشكال .

ولقد أشار أستاذنا — رحمه الله — إلى هذه الصلة ، فقال — بعد قليل — : « ولقد رأى هؤلاء الزهاد — من ناحية الملبس — في الصوف مايحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص

---

(١) انظر مقدمة (المنقذ من الضلال) للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٩ ، ٣٠

خشن لا يحتاج الإنسان معه فى الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغييره كثيرا ، ذ ك أنه لا يبلي بسرعة ، فتصوفوا : أى لبسوا الصوف ، وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمدا ، فذاع وشاع ، وأصبح الزهاد يعرفون — فى البيئات العربية — باسم الصوفية »[1] .

الأدوار التي مر بها التصوف :

قلنا : إن التصوف — فى بداية الأمر — كان عبارة عن التقشف والزهد، والاشتغال بالعبادة ، والاقبال على الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، ولكن هل بقى التصوف منحصرا فى نطاق هذا المعنى طوال العصور المختلفة أم ماذا ؟

الواقع ان التصوف تطور عبر العصور ، وانقلب إلى علوم ومعارف ، ونظريات وأحـــوال ، ونستطيع أن نلخص الأدوار التى مر بها التصوف فيما يلى :

أولا : كان التصوف — فى البداية كما ذكرنا — بمعنى الزهد والتقشف، ومجاهدة النفس ، والاشتغال بالعبادة ، والعزوف عن الدنيا ، وكان لقب الصوفى أو المتصوف يطلق آنذاك على الزاهد والعابد والفقير ، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين ، فان الزهد والفقر ولبس الصوف مظهر ذلك .

ثانياً : ولما دونت العلوم كان أول ما اتجهت إليه الهمم . وانصرفت إليه الأفكار علم الشريعة بمعنى الأحكام العملية ، حتى ظن الناس آنذاك أن الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو غاية الدين ، هنالك تطور معنى التصوف إلى

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠ ، ٣١ .

ما يناسب الكمال فى الدين الذى وضع له اللفظ أولا ، وأدى هـذا الطموح إلى نشأة علم دينى إلى جانب العلم الفقهى .

وانقسم علم الشريعة — تبعاً لذلك — إلى قسمين :

الأول : علم يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة التي تجرى على الجوارح والأعضاء الجسمية ، وهى العبادات كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم إلى آخره ، وأحكام المعاملات كالحـدود والزواج والطلاق ، والعتق والبيوع والفرائض والقصاص ، وسمى هذا العلم علم الفقه ، وهو مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا فى العبادات والمعاملات .

والثانى : علم يدل على الأعمال الباطنة ويدعو إليها ، والأعمال الباطنة هى أعمال القلوب ، وسمى هذا العلم الثانى علم التصوف ، وسمى المتصوفون أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن ، وسموا من عداهم أهل ظواهر وأهل رسوم ، وأهل الرسوم طائفتان : القراء والفقهاء ، فالقراء هم أهل التنسك والتعبد ، سواء كانوا يقرءون القرآن أم لا يقرءون ، وهمتهم مقصورة على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف وأعمال القلوب ، والفقهاء هم المشتغلون بالفتيا وعلوم الشريعة ، وهؤلاء وهؤلاء عند الصوفية أهل رسوم ، ففريق مع رسوم العلم ، وفريق مع رسوم العبادة ، والتصوف في هذا الدور عبارة عن الأخلاق الدينية ومعانى العبادة[1].

ويحدثنا ابن خلدون عن هـذا الدور والسمات البارزة فيـه ، فيقول : « فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله ، والـكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم ، فمنهم من كتب فى أحكام الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الأخذ والترك ، كما فعله

---

(١) انظر تعليق الشيخ مصطفى عبد الرازق على مادة (التصوف) فى دائرة المعارف الإسلامية جـ ٩ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

المحاسبي فى كتاب (الرعاية) له، ومنهم من كتب فى آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم فى الأحوال، كما فعله القشيرى فى كتاب (الرسالة)، والسهروردى فى كتاب (عوارف المعارف) وأمثالهم، وجمع الغزالي - رحمه الله - بين الأمرين فى كتاب (الاحياء) فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم، وشرح اصطلاحاتهم فى عباراتهم، وصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع فى سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك »[1].

ثالثاً : ثم اتسعت أنظار الباحثين فى العلوم الدينية، ودقت أفكارهم، وعنوا عناية خاصة بالكلام فى قضايا التوحيد والعقيدة والأمور الغيبية، واستعانوا على ذلك بالأدلة المنطقية والعقلية، وهؤلاء هم الذين عرفوا فى تاريخ الفكر الإسلامى باسم المتكلمين والفلاسفة، وهنا اتجه الصوفية إلى وضع نظرية خاصة لهم فى المعرفة وسبيل الوصول إليها، هذه النظرية لاتعتمد على الاستدلال العقلي، كما يرى المتكلمون والفلاسفة، بل تعتمد - أساساً - على البصيرة التى سبيلها مجاهدة النفس والتزكي والتطهر، فانها عندهم هى الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالي هى السعادة التى وعد الله بها المتقين.

وقد عقد الإمام الغزالى فى كتابه : (إحياء علوم الدين) فصلا لبيان الفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق، وطريق النظار، والفرق بين الإلهام والتعلم، فقال - رحمه الله - : « اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية، وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال تختلف الحال فى حصولها، فتارة تهجم على القلب، كأنه ألقى فيه من حيث لايدرى، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٠

يسمى إلهاماً ، والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً ، ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى مالا يدرى العبد أنه كيف حصل له ؟ ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذى منهاستفاد ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فىالقلب ، والأول يسمى إلهاما ونفثا فى الروع ، والثانى يسمى وحيا ، وتختص به الأنبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء ، والذى قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء »(١) .

ثم بين الإمام الغزالى أن الصوفية يحرصون على العلوم الإلهامية دون سواها وشرح سبيلهم فى الوصول إليها فقال : « فاذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الإستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة »(٢) .

رابعاً : ثم جاء المتأخرون من الصوفية ـ كابن عربى وابن الفارض وأمثالهما ـ فانصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام فى المدارك التى وراءه ، وذهب جماعة من هؤلاء الذين توسعوا كثيراً فى ميدان التصوف النظرى ، وصيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية إلى القول بنظرية وحدة

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٤ ط الحلبى .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥ .

الوجود[1] ، ووحدة الوجود – عندهم – معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد ، كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله سبحانه هو الموجود الحق ، وكل ماعداه ظواهر وأوهام ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز ، وهذه النظرية سرت إلى بعض الصوفية عن طريق الفلاسفة ، وعن طريق الاسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم ، وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الاله فى أئمتهم ، وصوروه – أعنى الصوفية – بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة ، وإن اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ[2] .

وقد شرح ابن خلدون هذه النظرية الغريبة – نظرية وحدة الوجود – ومدى تأثرها بالفلسفة اليونانية وعقيدة النصارى فى المسيح عليه السلام ، فقال: « وذهب جماعة من المتصوفة والمتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية إلي أن الباري، تعالى متحد بمخلوقاته فى هويته ووجوده وصفاته ، وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو مثل أفلاطون وسقراط ، وهذا الاتحاد هو الحلول الذى تدعيه النصارى فى المسيح عليه السلام ، وهو أغرب لانه حلول قديم فى محدث ، أو اتحاده به ، وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة ، وتقرير هذا الاتحاد فى كلامهم على طريقين :

الأولى : أن ذات القديم كامنة فى المحدثات ، محسوسها ومعقولها ، متحدة بها فى التصورين ، وهى كلها مظاهر لها، وهو القائم عليها أى المقوم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدماً ، وهو رأى أهل الحلول .

الثانية : طريق أهل الوحدة المطلقة ، وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد ، فنفوها بين القديم و بين المخلوقات فى الذات

---

(١) وممن قال بوحدة الوجود من متقـــدمى الصوفية كذلك الحسين ابن منصور المعروف بالحلاج الذى نسب إليه أنه قال : أنا الله ، فأمر الخليفة العباسى بقتله سنة ٣٠٩ هـ .

(٢) التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ١٢

والوجود والصفات، وغالطوا فى غيرية المظاهر المدركة بالحس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهى أوهام، ولا يريدون الوهم الذى هو قسيم العلم والظن والشك، وإنما يريدون أنها كلها عدم فى الحقيقة، وجود فى المدرك البشرى فقط، ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم لا فى الظاهر ولا فى الباطن، والتعويل فى تعقل ذلك على النظر والاستدلال ـ كما فى المدارك البشرية ـ غير مفيد، لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية، وإنما هى حاصلة للأنبياء بالفطرة، ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم، وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال»(١).

من هذا كله يتبين لنا أن هؤلاء المتصوفة الذين قالوا بوحدة الوجود قد تأثروا تأثراً كبيراً بالفلسفة اليونانية وبالمسيحية، كما تأثروا كذلك بمذهب الاسماعيلية الباطنية فى قولهم بالقطب والأبدال ونحو ذلك، وفى هذا يقول ابن خلدون: «ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملأوا الصحف منه، مثل الهروى فى كتاب (المقامات) له، وغيره، وتبعهم ابن العربى(٢) وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف، وابن الفارض والنجم الإسرائيلى فى قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلاهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم، فأشربت كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وهو بعينه ما تقوله

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٢، ٤٤٣ بشىء من التصرف فى النقل.

(٢) يقصد ابن خلدون بابن العربى هنا أبا بكر محيى الدين بن عربى الأندلسى الصوفى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ولا يقصد به القاضى أبا بكر بن العربى الفقيه المالكى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ.

الرافضة فى توارث الأئمة عندهم ، فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأى من الرافضة ، ودانوا به ، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب ، كما قاله الشيعة فى النقباء ، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم وقفوه على على رضى الله عنه ، وهو من هذا المعنى أيضاً ، وإلا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة فى لبوس ولا حال »[1] .

ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء المتصوفة الذين أسرفوا فى كشف الحجاب ، والكلام فى مدارك ما وراء الحس ، وقالوا بوحدة الوجود ، مثل ابن عربى ، هم الذين يقع عليهم عبء ما يعرف بالشطحات فى التفسير ، وستزيد هذا الأمر وضوحاً - إن شاء الله تعالى - عما قريب .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٥ بتصرف فى النقل .

موقف الصوفية من تفسير القرآن الكريم

الصوفية — بوجه عام — يقولون : إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، فالظاهر هو ما يفهم من النص بمقتضى العربية ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه ، وربما يستدلون على ذلك بما أخرجه الفريابى عن الحسن — مرسلا — عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » وقد شرح السيوطى ألفاظ هذا الحديث ، فقال : « أما الظهر والبطن ففى معناهما أوجه : أحدها — أنك إذا بحثت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها ، والثانى — أنه ما من آية إلا عمل بها قوم ، ولها قوم سيعملون بها ، كما قاله ابن مسعود فيما أخرجه ابن أبى حاتم ، والثالث — أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها ، والرابع — قال أبو عبيدة — وهو أشبهها بالصواب — إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الأخبار بهلاك الأولين ، إنما هو حديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحل بهم مثلما حل بهم ، وحكى ابن النقيب قولا خامساً : أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر ، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق ، ومعنى قوله : (ولكل حرف حد) أى منتهى فيما أراد الله من معناه ، وقيل : لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب ، ومعنى قوله : (ولكل حد مطلع) لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يتوصل

به إلى معرفته ويوقف على المراد منــه ، وقيل : كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع[1] عليه في الآخرة عند المجازاة »[2].

هذا — وقد بين حجة الاسلام الغزالي — وهو إمام من أئمة الصوفية — أن الظاهر لا بد من إحكامه أولا قبل التعرض للباطن فى تفسير القرآن الـكريم، وأن من يدعى معرفة الباطن قبل إحكام الظاهر كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب ، فقال — رحمه الله — : « فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى ، فالنقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ، والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ، ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسـير الظاهر أولا ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبـل إحكام الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحـكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صـدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغـة الترك ، فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم »[3].

وفي ضوء إيمان الصوفية بهذه النظرية التى تقول : (إن للقرآن ظاهرا وباطنا) فسروا لنا آيات القرآن الـكريم ، إلا أن لهم طرائق مختلفة فى هذا المجال ، فبعضهم جمع فى تفسيره بين ظاهر القرآن وباطنه ، مثل الإمام الآلوسي

---

(١) جاء في كتاب (البرهان) للزركشي هذه العبارة (لـكل ما يستحقه من الثواب والعقاب مطلع يطلع عليه فى الآخرة) وهذه العبارة أوضح من عبـارة السيوطي .

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٤ وانظر كذلك البرهان للزركشي جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٣) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٣٨٠

فى كتابه (روح المعانى) فانه يولى عنايته أولا للمعانى الظاهرة، ثم يتبع ذلك بذكر الباطن فيقول: (ومن البطون كذا) أو (من باب الإشارات كذا)، بيد أن تفسير الآلوسى أقرب إلى أهل الظاهر منه إلى أهل الباطن.

ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الباطني، مع تعرضه قليلا للتفسير الظاهر، وذلك كما فعل سهل التسترى في تفسيره، ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الباطنى، ولم يحم حول المعانى الظاهرة للقرآن الكريم، مثلما فعل أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه: (حقائق التفسير) ومحيي الدين بن عربى فى مواضع من الفتوحات المكية وفصوص الحكم، وفى التفسير المنسوب إليه(١).

غير أن ابن عربى في كتابه: (الفتوحات المكية) ينوه كثيراً بتفسير الصوفية للقرآن الكريم الذى يدور حول الباطن، ويطلق عليه اسم (الإشارات)، ويقول: إن أهل الله — وهم الصوفية فى نظره — قد تلقوا هذه الإشارات عن الله تعالى بطريق الإلهام الربانى، لا بطريق التعلم بالقلم، بينما علماء الرسوم — ويريد بهم العلماء الذين يعملون بالظاهر — قد تلقوا علومهم — بالطريقة التقليدية — من أفواه أمثالهم من البشر، وشتان بين من يتلقى علمه عن الحى الذى لا يموت وبين من يتلقى علمه عن الأموات، ثم يدعى ابن عربى أن الصوفية هم أحق الناس بتفسير القرآن وشرحه، وأن إشاراتهم — فى هذا المجال — منزلة من عند الله تعالى، فكما أن الكتاب منزل من الله على الأنبياء فان شرح هذا الكتاب قد أنزله الله تعالى على الأولياء، وبين حين وآخر يحمل ابن عربى حملة شعواء على علماء الظاهر الذين أسماهم علماء الرسوم أى الأشكال والمظاهر، ويصفهم بأنهم للأولياء كالفراعنة للرسل عليهم السلام، فيقول ابن عربى — فى هذا الصدد —: « وماخلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته،

(١) الحق أن التفسير الذى ينسبونه للشيخ محيى الدين بن عربى إنما هو لعبد الرازق القاشانى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذى منحهم أسراره فى خلقه ، وفهمهم معانى كتابه وإشارات خطابه ، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام ، ولما كان الأمر فى الوجود الواقع على ماسبق به العلم القديم — كما ذكرناه — عدل أصحابنا — يعنى الصوفية — إلى الإشارات ، كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة ، فكلامهم — رضى الله عنهم — فى شرح كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات ، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة ، ورد ذلك كله إلى نفوسهم مع تقريرهم إياه فى العموم ، وفيما نزل فيه ، كما يعلمه أهل اللسان الذى نزل ذلك الكتاب بلسانهم ، فعم به سبحانه عندهم الوجهين ، كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »[1] يعنى الآيات المنزلة فى الآفاق وفى أنفسهم ، فكل آية منزلة لها وجهان : وجه يرونه فى نفوسهم ، ووجه آخر فيما خرج عنهم فيسمون مايرونه فى نفوسهم إشارة ، ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ، ولا يقولون فى ذلك إنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم فى ذلك بالكفر عليه ، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق ، واقتدوا فى ذلك بسنن الهدى ، فإن الله كان قادراً على تنصيص ما تأويله أهل الله فى كتابه ، ومع ذلك فما فعل ، بل أدرج فى تلك الكلمات الالهية التى نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده ، حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم ، ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا فى نفوسهم إذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمونها فيما بينهم ، فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك ، ويعلو بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية ، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها ، وكلهم فى مجرى واحد ، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم فى ذلك ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشىء مما يغمض عن إدراكهم ، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء ،

---

(١) سورة فصلت : ٥٣

وأن العلم لايحصل إلا بالتعلم المعتاد فى العرف ، وصدقوا فان أصحابنا ماحصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم ، وهو الإعلام الرحمانى الربانى ، قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم »[1] فانه القائل : « أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا »[2] وقال تعالى : « خلق الإنسان . علمه البيان »[3] فهو سبحانه معلم الانسان ، فلا نشك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام ، والله يقول — فى حق الرسول — : « وعلمك مالم تكن تعلم »[4] وقال — فى حق عيسى — : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »[5] وقال — فى حق خضر صاحب موسى عليه السلام — : « وعلمناه من لدنا علما »[6] فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا : إن العلم لايكون إلا بالتعلم ، وأخطئوا في اعتقادهم أن الله لايعلم من ليس بنبي ولا رسول ، يقول الله : « يؤتى الحكمة من يشاء »[7] وهى العلم ، وجاء بمن وهى نكرة ، ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة ، وآثروا جانب الخلق على جانب الحق ، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ، ورأوا فى زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة — حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادا تولى الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزله فى كتبه ،

(١) سورة العلق : ١ — ٥

(٢) سورة النحل : ٧٨

(٣) سورة الرحمن : ٣ ، ٤

(٤) سورة النساء : ١١٣

(٥) سورة آل عمران : ٤٨

(٦) سورة الكهف : ٦٥

(٧) سورة البقرة : ٢٦٩

وعلى ألسنة رسله ، وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لا يشك مؤمن فى كمال علمه ولا غير مؤمن » .

ثم قال ابن عربى : « وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به ، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله مالم يقل لهـا ، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ، ولا تعملت فيه ، بل جاءت به من عند الله ، كما قال تعالى : « تنزيل من حكيم حميد»[1] وقال فيه إنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[2] وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله ، لا من فكر الإنسان ورويته — وعلماء الرسوم يعلمون ذلك — فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم . فيكون شرحه أيضاً تنزيلا من عند الله على قلوب أهل الله كما كان الأصل ، وكذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى هذا الباب : (ماهو إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده فى هذا القرآن) فجعل ذلك عطاء من الله ، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله ، فأهل الله أولى به من غيرهم » .

إلى أن قال — رحمه الله — : « فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسوم ، فان الله يقول فيهم : « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»[3] فأقامهم مقام الرسوم فى التفقه فى الدين والإنذار ، وهو الذى يدعو إلى الله على بصيرة ، كما يدعو رسول الله ﷺ على بصيرة ، لا على غلبة ظن ، كما يحكم عالم الرسوم ، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله على بصيرة منه في دعائه الى الله ، وهو على بينة من ربه ، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة ظنه ، ثم إن من شأن عالم الرسوم فى الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول : (فهمنى ربى) ، ويرى أنه أفضل منه ، وأنه

(١ ، ٢) سورة فصلت : ٤٢

(٣) سورة التوبة : ١٢٢

صاحب العلم، إذ يقول من هو من أهل الله : (إن الله ألقى فى سرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية) أو يقول : (رأيت رسول الله ﷺ فى واقعتى فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده) قال أبو زيد البسطامى رضي الله عنه — فى هذا المقام وصحته — يخاطب علماء الرسوم : أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت، يقول أمثالنا: حدثنى قلبى عن ربى، وأنتم تقولون : حدثنى فلان، وأين هو ؟ قالوا : مات، عن فلان، وأين هو ؟ قالوا : مات »[1] .

ومن هذا يتبين لنا أن معظم أولئك الذين تعرضوا للتفسير من الصوفية كانوا يركزون على الباطن أكثر من تركيزهم على الظاهر، ويسمون المعانى الباطنية بالحقائق والجواهر والأسرار والإشارات، وعلى الرغم من ذلك نجد كثيراً من أئمة الصوفية يقولون :إن الصوفية يعترفون بالظاهر إلى جانب اعترافهم بالباطن فى تفسير القرآن الكريم، فهذا هو الإمام الغزالي — بعد أن ذكر لنا مثالا للتفسير الصوفي - يقول : « لا تظنن من هذا الأنموذج وطريقة ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظواهر، واعتقادا فى إبطالها حتى أقول مثلا : لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله : (اخلع نعليك)[2] حاشى لله فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما، فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية . فالذى يجرد الظاهر حشوى، والذى يجرد الباطن باطنى، والذى يجمع بينهما كامل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع)[3] وربما

(١) الفتوحات المكية جـ ١ ص ٢٧٩، ٢٨٠ ط دار الكتب العربية الكبرى .

(٢) سورة طه : ١٢ .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه — انظر المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج مافى الاحياء من الأخبار جـ ١ ص ١٣٦ .

نقل هذا عن علي موقوفاً عليه ، بل أقول : موسى فهم من الأمر بخلع النعلين : اطرح الكونين ، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع نعليه . وباطنا بخلع العالمين ، فهذا هو الاعتبار أي العبور من شيء إلى غيره ، ومن ظاهر إلى سر »[1]

كما يؤكد الشيخ ابن عطاء الله السكندري — وهو علم من أعلام التصوف البارزين — هذه الحقيقة ، وهي أن الصوفية يؤمنون بالظاهر إلى جانب إيمانهم بالباطن في تفسير القرآن الكريم ، فيقول : « اعلم أن تفسير هذه الطائفة — يعني الصوفية — لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث : (لكل آية ظهر وبطن) فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ، فليس ذلك إحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للاية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله تعالي ما أفهمهم »[2] .

وأيضاً نجد الامام الآلوسى يقرر هذا المعنى في تفسيره فيقول : « وأما كلام السادة الصوفية في القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، وذلك من كمال الايمان ومحض العرفان ، لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا ،

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٣٢ من سلسلة (القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالي) ط مكتبة الجندى .

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٥ .

وإنما المراد الباطن فقط ، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة ، توصلوا به إلى نفي الشريعة بالكلية ، وحاشى سادتنا من ذلك ، كيف وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر ، وقالوا : لابد منه أولا ، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل إحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب »[1] .

ومن هذه النصوص التي أوردناها ونقلناها عن أئمة الصوفية يتبين لنا أن الصوفية — بوجه عام — يعترفون بالظاهر والباطن معاً في تفسير القرآن الكريم ، وكأنهم — بهذا الاعتراف — يريدون أن ينفوا عن أنفسهم تهمة شنيعة وجهت إلى الشيعة الباطنية من قبل علماء أهل السنة وغيرهم ، ألا وهي تهمة إنكار الظاهر ، والاعتماد على الباطن دون غيره في تأويل النصوص الدينية من آيات وأحاديث ، ولكن من حق البحث علينا أن نتسائل : هل الباطن الذي قال به الصوفية في تفسير القرآن الكريم يتمشى مع الظاهر دائما ؟ أو بتعبير أدق : هل الباطن الذي ورد عن الصوفية في التفسير قد توافر فيه الشرطان اللذان ذكرهما الشاطبي في (الموافقات) وهما موافقة اللغة وشهادة الشرع[2] حتى يمكننا قبوله أم لا ؟ .

الواقع أننا لا نستطيع أن نقول : إن الصوفية جميعاً قد التزموا بهذين الشرطين تماما في تفسير القرآن الكريم . بل نجد لبعضهم من أمثال ابن عربي تأويلات بعيدة عن روح القرآن الكريم ، وفاقدة للشرطين معاً ، لا سيما تلك التأويلات التي تمت بصلة إلى نظرية وحدة الوجود ، فمثل هذه

(١) تفسير الآلوسي جـ ١ ص ٧ .

(٢) راجع ما كتبناه عن رأى الشاطبي في التأويل الباطني ، وذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

التأويلات يمكن أن يطلق عليها شطحات ، ونحن نميل إلى رفضها وعدم قبولها ، لأنها عندنا لا تختلف كثيراً عن تأويلات الباطنية التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق .

وهذه الشطحات التى تتضمن أقوالا موهمة ،ولا يقرها شرع ولا عقل قد توقف فى قبولها من قبل الإمام الغزالي - وهو علم من أعلام الصوفية - بل حرمها وكشف عن خطرها وضررها ، وأفتى بقتل من نطق بها ، فقال - رحمه الله - : « وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية ، أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب . والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : (أنا الحق) وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : (سبحانى سبحانى) وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الاعمال ، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره، وعظم فى العوام ضرره، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى - رحمه الله - فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه كما لو سمع وهو يقول : (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى)(١) فانه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

---

(١) سورة طه : ١٤ .

الصنف الثانى من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معان ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه »[1] .

أما العلامة ابن خلدون فيرى أن هذه الشطحات إن كانت قد صدرت عمن صدرت عنه — وهو غائب عن الحس — فانه يعذر ، أما إذا كانت قد صدرت عن صاحبها — وهو حاضر الحس — فانه يؤاخذ ، كما بين ابن خلدون أن سلف الصوفية وأعلامهم المتقدمين لم يخوضوا فى شيء من هذا القبيل ، بل كانوا يحذرون من الخوض فيه ، وكانوا يلتزمون بأحكام الشرع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « وأما الألفاظ الموهمة التى يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف فى شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب[2] والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله ، وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها ، كما وقع لأبى يزيد البسطامى

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) يعنى غير مؤاخذ بما يصدر عنه وغير مكلف ، وهو تعبير فقهى مشهور ، يقال مثلا : الصبى والمجنون غير مخاطبين أى غير مكلفين .

وأمثاله، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك، إذ لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر الصوفية بقتل الحلاج، لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم، وسلف المتصوفة من أهل الرسالة[1] أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في إدراك الانسان وعلم الله أوسع، وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك، فلم ينطقوا بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك، ومنعوا من يكشف لهم الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها»[2].

ويرى الشيخ ابن الصلاح أن كلام الصوفية في القرآن - بوجه عام - لا يعد من قبيل التفسير، بل هو من باب ذكر النظير بالنظير، فيقول: «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي - المفسر - أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير) فان كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر - قال ابن الصلاح - وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة، فانه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن فان النظير يذكر بالنظير. ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»[3].

---

(١) يعني بها الرسالة القشيرية للامام القشيري.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٨، ٤٤٩

(٣) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٤ والبرهان جـ ٢ ص ١٧٠، ١٧١

أما أستاذنا الجليل الدكتور محمد حسين الذهبي فيرى أن تفسير الصوفية للقرآن قسمان : القسم الأول تفسير صوفي نظري ، والقسم الآخر تفسير صوفي إشاري ، وكلاهما لا يخلو من شطحات ، وهذه الشطحات لا يمكن لنا قبولها، إذ أنها لا تتفق مع الشرع ولا مع العقل في شيء ، وفي هذا الصدد يقول الدكتور الذهبي ـ رحمه الله ـ : « وإذا ما ذهبنا نستعرض ماللقوم من تفسير صوفي نظري ، وما لهم من تفسير إشاري فيضي وجدنا في هذا أو ذاك اتجاهاً منحرفاً عن النهج القويم لتفسير القرآن الكريم ، فالتفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن ـ في الغالب ـ عن هدفه الذي يرمي إليه ، يقصد القرآن هدفاً معيناً بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفي هدفاً معيناً بأبحاثه ونظرياته ، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد ، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمي إليه ، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن ، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله ، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته ونظرياته التصوفية ولم يقدم للقرآن شيئاً إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله »(١) .

ثم قال ـ بعد ذلك ـ : « وليس من شك في أن التفسير الذي أقامه ابن عربي على نظرية (وحدة الوجود) لا يقبل بحال من الأحوال، لأنه هدم للدين من أساسه ، كما أن التفسير الذي أقامه على نظريات الفلاسفة في الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذي جاء القرآن من أجله ، هذه كلمة الحق أقولها في الاتجاه النظري للتفسير الصوفي ، أما الاتجاه الاشاري أو الفيضي فللقوم فيه جولات وشطحات ، وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه في التفسير وجدنا مستندهم الأول والأهم ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن ، وعلماء الرسوم ـ في زعم القوم ـ يفهمون الظاهر فقط ، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه

---

(١) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم ص ٧١

وتعلق بالله قلبه ، حتي أصبح يدرك بعين اليقين ما لا يدركه أهل الرسوم بعلم اليقين ، ولا نريد أن نناقش القوم في صحة ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن ، ولكن نناقشهم في معنى الظهر والبطن ، فهل الظهر ما يظهر من معنى النص للقرآني بادى الرأى ، والبطن ألغاز وأحاج ومعميات لا يفهمها إلا هم ؟ لا فالقرآن فوق هذا ، لأن الله تعالى يقول في شأنه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[1] ويقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »[2] ويقول : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات »[3] .

والذى أدين الله عليه أن ظاهر القرآن ـ وهو المنزل بلسان عربى مبين ـ هو المفهوم العربى المجرد ، وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب »[4] .

وبعـــد :

فانه ليس من الصواب في شيء أن نقبل ونسلم بكل ما قاله الصوفية في تفسير القرآن الكريم من إشارات ، ولو كانت من قبيل الشطحات ، بدعوى أنهم تلقوا هذه الاشارات عن الله تعالى بطريق الالهام كما يقول ابن عربى في كلمته سالفة الذكر ، كما أنه ليس من الانصاف في شيء أن نلغى عقولنا ومسلمات ديننا لكى نسلم للصوفية بكل ما صدر عنهم من شطحات لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع ، ولست أرى ما يراه الامام الآلوسي ـ في هذا الصدد ـ

---

(١) سورة القمر في أكثر من آية

(٢) سورة المائدة : ١٥

(٣) سورة البقرة : ٩٩

(٤) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم ص ٧٣ ، ٧٤

من أن الانصاف كل الانصاف هو التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز للدائرة المحمدية ماهم عليه ، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل - لكثرة العوائق والعلائق - إليه[1] .

ولكني أرى ما يراه الامام الشاطبي في كتابه : (الموافقات) من أن التأويل الباطني للقرآن لابد في قبوله من شرطين : هما موافقة اللغة وشهادة الشرع ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ١ ص ٨

أمثلة من شطحات الصوفية فى التفسير

الشطحات — كما سبق أن ذكرنا — هى الألفاظ الموهمة والدعاوى العريضة التى صدرت عن بعض شيوخ الصوفية ، والشطح كلمة مولدة تفيد معنى التباعد والاسترسال ، يقال : شطح فى السير أو فى القول إذا تباعد واسترسل[1] ، فكأن هؤلاء الذين نطقوا بهذه الألفاظ الموهمة قد تباعدوا عما يفهمه الناس ويألفونه ، وتوغلوا — في هذا المضمار — توغلا كبيراً ، مثلما نقل عن (الحلاج) أنه قال : « أنا الحق » ، ومثلما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : « سبحانى سبحانى ، ماأعظم شانى » .

وقد ذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق تعليلا آخر لكلمة الشطح فقال — رحمه الله — : « والشطح لفظة مأخوذة من الحركة،يقال : شطح إذا تحرك، وهو عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته، وهاج لشدة غليانه وغلبته، فهى حركة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم ، فعبروا عن وجدهم بعبارات يستغربها سامعها ، ومن ذلك ماروى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١هـ (٨٧٥ م) أنه قال : رفعنى مرة ، فأقامنى بين يديه ، وقال لى : ياأبا يزيد إن خلق يحبون أن يروك ، فقلت : زينى بوحدانيتك ، وألبسنى ربانيتك ، وارفعنى إلى أحديتك حتى إذا رآنى خلقك قالوا : رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك »[2].

---

(١) انظر المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ١ ص ٤٨٢

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٣٤٥ ، وفى الأصل : (ألبسنى أنانيتك) ، والصواب ماذكرناه كما جاء فى تلبيس إبليس ص ٣٤٥

هذا وإليك أمثلة من شطحات الصوفية فى التفسير ، ونكتفى — فى هذا المجال — بما ذكره محيي الدين ابن عربى فى بعض كتبه ، وبما ذكره ابن الجوزى عن تفاسير الصوفية للقرآن ، والله المستعان :

المثال الأول :

فى ضوء نظرية (وحدة الوجود) التي يقررها ابن عربى فى كتبه يفسر لنا قول الله تعالى : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »[1] فيقول : « فقد علمت حكمة نشأة آدم أعنى صورته الظاهرة، وقد علمت نشأة روح آدم ، أعنى صورته الباطنة ، فهو الحق الخلق ، وقد علمت نشأة رتبته ، وهى المجموع الذى به استحق الخلافة ، فآدم هو النفس الواحدة التى خلق منها هذا النوع الانسانى ، وهو قوله تعالى :« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » فقوله :(اتقوا ربكم) اجعلوا ماظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا مابطن منكم — وهو ربكم - وقاية لكم ، فان الأمر ذم وحمد ، فكونوا وقايته فى الذم ، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين »[2].

وقد علق الدكتور أبو العلا عفيفى على هذه الفقرة من كلام ابن عربى فقال : « أما قوله : (اجعلوا ماظهر منكم وقاية لربكم) إلخ فيمكن فهمه بمعنيين : الأول — اجعلوا الصورة التى هى مجلى الاسم الإلهى وقاية لذلك الاسم ، فانه لاوجود للاسم ولا معنى له إلا بها، ولاتنسوا أن الاسم الالهى أيضاً وقاية للصورة ، إذ لاوجود لها إلا به ، والمعنى الثانى — وهو أدنى إلى المراد ، وأكثر تمشياً مع بقية الفقرة —أن يقال : إن الصورة الخارجية

(١) سورة النساء : ١

(٢) فصوص الحكم للشيخ محيى الدين بن عربى بتحقيق وتعليق الدكتور أبو العلا عفيفى ج ١ ص ٥٦ ط بيروت

للانسان هي جسمه ، وهو المشار إليه بقوله : (ماظهر) ، والصورة الباطنية له هي ذلك الجزء الالهي فيه المقوم لصورته ، وهو المعبر عنه بالرب ، فالمراد أن ينسب الانسان كل الصفات البدنية إلى البدن وحده ، وبذلك يقي ربه ، لأن صفات البدن ذميمة . وقصر الوصف بها على البدن وقاية للرب : وأن ينسب كل الصفات الروحية إلي الصورة الباطنية ، وهي الرب . وفي هذا وقاية للبدن ، لأن صفات الرب صفات حمد أو مدح ، ومن له صفات الحمد يحتمي به من له صفات الذم ، ومعنى العبارة كلها : إن كان ذم فانسبوه لأنفسكم واحموا الله منه ، وإن كان مدح فانسبوه إلى الله الذي هو فيكم واحتموا به ، ولذلك قال المؤلف : فكونوا وقايته في الذم ، واجعلوه وقايتكم في الحمد »[1] .

ونحن لنا على كلام ابن عربي هنا ملاحظتان :

الملاحظة الأولى : أن ابن عربي وصف آدم عليه السلام بأنه الحق والخلق معاً ، أي أنه الله وما خلق الله في وقت واحد ، وزعم أن آدم هو الحق باعتبار صورته الباطنة ، أو وجود الروح الإلهية فيه ، كما زعم أنه الخلق باعتبار صورته الظاهرة أي بدنه ، وهذا الذي قاله ابن عربي خلاف ماأجمع عليه المسلمون من أن آدم — بروحه وبدنه — مخلوق للحق تبارك وتعالى ، وفرق بين الخالق والمخلوق ، فالخالق « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »[2] .

والملاحظة الثانية : أن ابن عربي فسر قوله تعالى : (اتقوا ربكم) تفسيراً غريباً مخالفاً لما قاله المفسرون ، فان ظاهر الآية يفيد أن الناس مأمورون بتقوى الله تعالي ، والتقوى هي جعل النفس في وقاية مما يخاف ، فمعني (اتقوا ربكم) خافوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ولكن ابن عربي يتجاهل هذا كله ، ويخلط بين الأمر والمأمور خلطا

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩

(٢) سورة الشورى : ١١

عظيما ،حيث يجعل الناس ـ باعتبار (وحدة الوجود) التى يؤمن بها ـ لهم صورة ظاهرة ، وصورة باطنة ، أما الصورة الظاهرة منهم ـ وهى أبدانهم ـ فهم مطالبون بأن يجعلوها وقاية لربهم ، فينزهوا الرب عن صفات الأبدان الذميمة، وأما الصورة الباطنة منهم ـ وهى الرب ـ فهم مطالبون بأن يجعلوها وقاية لهم، لأن صفات الرب صفات حمد ، ومنزله صفات الحمد يحتمى به منزله صفات الذم.

ألا ترى معى أن هذا التفسير الباطنى الذى ذكره ابن عربى هنا لا يتمشى قط مع عقيدة التوحيد التى نادى بها القرآن حيث يقول « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »[1] ، كما أنه لا يتفق ومدلولات الألفاظ فى كلام العرب من حيث الحقيقة أو المجاز ، ومن ثم فانه يحق لنا أن نرفض هذا التفسير شكلا وموضوعا ، وأن نعتبره من جملة الدخيل الذى تسلل إلى رحاب القرآن الكريم .

يضاف إلى ذلك أن مذهب ابن عربى القائل بوحدة الوجود مذهب دخيل على الإسلام وليس من الإسلام فى شىء لأن عقيدة الإسلام تقوم أساساً على التفرقة بين الخالق والمخلوق ، فتفسير ابن عربى للاية فى ضوء هذا المذهب الباطل لا يمكن لنا قبوله بحال ، كيف وقد جعل عقيدته أصلا والقرآن تابعا لها على عكس ما يجب أن يكون ، يقول الدكتور أبو العلا عفيفى ـ فى شرح مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود ـ : « أما مذهبه فوحدة الوجود وليس من الإسلام فى قليل أو كثير ، لأنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة ، ويعد التعدد والكثرة أمرا قضت به الحواس الظاهرة ، والعقل الإنسانى القاصر عن أن يدرك الوحدة الذاتية للأشياء ، أو يدرك المجموع كمجموع ، ويتلخص مذهبه فى عبارته القصيرة الواردة فى الفتوحات (جـ ٢ ص ٦٠٤) وهى : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » فانه يقرر فيها وجود الأشياء ووجود خالق لها ، كما يقرر الوحدة الذاتية ، أو العينية للاثنين : الخالق والمخلوق ،

---

(١) سورة البقرة : ١٦٣

وفي البيتين الآتيين الواردين في الفصوص (ص ١٣٩) إشارة إلى هذا المعنى، وهما:

يا خالق الأشياء فى نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك فانك الضيق الواسع

فلا فرق في نظره بين الواحد والكثير، أو الحق والخلق إلا بالاعتبار والنظر العقلى، أما العارف فيدرك بطريق الذوق وحدتها، وعلى ذلك فمذهبه واحدى لا ثنوى، إلا إذا اعتبرنا الثنوية فى الصفات لا غير؛ لأنه كثيرا ما يصف الحقيقة الوجودية الواحدة بالمتقابلات، أمثال الحق والخلق؛ والباطن والظاهر، والأول والآخر، والمشبه والمنزه وأمثال ذلك، أما الحقيقة فى ذاتها فواحدة لا تقبل كثرة ما »[1].

المثال الثانى:

وقد ترتب على إيمان ابن عربى بوحدة الوجود أنه قال كذلك بوحدة الأديان، وأنه لا فرق بين الأديان السماوية وغيرها، فالكل صحيح، واستدل على ذلك بقوله تعالى: « فأينما تولوا فثم وجه الله »[2]، وقد صاغ لنا عقيدته تلك في بيت شعرى فقال:

عقد الخلائق فى الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

كما شرح لنا تلك العقيدة فقال: « فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن فى نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فان الله تعالي أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فانه يقول: «فأينما تولوا فثم وجه الله» وماذكر أينما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٣٤٦

(٢) سورة البقرة: ١١٥

من أين ... فقد بان لك عن الله تعالى أنه فى أينية كل وجهة ، وما ثم إلا الاعتقادات ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضي عنه [1] » .

وفى ضوء إيمان ابن عربى بوحدة الأديان يرى الوثنيين على حق فى عبادة الأصنام لأنهم لا يعبدون فى الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى ، فيقول ـ عن قوم نوح عليه السلام ـ : « فقالوا ـ فى مكرهم ـ : « لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » [2] فانهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فان للحق فى كل معبود وجها يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، فى المحمديين : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » [3] أى حكم ، فالعالم يعرف من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفرق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود ، فالأدنى من تخيل فيه الألوهية ، فلولا هذا التخيل ما عبد الحجر ولا غيره ، ولهذا قال : « قل سموهم » [4] فلو سموهم لسموهم حجارة وشجراً وكوكباً ، ولو قيل لهم : من عبدتم لقالوا : إلها ، ما كانوا يقولون : الله ولا الإله ، والأعلى ما تخيل ، بل قال : هذا مجلى إلهى ينبغى تعظيمه فلا يقتصر ، فالأدنى صاحب التخيل يقول : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » [5] ، والأعلى العالم يقول : « إنما إلهكم إله واحد فله أسلموا » [6] حيث ظهر « وبشر المخبتين »

---

(١) فصوص الحكم جـ ١ ص ١١٣ ، ١١٤ بتصرف فى النقل .

(٢) سورة نوح : ٢٣

(٣) سورة الاسراء : ٢٣

(٤) سورة الرعد : ٣٣

(٥) سورة الزمر : ٣

(٦) صواب الآية هكذا : « فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » سورة الحج : ٣٤

الذين خبت نار طبيعتهم ، فقالوا : إلهاً ولم يقولوا طبيعة »[1] .

ويعلق الدكتور أبو العلا عفيفي على كلام ابن عربي هذا فيقول : « يرى ابن عربي أن كل من يدعو إلى الله على هذا الوجه - أي على سبيل التنزيه كما دعا نوح قومه - يمكر بمن يدعوه ويخدعه ، وذلك أن المدعو مهما كانت عقيدته ، ومهما كان معبوده لا يعبد في الحقيقة إلا الله ، لأنه لا يعبد إلا مجلى من مجالى الحق فى الوجود ، فدعوته إلى الله مكر به ، لأنها تحمله على الاعتقاد بأنه يعبد شيئاً آخر سوى الله ، ومافى الوجود سواه ، أما مكر قوم نوح فظاهر من عبارتهم : « لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » لأنهم إن تركوا هذه الآلهة فقد جهلوا من الحق على قدر ما تركوا ، ذلك لأن للحق فى كل معبود وجها لا يعبد المعبود الا من أجله ، وهنا يفهم ابن عربي نصا آخر من القرآن على أنه تقرير لوحدة الوجود من حيث صلتها بعبادة الله ، فيقول : فى مذهب المحمديين : « وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أى حكم ، بمعنى قدر أزلا أنكم لن تعبدوا إلا إياه ، لا بمعنى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، يدل على ذلك قوله فى العبارة التالية : فالعالم يعلم من عبد . وفى أى صورة ظهر حتى عبد »[2] .

ونحن نرى أن ابن عربي هنا قد جانبه الصواب ، وخانه التوفيق من وجوه :

الوجه الأول : أن وحدة الأديان التى نادى بها ابن عربي ، ومفادها أن معتقدات الناس كلها صحيحة لا يمكن لنا قبولها ، لأن من حقنا أن نتساءل : إذا كانت هذه المعتقدات كلها صحيحة فلماذا إذن حارب الرسل عليهم السلام عبادة الأصنام ، وسفهوا أحلام من عبدوها من دون الله ؟ أليس ذلك دليلا

---

(١) فصوص الحكم ج ١ ص ٧٢
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠

على عدم صحتها ، و بطلان عبادتها ؟ إن شئت برهانا على ذلك فاقرأ معنى قول الله تعالى — حكاية عن إبراهيم عليه السلام — : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين[1] » .

ثم إن من حقنا كذلك أن نتساءل : إذا كانت هذه المعتقدات كلها صحيحة فلماذا إذن حطم إبراهيم عليه السلام الاصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ؟ أليس ذلك دليلا على أنها معبودات باطلة ، وأن الصحيح فقط هو عبادة الله رب العالمين ، إن شئت فاقرأ معى ما حكاه الله تعالى كذلك عن إبراهيم عليه السلام حيث يقول : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون .

قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون »[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ٧٤ — ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء : ٥١ — ٥٨ ومعنى قوله (فجعلهم جذاذا) أى قطعاً مكسورة ، من الجذ وهو كسر الشيء وتفتيته .

وأيضاً لنا أن نتساءل : إذا كانت عقيدة التثليث صحيحة كما يستفاد من كلام ابن عربي فلماذا إذن حكم الله بفساد هذه العقيدة وكفر معتنقيها ، ثم لماذا قرر عقيدة التوحيد بدلا عنها ودعا الناس إليها ، فقال ـ عز من قائل ـ: « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(1) .

إذا لا يمكننا بحال أن نقبل هذه الفكرة الخاطئة التي تقول : إن الأديان كلها صحيحة ، وأنه لا فرق بين الأديان السماوية وغيرها فلو كان الأمر كذلك ما كان هناك حاجة لإرسال الرسل ولا لإنزال الكتب ، فهل بعث الله سبحانه وتعالى الرسل بين حين وآخر إلا لكي يصححوا للناس ما كانوا عليه من انحرافات في العقائد والأخلاق ؟ وهل أنزل الله تعالى الكتب إلا لهداية الناس إلى عقيدة التوحيد بعد أن تخبطوا طويلا في دياجير الضلال ، والعقائد الوثنية ؟

الوجه الثاني : أن ابن عربي قد استدل بقوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » على أن جميع الأديان صحيحة ، والحق أنه لا دلالة في الآية على ما يقول ، فهذه الآية إنما نزلت في شأن القبلة أو الدعاء ، وفي ذلك يقول ابن عطية : « واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية ، فقال قتادة : أباح الله لنبيه عليه السلام ـ بهذه الآية ـ أن يصلي المسلمون حيث شاءوا ، فاختار النبي عليه السلام بيت المقدس حينئذ ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة ، وقال مجاهد والضحاك : معناها إشارة إلى الكعبة أي حيث كنتم

---

(1) سورة المائدة : 72 ، 73 .

من المشرق والمغرب فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة التي هي وجه الله الذي وجهكم إليه .

قال الفقيه أبو محمد : وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس ، وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا : ما اهتدى إلا بنا ، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود : « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها »[1] فنزلت : « ولله المشرق والمغرب » الآية ، وقال ابن عمر : نزلت هذه الآية في صلاة النافلة ، حيث توجهت بالإنسان دابته ، وقال النخعي : الآية عامة ، أينما تولوا في متصرفاتكم ومساعيكم فثم وجه الله أي موضع رضاه وثوابه ، وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة ، وقال عبد الله بن عامر ابن ربيعة : نزلت فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ ، وورد في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة قال : « كنا مع النبي ﷺ في سفر ، في ليلة مظلمة ، فتحرى قوم القبلة ، وأعلموا علامات ، فلما أصبحوا رأوا أنهم قد أخطئوها ، فعرفوا رسول الله ﷺ بذلك فنزلت هذه الآية ، وذكر قوم هذا الحديث على أن النبي ﷺ لم يكن مع القوم في السفر ، وذلك خطأ ، وقال أيضاً قتادة : نزلت هذه الآية في (النجاشي) ، وذلك أنه لما مات دعا النبي ﷺ المسلمين إلى الصلاة عليه ، فقال قوم : كيف نصلي على من لم يصل إلى القبلة قط ، فنزلت هذه الآية ، أي أن (النجاشي) كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه الى القبلة ، وقال ابن جبير : نزلت الآية في الدعاء ، لما نزلت : « ادعوني أستجب لكم »[2] قال المسلمون : الى أين ندعو ؟ فنزلت : « فأينما تولوا فثم وجه الله »[3]

فأنت ترى ـ بعد أن ذكرنا لك أقوال المفسرين في معنى الآية ـ أن الذي

---

(١) سورة البقرة : ١٤٢

(٢) سورة غافر : ٦٠

(٣) انظر منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم للمؤلف ص ٣٠٥، ٣٠٦

استنبطه ابن عربى من الآية ، وهو أن كل المعتقدات صحيحة لا علاقة له بالآية لامن قريب ولا من بعيد ، بل يعتبر ذلك من جملة الشطحات التى اشتهر بها ابن عربى غفر الله له .

والوجه الثالث : أن ابن عربى فسر (قضى) فى قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » بمعنى حكم ، وعلى ذلك فمعنى الآية عنده أن الله تعالى حكم وقدر فى الأزل أن لا يعبد الناس سواه ، وحكم الله لا بد من نفاذه وإذن فالمعبودات التى عرفها البشر على مر العصور كلها صحيحة ، بمقتضى هذا الحكم الأزلى ، وما عبدوها إلا لأنهم رأوها صورا للاله الحق فى نظرهم ، فعبادتها – فى الحقيقة – ماهى إلا عبادة لله تعالى .

وقد حاول الإمام الآلوسى أن يدافع عن ابن عربى وأمثاله ممن يفسرون الآية على هذا الوجه ، فقال – رحمه الله – : « ومن باب الإشارة فى الآيات (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) قالت الوجودية من الصوفية : إنه تعالى سبق قضاءه أن لا يعبد سواه ، فكل عابد إنما يعبد الله سبحانه من حيث يدرى ، ومن حيث لا يدرى ، فانه جل شأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، والأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود ولا تشمه أبداً ، ومما ينسبونه إلى زين العابدين رضى الله عنه ، ويزعمون أنه مشير إلى مدعاهم قوله :

إنى لأكتم من علمي جواهره	كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن	إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا
فرب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى	يرون أقبح ما يأتونه حسنا

قالوا : إنه – رضى الله تعالى عنه – عنى بهذ الجوهر الذى لو باح به لقيل له : أنت ممن يعبد الوثن علم الوحدة ، إذ منه يعلم أن الوثن وكذا غيره مظهر له جل وعلا ، وليس فى الدار غيره ديار ، وقد مر عن قرب ما نقل عن

الحلاج ، ومثله كثير للشيخ الأكبر[1] — قدس سره — ولغيره عربا وعجما ، وهو عفا الله تعالى عنه قد فتح بابا فى هذا المطلب لا يسد الى أن يأتى أمر الله عز وجل ، وكأنه أوصى إليه بأن يبوح وينثر هاتيك الجواهر، بين الأصاغر والأكابر ، كما أوصى إلى الحسنين بأن يكتما من ذلك ما علما. وفى بعض كتبه — قدس سره — ما هو صريح فى أنه مأمور ، فان صح ذلك فهو معذور ، وأنا لا أرى عذرا لمن يقفوا أثره فى المقال ، مع مباينته له فى الحال ، فان هذا المطلب أجل من أن يحصل لغريق الشهوات ، وأسير المألوفات ، ورهين العادات »[2] .

بيد أنني أرى أن كلام ابن عربى فى نفسير الآية مخالف لما أجمع عليه المفسرون من أن قضى بمعنى أمر ، كما أنه يؤدى — لا محالة — إلى التفكك فى أوصال الآية الكريمة ، فلو كان قضى بمعنى حكم ما ساغ عطف قوله تعالى · (وبالوالدين إحسانا) على ما قبله ، إذ لا يسع عاقل أن يقول : إن كل أحد محسن إلى والديه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى ، ومن أجل ذلك وجدنا الإمام الألوسي — على الرغم من اعتذاره عن ابن عربى ودفاعه عنه — لا يرى أن يفتح هذا الباب على مصراعيه لكل أحد ، فان هذا الأمر شائك ، ويؤدى — لا محالة — إلى الضلال .

المثال الثالث :

وفى الآيات التي تعرضت لقصة موسى مع فرعون فى سورة الشعراء نجد ابن عربى يسير فى تفسيرها على أساس مذهبه فى وحدة الوجود ، ويعطى لفرعون الحق فى ادعاء الألوهية ، لأنه جزء من العالم الذى قال عنه إنه صورة لله تعالى ، فيقول — معلقا على قول الله تعالى — حكاية عن موسى عليه

---

(١) يعنى بالشيخ الأكبر هنا محيى الدين بن عربى ، فانه مشهور عند الصوفية بهذا اللقب .

(٢) تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

السلام — : « قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين »[1] وقوله سبحانه : « قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون »[2] يقول : « فالجواب الأول جواب الموقنين ، وهم أهل الكشف والوجود ، فقال له : « إن كنتم موقنين » أى أهل كشف ووجود ، فقد علمتم بما تيقنتموه فى شهودكم ووجودكم ، فان لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم فى الجواب الثانى إن كنتم أهل عقل وتقييد وحصر ، ثم الحق فيما تعطيه أدلة عقولكم ، فظهر موسى بالوجهين ليعلم فرعون فضله وصدقه ، وعلم موسى أن فرعون علم ذلك أو يعلم ذلك لكونه سأل عن الماهية[3] ، فعلم أنه ليس سؤاله على اصطلاح القدماء فى السؤال بما، فلذلك أجاب ، ولو علم منه غير ذلك لخطأه فى السؤال ، فلما جعل موسى المسئول عنه عين العالم ،خاطبه فرعون بهذا اللسان الكشفى والقوم لا يشعرون ، فقال له : « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »[4] ، والسين فى السجن من حروف الزوائد أى لأسترنك ، فانك أجبت بما أيدتنى به ، (فاستحققت)[5] أن أقول لك مثل هذا القول »[6] .

وقد وضح الدكتور أبو العلا عفيفى كلام ابن عربى — فى هذا الصدد فقال : « لعل هذا الجزء من الفص أصعب ما فيه ، لا من حيث موضوعه ، فانه لم يخرج عن دائرة وحدة الوجود التي يشرحها على لسان موسى تارة ، ولسان فرعون تارة أخرى ، بل من حيث الطريقة الملتوية التي يلجأ إليها فى

---

(١) سورة الشعراء : ٢٤ .

(٢) سورة الشعراء : ٢٨ .

(٣) أى حيث جاء سؤاله بما التى يسأل بها عن الماهية فقال : « وما رب العالمين » .

(٤) سورة الشعراء : ٢٩ .

(٥) هذه الكلمة ليست فى الأصل وقد زدناها لكى يستقيم الكلام .

(٦) فصوص الحكم ج ١ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

تفسير الآيات القرآنية والتعليق عليها ، ليخرج من كل ذلك بفكرته كاملة غير منقوصة فى وحدة الوجود ، مع المحافظة فى الشكل على مسرح القصة القرآنية وما دار فيها من حديث بين موسى وفرعون ، فسر قول موسى لفرعون إن الله هو « رب السموات والأرض وما بينهما » تفسيراً يتفق مع فكرته فى وحدة الوجود كما أسلفنا ، لأنه أولها بمعنى أن الله هو الظاهر فى صورة ما فى السموات والأرض وما بينهما أى بصورة العالم ، ومهد بذلك لتفسير دعوى فرعون الألوهية ، ولكل ماجرى بينهما بعد ذلك من حديث ، قال فرعون لموسي : « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » ، فيسلم ابن عربى بادعاء فرعون الألوهية ، و كيف لايكون فرعون إلها ، وهو جزء من العالم الذى قال : إنه صورة الله ؟ إن فرعون وغيره من المحدثات صور الحق فى الوجود الظاهرى ، ولصورة فرعون مرتبة أعلى من مرتبة صورة موسي فى ذلك المقام الخاص الذى كانا يتحدثان فيه ، لأنه اعطى الحكم والملك والتصرف فيمن دونه من الناس الذين قلت مراتبهم عن مرتبته، فالعين واحدة فى الجميع ، ولكنها متكاثرة بالمراتب ، ومرتبة فرعون أعلى من غيرها ، ولذلك قال : « أنا ربكم الأعلى » (١) ، قال فرعون لموسى : « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » وظاهر هذه الآية يعطى الوعيد ، ولكن ابن عربى يقلب معنى الآية رأسا على عقب ، فيقول : إن السين فى مسجونين من حروف الزوائد , ومعنى : « لأجعلنك من المسجونين » لأسترنك ، لأن لسان الباطن فى نظره يقتضى أن يقرأ القرآن هكذا ، فبعد حذف السين لا يبقى إلا مادة الجيم والنون التى معناها الستر والأخفاء ، وبهذا انقلب وعيد فرعون لموسى وعداً ، وتهديده له بالسجن حماية ووقاية ، جزاء لموسى على ما مهد به لفرعون من ادعاء الألوهية »(٢) .

---

(١) سورة النازعات : ٢٤ .

(٢) فصوص الحكم جـ ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

ونحن نرى أن كلام ابن عربى هنا خطير من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أننا لو سلمنا جدلا أن فرعون كان على حق فى ادعاء الألوهية كما يقول ابن عربى فلماذا إذن أرسل الله موسى عليه السلام إليه ؟ هل أرسله إليه لكى يظهر أحقيته فى ادعاء الألوهية ، ويؤيده فى ذلك على ملأ من الناس ؟ أم أن الله أرسله إليه لأنه طغي واستكبر وعاث فى الأرض فساداً ، ولما لم يكف عن هذا كله عاقبه الله تعالى فى الدنيا بالإغراق ، وسيعاقبه فى الآخرة بالإحراق ، استمع معي إلى قول الله تعالى : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكي . وأهديك إلي ربك فتخشي . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعي . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلي . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى »[1] .

والوجه الثانى : أن ابن عربى زعم أن موسي عليه السلام جعل المسئول عنه ـ وهو الله تعالى ـ عين العالم حين أجاب فرعون بقوله : « رب السموات والأرض وما بينهما » وبقوله : « رب المشرق والمغرب وما بينهما » ، والحق أن موسي عليه السلام ما فعل ذلك ، فمن المسلم به بداهة أن المضاف غير المضاف إليه ، وأن الشيء لا يضاف إلى نفسه ، وكل الذى يستفاد من جواب موسى عليه السلام هو أن الله تعالي رب العالم كله ، علويه وسفليه ، ورب كل شيء فى هذا الوجود ورب المشارق والمغارب ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، فأين هذا المعنى مما يريد ابن عربى أن يحمل القرآن عليه قسرا من أن الله عين العالم انطلاقا من مذهبه فى وحدة الوجود ؟

والوجه الثالث : أنه فسر المسجون بالمستور فى قوله تعالى ـ حكاية عن فرعون ـ « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » وبذلك قلب

---

(١) سورة النازعات من آية ١٥ إلى آية ٢٦

معنى الآية من الوعيد إلى الوعد ، وهذا المعنى الذى ذكره ابن عربى لا يستقيم عربية ، حيث لم يقل أحد من أئمة اللغة أن السين زائدة فى مادة (سجن) ، وحتى لو سلمنا جدلاً أن المعنى كما يقول فكيف ساغ لنبى الله موسى عليه السلام أن يسكت على هذا الكلام الذى صدر عن فرعون ؟ أليس هذا تسليما من موسى لفرعون بادعاء الألوهية وهو النبى الذى جاء لكى يدعوهم إلى عبادة الله رب العالمين ، اللهم إن هذا لإفك مبين .

المثال الرابع :

ثم نجد ابن عربى يذكر لنا تفسيرا غريباً للايات التى تتعلق بالكافرين فى صدر سورة البقرة ، فيقول ـ معلقاً على قول الله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »[1] ـ يقول ـ : « إيجاز البيان فيه : يا محمد ، إن الذين كفروا ستروا محبتهم فى عنهم ، فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك ، فانهم لا يعقلون غيرى ، وأنت تنذرهم بخلقى ، وهم ما عقلوه ولا شاهدوه ، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم ، فلم أجعل فيها متسعاً لغيرى ، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاما فى العالم إلا منى ، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى ، فلا يبصرون سواى ، ولهم عذاب عظيم عندى ، أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك ، وأحجبهم عنى ، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربا ، أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ما جئت به إليه منى فى وجهك ، وتسمع فى ما يضيق له صدرك ، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائك ، فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم ، رضائى عنهم فلا أسخط عليهم أبدا »[2] .

فانظر إليه كيف قلب أوصاف الكافرين من صفات ذم إلى صفات مدح

---

(١) سورة البقرة : ٦ ، ٧

(٢) الفتوحات المكية جـ ٦ ص ١١٥

وكيف حمل هذه الأوصاف على أولياء الله بدلا من أعدائه ، فهل هذا الذى صنعه ابن عربى هو مراد الله من كلامه ؟

إننا إذا ما استعرضنا الآيات القرآنية هنا نجد أن الله تعالى حدثنا حديثاً مستفيضاً عن المؤمنين فى مستهل سورة البقرة ، فقال — عز من قائل — : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[1].

وبعد ذلك جاء الحديث عن الكافرين فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ثم جاء الحديث عن المنافقين فى قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »[2] الآيات ، وهؤلاء هم طوائف الناس المختلفة إزاء هداية القرآن الكريم ، إما مؤمنون أو كافرون أو منافقون ، فأين هذا مما قاله ابن عربى هنا ؟

ولعل أغرب ما فى كلام ابن عربى هنا أنه فسر قوله تعالى : « ولهم عذاب عظيم » بأن الله تعالى يحجب هؤلاء عنه بعد أن شاهدوه ، فذلك عذاب نفسى لهم ، واعتبر ابن عربى هذا شبيهاً بارجاع الرسول ﷺ إلى أعدائه بعد أن شاهد الحق فى إسرائه .

إننا نرى أن الذى ذكره ابن عربى فى هذا المقام مرفوض جملة وتفصيلا ، ولا يمكن لمسلم قبوله فى تفسير القرآن الكريم ، لأنه ضرب من ضروب الشطح ، ولون من ألوان التخبط فى الفهم ، ونعوذ بالله من ذلك .

---

(١) سورة البقرة : ٢ — ٥ .

(٢) سورة البقرة : ٨

المثال الخامس :

ذكر الإمام ابن الجوزى فى كتابه : (تلبيس إبليس) عن الصوفية أقوالا خاطئة فى تفسير القرآن الكريم ، وهذه الأقوال يجمعها قدر مشترك بينها وهو مخالفة العربية ، ومن أجل ذلك اعتبرنا هذه الأقوال بمثابة مثال واحد ، وإن كانت متعددة ومتنوعة ومنقولة عن كثيرين من شيوخ الصوفية .

فمثلا روى ابن الجوزى عن الجنيد أنه سأله سائل عن قوله عز وجل : (سنقرئك فلا تنسى)[1] فقال الجنيد : لاتنس العمل به ، وسأله عن قوله تعالى : (ودرسوا مافيه)[2] فقال له الجنيد : تركوا العمل به ، فقال السائل : لايفضض الله فاك .

ثم رد ابن الجوزى هذين القولين فى تفسير الآيتين لمخالفتهما العربية من حيث اللغة والنحو فقال : « أما قوله : (لاتنس العمل به) فتفسير لاوجه له والغلط فيه ظاهر ، لأنه فسره على أنه نهى ، وليس كذلك ، إنما هو خبر لانهى ، وتقديره : فما تنسى ، إذ لو كان نهياً كان مجزوماً ، فتفسيره على خلاف إجماع العلماء ، وكذلك قوله : (ودرسوا مافيه) إنما هو من الدرس الذى هو التلاوة من قوله عز وجل : (وبما كنتم تدرسون)[3] لا من دروس الشىء الذى هو إهلاكه »[4] .

كذلك نقل ابن الجوزى عن أبى عبد الرحمن السلمى بعض الأقوال الشاذة فى التفسير وقام بالرد عليها ، فقال : « وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى

---

(١) سورة الأعلى : ٦

(٢) سورة الأعراف : ١٦٩ وهى قوله تعالى : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه » .

(٣) سورة آل عمران : ٧٩ وهى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

(٤) تلبيس إبليس ص ٣٣١

فى تفسير القرآن من كلامهم الذى أكثره هذيان لايحل نحو مجلدين ، سماها (حقائق التفسير) ، فقال — فى فاتحة الكتاب عنهم — إنهم قالوا : إنما سميت فاتحة لأنها أوائل مافاتحناك به من خطابنا ، فان تأدبت بذلك وإلا حرمت لطائف مابعد ، قال المصنف رحمه الله : وهذا قبيح ، لأنه لايختلف المفسرون أن الفاتحة ليست من أول مانزل ، وقال — فى قــــول الإنسان (آمين) — : أى قاصدين نحوك ، قال المصنف رحمه الله : وهذا قبيح لأنه ليس من (أم) لأنه لو كان كذلك لكانت الميم مشددة ، وقال فى قوله : « ومن دخله كان آمنا »[1] أى من هواجس نفسه ووساوس الشيطان ، وهذا غاية فى القبح لأن لفظ الآية لفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، وتقديرها : من دخل الحرم فأمنوه ، وهؤلاء قد فسروها على الخبر ، ثم لايصح لهم ، لانه كم من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس ولا الوساوس »[2] .

ثم قال ابن الجوزى — بعد أن ذكر جملة من هذه الأقوال الفاسدة فى التفسير — : « وجميع الكتاب — يعنى كتاب السلمى — من هذا الجنس ، ولقد هممت أن أثبت منه ههنا كثيراً فرأيت أن الزمان يضيع فى كتابة شىء بين الكفر والخطأ والهذيان ، وهو من جنس ماحكينا عن الباطنيــة ، فمن أراد أن يعرف جنس مافى الكتاب فهذا أنموذجه ، ومن أراد الزيادة فلينظر فى ذلك الكتاب »[3].

وأيضاً نقل ابن الجوزى عن أبى حامد الغزالى قــــولا له فى تفسير آية قرآنية ثم أتبعه بالرد عليه ، فقال : « وقد ذكر أبو حامد الطوسي — فى كتاب (ذم المال) فى قوله عز وجل : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام »[4]

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧
(٢) تلبيس إبليس ص ٣٣١ ، ٣٣٢ بتصرف فى النقل .
(٣) المصدر السابق ص ٣٣٢ ، ٣٣٣
(٤) سورة إبراهيم : ٣٥

قال : إنما هى الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعبد الآلهة والأصنام ، وإنما عنى بعبادته حبه والاعتزاز به ، قال المصنف رحمه الله : وهذا شىء لم يقله أحد من المفسرين ، وقد قال شعيب : « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا »(١) ، ومعلوم أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع لأجل العصمة ، لا أنه مستحيل(٢) ، ثم قد ذكر مع نفسه من يتصور فى حقه الإشراك والكفر ، فجاز أن يدخل نفسه معهم، فقال : « واجنبنى وبنى » ومعلوم أن العرب أولاده ، وقد عبد أكثرهم الأصنام »(٣) .

وبعد :

فهذه أمثلة من شطحات الصوفية فى التفسير ، ذكرناها وكشفنا عن وجوه فسادها وبطلانها ، وبذلك نكون قد وفينا هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث ، وننتقل الآن إلى الموضوع الأخير من هذا الكتاب ، ألا وهو تحريفات البهائية والقاديانية فى التفسير .

والله ولى التوفيق .

---

(١) سورة الأعراف : ٨٩

(٢) يريد أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع شرعاً لامستحيل عقــــلا .

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٣

الفصل الخامس

تحريفات البهائية والقاديانية فى التفسير

أولا — البهائية :

البهائية نحلة شاذة منحرفة ، ظهرت فى القرن التاسع عشر الميلادى فى بلاد فارس (إيران) ، ومؤسس هذه النحلة رجل يدعي الميرزا حسين علي ، الملقب ببهاء الله ، وهذه النحلة ما هى إلا امتداد لنحلة أخري سبقتها ، تعرف باسم (البابية) ، نسبة إلى رجل يسمى الميرزا علي محمد الشيرازى ، الملقب بالباب ، ولما تم إعدامه فى سنة ١٨٥٠ م تولى الزعامة من بعده خليفته الميرزا حسين علي الملقب ببهاء الله ، وعرف أتباعه باسم البهائيين .

أما الزعيم الأول — وهو الميرزا علي محمد الشيرازى (الباب) — فقد ولد بمدينة (شيراز) فى سنة ١٨١٩ م أو ١٨٢٠ م ، ولما شب اشتغل بالتجارة إلى أن بلغ سن العشرين ، وكان مع ذلك مشتغلا بالعبادة ، وتسخير الروحانيات ومراقبة الكواكب وعمل الطلاسم ، وكان يقضى النهار فوق سطح المنزل تحت أشعة الشمس المحرقة ، منهمكا فى الأذكار وعمل الطلاسم ، فاعتراه بسبب ذلك ذهول ، وحل به ضعف مستمر ، فأشخصه خاله إلى (كربلاء) بالعراق خوفاً عليه ، ليستشفى بزيارة مشاهد آل البيت هناك ، وتغيير المناخ ، وهناك بدأ تحوله عما كان عليه ، فقد التقى هناك برجل اسمه : (كاظم الرشتى الجيلانى) وهذا الرجل كان قد جمع بين التصوف والفلسفة والشريعة ومزج بينها ، وجمع بين اعتقادات الشيعة الإمامية والاسماعيلية والأصول الفلسفية على نحو جديد ، وعقائد هؤلاء لا يقرها الإسلام ، وكان مما سمعه منه أن (المهدى) المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحانى ، فلازم الباب هذا الرجل

وتأثر بكلامه ، وبنى عليه أحلامه وخيالاته ثم انقطع عنه فجأة ، ولازم الرياضة بمسجد الامام (على) مدة ، ثم ظهر فجأة بمشروع جديد ، هو حاصل تلك الشطحات السطوحية ، والشطحات الروحانية الطاسمية ، والكلام الفارغ الكاذب الذى سمعه من هذا الرشتي ، والرياضة فى مسجد الإمام (على) رضي الله عنه ، إذ قال : إنه (باب المهدى المنتظر) ، وأنه المراد من الأثر المشهور : (أنا مدينة العلم وعلى بابها) ، وادعى أنه أرسلته العناية الإلهية لإصلاح ما أفسده علماء الدين الإسلامى بسوء فهمهم ، واستطاع بذكائه وسعة حيلته وطلاوة عبارته ورخامة صوته أن يستغل بعض الجهلة وأنصاف المثقفين وأن يجعلهم يصدقونه فى دعواه أنه (باب المهدى) ، ولما لم يجد وقتئذ معارضة جادة من العلماء مضى إلى المرحلة الثانية من أحلامه ، وهى النبوة ، فزعم أن الوصول إلى الله لا يكون إلا من باب النبوة ، وأنه نبي ، وهو الباب الموصل إلى الله تعالى ، فآمن به من آمنوا من قبل بأنه باب المهدى ، واعتبروا هذه رتبة جديدة منحها الله له ، وأطلقوا عليه (الباب) ، بسبب هذا الزعم الذى قاله لهم ، وسموا أنفسهم البابيين (١) .

ولما استفحل أمر هذا الرجل ، وأخذت دعوته المسمومة تعمل عملها فى نفوس الجهلة من الناس فى إيران تنبه العلماء لخطورة هذه الدعوة ، فقاموا فى وجهها ، وعقد بعض الولاة بينهم وبين الميرزا على هذا مجالس للمناظرة ، فرأى بعضهم ما فى أقواله من غواية وخروج عن الدين الإسلامى ، فأفتى بكفره ، ورأى آخرون ما فيها من لغو وسخافة ، فنسبه إلى الجنون واختلال الفكر ، وأخيراً اعتقل هذا الرجل فى (شيراز) ثم فى (أصفهان) ، وساقته الحكومة الإيرانية فى عهد الملك ناصر الدين شاه إلى (تبريز) ، وثارت بين أشياعه و بين المسلمين فتن وحروب سفكت فيها الدماء ، وكانت عاقبته أن أعدمته الحكومة

---

(١) البابية والبهائية فى الميزان للأستاذ الشيخ مصطفى الطير الحديدى ص ٧ — ٩ ط مجمع البحوث الإسلامية .

في (تبريز) صلباً عام ١٢٦٥ هـ (١٨٥٠)[١] كما سبق أن ذكرنا .

ولما أعدم الباب اختلف أتباعه في شأن من ينوب عنه ، وكان الميرزا حسين على الذى لقبوه بعد ببهاء الله من شيعة الباب ودعاة نحلته، فقبض عليه وسجن في (طهران) بضعة أشهر ، ثم أبعد إلى (بغداد) سنة ١٢٦٩ هـ ، وهنا التحق طوائف من البابيين ببغداد ، واجتمعوا حول الميرزا حسين الملقب بهاء الله ثم حدث بينهم وبين الشيعة ببغداد شقاق كاد يفضي إلى قتال ، فقررت الحكومة العثمانية وقتئذ إبعاد البابيين من العراق ، فنقلتهم إلى (الأستانة) ونفتهم الى (أدرنة) ، وعلى أثر ذلك قام المسمى (بهاء الله) يدعو إلى نفسه ، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب ، وأشار اليه بلفظ (من يظهره الله) ، وقبل دعوته أكثر البابيين ، وتسموا حينئذ بالبهائيين ، وممن رفض دعوته أخوه الميرزا يحيى الملقب (صبح أزل) ، ثم إن الحكومة العثمانية أمرت بابعاد الفريقين من (أدرنة) ، فنفت الميرزا يحيى وأتباعه الى (قبرص) ، ونفت البهاء وأتباعه إلى (عكا) بفلسطين ، وبقى البهاء بعكا إلى أن هلك عام ١٢٠٩[٢] .

ولما هلك البهاء قام ابنه (عباس) بالأمر من بعده ، ولقب نفسه بعبد البهاء وقدسه البهائيون كما فعلوا مع أبيه من قبل ، ثم غير وبدل فى نحلة (البهائية) ، ومحا وأثبت ماشاء ، وادعى أن ذلك وحى من الله ، نخرج عليه أخوه (محمد على) الملقب بغصن الله الأكبر ، ورماه بالكفر ، وانضم إليه عدد كبير من معتنقى البهائية وانقسم البهائيون فرقتين الناقضين وهم أتباع محمد على ، والمارقين وهم أتباع عباس ، وهكذا سمت كل فرقة منهما أختها . واستطاع عباس - بدهائه ومكره - أن يكتسح أخاه وفرقته ، فكان يدخل نفسه فى كل ملة ،

---

(١) القديانية والبهائية للأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين ص ٦ ط كلية أصول الدين .

(٢) المصدر السابق ص ٦ ، ٧

فهو مسلم مع المسلمين ، ويهودى مع اليهود ، ونصرانى مع النصارى ، وبوذى مع البوذيين ، وبرهمى مع البرهميين ، ويوهم أهل كل دين بأنه معهم ، وأنه يريد الإصلاح ، وإزالة الضغائن بين أهل الأديان ، ونسي هذا الطاغوت أن الحق لايتعدد ، وقد سلك أتباعه هذا المسلك الخادع فى الشرق ، وإنك لترى الكثيرين منهم يصلون الصلوات الخمس مع المسلمين جماعة ، ويظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »[1] ولكنك تراهم فى (أمريكا) يجهرون بعقيدتهم، ولايخشون حساباً ولا نقداً ، ولقد قدم عباس إلى الاسكندرية ، بحجة الاستشفاء ، وخدع الكثيرين هناك ، فزعم أنه مصلح إسلامى، وكان قدومه فى أوائل هذا القرن[2].

ولما قدم هذا الضال إلى مصر كان شيخ الأزهر فىذلك الوقت هو الشيخ (سليم البشرى) فسئل عن هذا الرجل واستفتى فيه ، ونشرت فتواه فى أحد أعداد جريدة (مصر الفتاة) التى كان تصدر فى القاهرة آنذاك ، وإليك نص الحوار الذى دار بين أحد محررى هذه الجريدة وبين شيخ الأزهر : قال المحرر للشيخ الأكبر فى مجمع من العلماء : مارأى فضيلتكم فى هذا الزعيم الدينى الجديد ؟ قال الشيخ الأكبر — وقد أظهر شيئاً من الدهشة — : إن هذا الرجل الضال كان معتقلا فى (عكا) ، فما الذى جاء به إلى هذه البلاد ؟ قال المحرر : إنه قدجاء ياامولانا ، وهو الآن نزيل ثغر (الاسكندرية) ، فما رأى فضيلتكم فيه ؟ قال الشيخ الأكبر : إنه كافر[3] .

كما روى الشيخ محمد رشيد رضا أن الإمام محمد عبده حين سئل عن

---

(١) سورة البقرة : ٩

(٢) البابية والبهائية فى الميزان ص ٣٨ ، ٣٩

(٣) المصدر السابق ص ٤١ ، ٤٢

(عباس البهائى) أجاب إنه ضال مضل[1] ، وأيضاً سئلت لجنة الفتوى بالأزهر عن حكم هذه النحلة فى الإسلام ، فكان جوابها كما يلى : « الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، أما بعد فقد أطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وعلى البيان المرفق الذى شرح به المستفتى مبادىء المذهب البهائى ، ونفيد أن مذهب البهائية باطل ، ليس من الإسلام فى شىء ، بل إنه ليس من اليهودية ولا النصرانية . ومن يعتنقه من المسلمين يكون مرتداً خارجاً عن دين الإسلام ، فان هذا المذهب قد اشتمل على عقائد تخالف الإسلام ، ويأباها كل الإباء ، منها إدعاء النبوة لبعض زعماء هذا المذهب ، وادعاء التكفير لمن يخالفه ، وادعاء أن هذا المذهب ناسخ لجميع الأديان إلى غير ذلك . ومن المقرر شرعاً أن المرتد لا يرث المسلم ولا غيره ، وعلى هذا فمعتنق مذهب البهائية لا يرث غيره مطلقاً وبهذا علم الجواب عن السؤال والله أعلم »[2] .

أما عن مذهب البهائية فيرى المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين أنه — فى أصله — مستمد من الباطنية ، وأن أصحاب هذا المذهب قد أخذوا عقائدهم وآراءهم من ضلالات الشيعة الباطنية فيقول — رحمه الله — : « ليست البهائية بالنحلة المحدثة التي لم يتقدم لها فى النحل المارقة من الإسلام ما يشابهها ، أو تتخذه أصلا تبنى عليه مزاعمها ، وإنما هى وليدة من ولائد الباطنية ، تغذت من ديانات وآراء فلسفية ، ونزعات سياسية ، ثم اخترعت لنفسها صوراً من الباطل ، وخرجت تزعم أنها وحى سماوى ، ولولا أن فى الناس طوائف يتعلقون بذيل كل ناعق لما وجدت داعياً ولا مجيباً لندائها » ثم قال : « عرفنا تاريخ الباطنية ، وقرأنا بعض كتب البابية والبهائية فوجدنا روح الباطنية حلت فى جسم ميرزا على وميرزا حسين على ، فخرجت باسم البابية والبهائية ، الباطنية يستدلون بكلام النبوة ، ويحرفون كلم القرآن والحديث عن

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ ، ٤٣

مواضعه، كما فسروا حج البيت العتيق بزيارة شيوخهم، والبابية أو البهائية يستدلون بالقرآن والحديث، ويذهبون فى تأويلها إلى مثل هـذا الهذيان نفسه، وللميرزا على المسمى بالباب تفسير لسورة (يوسف) مشي فيه على هذا النمط، فقال في قوله تعالى: «إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين»[1]: المراد من يوسف حسين ابن علي، والمراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمد وبالنجوم أئمة الحق، فهم الذين يبكون على يوسف سجدا» — إلى أن قال — : «ولم يكن تأويل البهائية وأسلافهم الباطنية لنصوص الشريعة على هذا الوجه الناقض لأصولها بشيء ابتدعوه من أنفسهم ابتداعاً، وإنما هو صنع عملوا فيه على شاكلة طائفة من فلاسفة اليهود من قبل، فانا نقرأ فى ترجمة (فيلون) الفيلسوف اليهودى المولود مابين عشرين وثلاثين قبل ميلاد المسيح أنه ألف كتاباً فى تأويل التوراة، ذاهباً إلى أن كثيرا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزى كان موجوداً معروفاً عند أدباء اليهود بالاسكندرية قبل زمن (فيلون)، ويذكرون أمثلة تأويلهم أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياضة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة عن العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين»[2] إلخ.

وأخيراً يلخص لنا الشيخ محمد الخضر حسين هذا المذهب تلخيصاً دقيقاً، ويبين جذوره المختلفة، فيقول — رحمه الله — : «وملخص القول فى البابية والبهائية أنه مذهب مصنوع من ديانات ونحل وآراء فلسفية، قال صاحب كتاب (مفتاح باب الأبواب) يصف البابيين: (لهم دين خاص مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية، والزرادشتة، واليهودية والمسيحية والإسلامية، ومن

---

(١) سورة يوسف: ٤

(٢) القديانية والبهائية ص ٧ وما بعدها.

واعتقادات الصوفية والباطنية) ، ومازالت البهائية مذهباً قائما على أطلال الباطنية ، يحمل فى سريرته القصد إلى هدم الإسلام بمعول التأويل ، ودعوى الرسالة والوحى بشريعة ناسخة لأحكامه ، حتى جاء (عباس) عبد البهاء إلى هذا المذهب المصنوع ، وأراد أن يكسوه ثوبا جديدا ، فخلطه بآراء التقطها مما يتحدث به بعض الناس على أنها من مقتضيات المدنية ، أو مما كشفه العلم حديثاً نحو التساوى بين الرجال والنساء فى التعليم ، ونزع السلاح واتفاق الأمم على لغة واحدة تدرس فى العالم كله ، وتأسيس محكمة عمومية تحل مشاكل الأمم ، أن الإنسان تدرج بالارتقاء من أبسط الأنواع ، حتى وصل شكله الحالى (نظرية دورين) ، ولهج — بعد هذا — بكلمة نشر السلام العام ، ونبذ العصبيات الدينية ، وقد تخيل (عباس) أنه بادخال مثل هذه الآراء فى مذهب البهائية يستدرج المولعين بالجديد من النابتة الحديثة ، ولهذا الطمع تزونه يقول : تحتوى تعاليم بهاء الله على جميع آمال ورغائب فرق العالم ، سواء كانت دينية أو سياسية أو أخلاقية ، وسواء كانت من الفرق القديمة أو الحديثة ، فالجميع يجدون فيها دينا عموميا فى غاية الموافقة للعصر الحاضر ، وأعظم سياسة للعالم الإنسانى »[1] .

هذا — ومن المعروف أن ثمة صلة وثيقة بين البهائية من جهة وبين الصهيونية من جهة أخرى ، لا سيما إذا علمنا أن معقل البهائين إنما هو فى (عكا) ، وهى مدينة فلسطينية تقع تحت الاحتلال الإسرائيلى منذ سنة ١٩٤٨ م ، ومن ثم فان أصحاب هذه النحلة الضالة يعملون دائما بوحى من الصهيونية العالمية ، ويدورون فى فلك مخططاتها ، وهذا هو أحد زعمائهم — وهو عباس البهائى — يقول فى تزلفه إلى اليهود : إنه يريد أن يوحد بين المسلمين والنصارى واليهود ، ويجمعهم على أصول نواميس موسى عليه السلام الذى يؤمنون به جميعاً[2] .

والبهائيون — فى موالاتهم لأعداء الله — إنما يسيرون على سنن أسلافهم

---

(١) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧

من الباطنية الذين كانوا دائما حربا على الإسلام وأهله ، وكان لهم دور بارز في إسقاط الخلافة العباسية على يد المغول ، يقول الشيخ محمد الخضر حسين – معلقاً على كلام عباس البهائي سالف الذكر – : « ولا أحسب عبد البهاء عباساً يقصد من هذا الحديث إلا التزلف لليهود ، والتظاهر بموالاتهم، ليجعلهم من أشياعه ، وإلا فكيف يقع في خاطر من عرف القرآن أن يعمل على صرف الناس عن شريعة الإسلام ويرجع بهم إلى شفا حفرة من النار بعد أن أنقذهم الله منها ، يذكر الشيخ ابن تيمية أن الباطنية هم دائماً مع كل عدو للمسلمين ، وقال : (إن التتار ما دخلوا بلاد الاسلام ، وقتلوا خليفة (بغداد) وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم) وكذا نجد في البابية تحيزا إلى أعداء المسلمين ، وانظروا إلى عباس عبد البهاء كيف يتحيز إلى اليهود ويبشر بأن فلسطين ستصير وطنا لهم ، فقال : (سيجتمع بنو إسرائيل في الأرض المقدسة ، وتكون أمة اليهود التي تفرقت في الشرق والغرب، والجنوب والشمال مجتمعة) وقال : (تأتي طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة، ويزدادون تدريجياً الى أن تصير جميعاً وطنا لهم) فالبهائية شأنهم شأن الباطنية في بغض الاسلام وموالاة خصومه ، ولنا الأمل الوثيق في أن العرب وسائر المسلمين من ورائهم سيقفون في وجه الاستعمار الصهيوني ، والدعاية البهائية التي تظاهرها وتساندها ، حتى تبقى (فلسطين) وطنا عربيا إسلاميا ، على الرغم من عبد البهاء والبهائيين »(١) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ ، ١٨ .

أمثلة من تحريفات البهائية فى التفسير

وعلى الرغم من أن البهائيين — كما ذكرنا — لاصلة لهم بالإسلام ، وأنهم قوم ضالون نجدهم كثيراً مايتمسحون بالإسلام ، لكى يوهموا السذج من الناس بأنهم لايزالون مسلمين ، وقد ورد عن بعض هؤلاء تفسير لبعض آيات القرآن الكريم ، وتفسيرهم هذا ماهو إلا تحريف للكلم عن مواضعه ، وإلحاد فى آيات الله تعالى ، شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم من الباطنية ، وإليك أمثلة من تحريفاتهم فى مجال التفسير لترى مقدار هذيانهم وتلاعبهم بالنصوص القرآنية :

المثال الأول :

فى تفسير قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم ساجدين »[1] يقول الميرزا على محمد الملقب بالباب : « وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول ، وثمرة البتول ، حسين بن على بن أبى طالب مشهوداً إذ قال حسين لأبيه يوماً : إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجاداً ، وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة ، وبالقمر محمداً ، وبالنجوم أئمة الحق فى أم الكتاب معروفا ، فهم الذين يبكون على يوسف باذن الله سجداً وقياماً »[2].

فانظر إلى أى مدى بلغ هذا الرجل فى الهذيان ، وكيف حمل ألفاظ القرآن

---

(١) سورة يوسف : ٤

(٢) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ نقلا عن كتاب : (مفتاح باب الأبواب) .

ما لا تحتمل من المعاني ، وكيف نقلنا من قصة يوسف عليه السلام إلى قصة الحسين بن علي رضي الله عنه، إنه يقول : إن المراد بيوسف الحسين ، وبالشمس والقمر فاطمة ومحمد ﷺ ، وبالكواكب الأئمة من آل البيت ، وهؤلاء جميعاً يبكون على الحسين سجداً وقياما ، وإننا نتساءل : ماعلاقة هذا كله بقصة يوسف عليه السلام ، والرؤيا التي رآها في المنام في مقتبل عمره ؟ أليس هذا قريباً من منزع أولئك الذين قالوا إن المراد من البقرة عائشة في قول الله تعالى : «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين »(١).

واستمع معي إلى ابن كثير يحدثنا عن التأويل الصحيح للآية ، فيقول — رحمه الله — : « وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته — يعني يوسف — وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه ، روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل : ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه « وخروا له سجدا ، وقال ياأبت : هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً »(٢) وكان السجود سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم عليه السلام، ثم حرم هذا في الإسلام ، وجعل السجود مختصاً برب العزة جل جلاله .

المثال الثاني :

وهذا هو أحد دعاة البهائية — ويدعى أبا الفضل الجرفادقاني الإيراني — يفسر لنا قول الله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم

---

(١) سورة البقرة : ٦٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨ ط الشعب ، والآية الأخيرة هي رقم ١٠٠ من سورة يوسف .

ميقات ربه أربعين ليلة »[1] فيقول : المراد بالليل – كما سمعته منى مراراً – هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة ، واليوم – على حسب ما نزل فى التوراة المقدسة – يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة ، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر ، وفر من فرعون وملئه إلى مدين كان ابن ثلاثين ، وأقام فى مدين عشر سنوات ، يشتغل فيها برعى أغنام (شعيب) النبى عليه السلام ، وكان فى طى هـذه المدة التى كانت كالليالى المظلمة ، والدياجى الـكالحة من ظلم الفراعنة ، وأوهام الصابئة ، مشتغلا بتهذيب نفسه ، وتطييب أعراقه ، وتنقية فؤاده ، والمناجاة مع ربه فى وحدته وانفراده ، فلما طاب خلقه ، وتم خلقه ، بعثه الله نبيا لهداية بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من ذلك الوبيل ، فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة ، أقام موسى عليه السلام فى أثنائها فى مصر ومدين ، ولا تنافى كلمة (واعدنا) هذا التفسير ، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته ، فان أمثال هذه الـكلمة كثيراً أطلقت على ما ألقى فى الروع ، وألهم فى القلب ، حتى على الحيوانات ، كما يدل عليه قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا » إلخ[2].

وهذا التأويل الشاذ الذى انفرد به هذا الرجل مخالف لما أجمع عليه المفسرون من وجوه .

الوجه الأول : أنه فسر الليالي بالأعوام ، واستند فى تفسيره هذا إلى نص جاء فى التوراة ، فهل يصح الرجوع فى تفسير كلمة عربية وردت فى القرآن الـكريم إلى أشياء جاءت في التوراة ، الله أعلم بصحتها ، ومن المعلوم بداهة أن تفسير الليالى بالأعوام أمر لم يعهد فى لغة العرب ، إذ الليالى شىء والأعوام شىء آخر .

---

(١) سورة الأعراف . ١٤٢

(٢) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ٢٦٩ نقلا عن كتاب : (رسائل أبى الفضائل) ، والآية الآخيرة هى رقم ٦٨ من سوره النحل .

والوجه الثانى : أنه قال إن المواعدة كانت بالإلهام لا بالوحى ، ونظير ذلك قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » وهذا الذى قاله — مخالف لما هو معروف من أن مواعدة الله للرسل وخطاباته معهم لا تكون إلا بطريق الوحى الكريم ، إذ أننا لا نلجأ إلى تأويل هذه الأشياء بالإلهام إلا إذا كانت هناك ضرورة تقتضى ذلك ، مثل أن تسند إلى إنسان لم نثبت نبوته أو حيوان ففى هذه الحالة نحملها على الإلهام دون غيره .

والوجه الثالث : أنه فسر الآية على أساس أنها تصور لنا أن موسى عليه السلام بعث على رأس الأربعين ، وأن ميقات ربه هو الوقت الذى بعثه الله فيه رسولاً إلى فرعون وملئه ، وهذا الذى قاله مخالف للسياق ، إذ أن الآيات السابقة تتحدث عن إغراق فرعون فى البحر ، ومجاوزة موسى ببنى إسرائيل البحر ، ونجاتهم من فرعون وعمله ، والآيات اللاحقة تشير إلى نزول التوراة على موسى عليه السلام ، فسياق الآيات يقضى بأن المواعدة هنا إنما كانت فى الفترة ما بين هذا وذاك ، فقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب ، فأمره الله أن يصوم ثلاثين ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام ، ولما أتم موسى عليه السلام الأربعين ليلة جاء لميقات ربه ، قال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين »(١) .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ — ١٤٥ .

المثال الثالث : وفي تفسير قول الله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله »(١) نجد أبا الفضل الإيرانى البهائى يقول : « ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية ، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الإستعارة والتشبيه والكناية» ثم قال بعد هذا : « قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء ، وبيان معانيها وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء » — وقال : « إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة ، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ ، فيظهر روح الله الموعود ، ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود » — وقال : « وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر ، يعنى يوم القيامة ، ومجىء مظهر أمر الله وإشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله » ثم قال : « ولذلك جاءت تفاسير العلماء من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان(٢) تافهة باردة عقيمة جامدة ، بل مضلة مبعدة ، محرفة مفسدة »(٣) .

ونحن إذا ما استعرضنا هذه الفقرات فاننا نجدها مشتملة على ما يأتى من الضلالات والافتراءات :

١ — أن هذا البهائى الضال يزعم أن تأويل القرآن لا يؤخذ إلا من روح الله الموعود ، وروح الله فى نظره هو البهاء وهو المراد بالنقطة ، وهو الذى يكشف للناس الحقائق المكنونة فى اليوم الموعود ، وهذا الزعم لا أساس له لأن تأويل القرآن مستمد فى المقام الأول من مشكاة النبوة . قال تعالى :

---

(١) سورة يونس : ٣٩ .
(٢) هو الكتاب الذى وضعه الميرزا على محمد الملقب بالباب .
(٣) القديانية والبهائية ص ١٠ .

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »[1] ثم يأتى بعد ذلك اجتهاد المجتهدين .

٢ — أنه كذلك يزعم أن البيان كتاب منزل من السماء ، وهذا هو اعتقاد البهائيين جميعاً ، فانهم لا يؤمنون بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين بل يقولون : إن الباب نبي ، والكتاب الذى أنزل عليه هو البيان ، ويزعمون أنه المشار اليه فى قوله تعالى « الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان »[2] فالإنسان هو الباب ، والبيان هو كتابه المنزل عليه من السماء « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »[3] .

٣ - أنه يزعم أن يوم القيامة هو اليوم الذى ظهر فيه البهاء ، ومعنى ذلك أنه ينكر أن يكون هناك يوم للبعث والحساب والجزاء ، وفيه يقوم الناس لرب العالمين ، وهذا الزعم الذى جاء على لسان هذا الضال وقلمه إنما هو مستمد من مذهب الباطنية ، الذين أولوا القيامة ، وقالوا : إنها رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان ، وهو السابع الناسخ للشرع ، المغير للأمر[4] .

٤ — وأخيراً نجده يتهم التفاسير كلها من لدن نزول التوراة إلى وقتنا هذا — ومن جملتها تفاسير القرآن الكريم — يتهمها بأنها تافهة وباردة ، وعقيمة وفاسدة ، والحق أن هذه الأوصاف التي وصف بها التفاسير ، لاتنطبق إلا على تفسير واحد ، هو تفسير هذا الضال وأمثاله من المنحرفين .

ويجدر بى هنا أن أكشف النقاب عن المعنى الصحيح للآية الكريمة التى

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) سورة الرحمن : ١ — ٤ .

(٣) سورة الكهف : ٥ .

(٤) فضائح الباطنية ص ٤٤ .

نحن الآن بصددها ، والتي ألقى عليها هذا البهائي ظلالا من الشبهات والظلمات ، فقد قال الإمام الآلوسي — رحمه الله — في تفسيرها : « والمراد أنهم — أي الكفار - سارعوا إلى تكذيب القرآن من غير أن يتدبروا مافيه ، ومعنى قوله « ولما يأتيهم تأويله » : ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوع برهانه ، فالتأويل نوع من التفسير ، والإتيان مجاز عن المعرفة والوقوف ، ولعل اختياره للاشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إليها بنفسها ، وجوز أن يراد بالتأويل : وقوع مدلوله ، وهو عاقبته وما يئول إليه وهو المعنى الحقيقي عند بعض ، فاتيانه حينئذ مجاز عن تبينه وانكشافه ، أي ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل مافيه من الإخبار بالغيوب ، حتى يظهر أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ، ومن جهة الإخبار بالغيوب ، وهم فاجئوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، ويتفكروا في معناه ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة »[1] .

المثال الرابع :

وفي تفسير قول الله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين »[2] يذكر لنا أبو الفضل الإيراني معنى لكلمة (الجبل) لاوجود له في لغة العرب فيقول : « اعلم - أيها الحبيب اللبيب — أن أهل البيان كثيراً ما أطلقوا في عباراتهم لفظ (جبل) على أكابر الرجال استعارة ، سواء كانوا من صناديد الدولة والملك ، أو من فروع أهل العلم والفضل ، كما أطلق أمير المؤمنين — عليه السلام — على مالك بن الحارث

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١١ ص ١١٩ ، ١٢٠ بشيء من التصرف في النقل .

(٢) سورة الأعراف : ١٤٣

النخعى المعروف بالأشتر ، لما اشتهر ذكر وفاته ، وأخبر بمماته ، ومقامه - عليه السلام - معلوم لديك في الفصاحة والبراعة ، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة وعبارته هذه مذكورة فى (نهج البلاغة) ، وهذه استعارة فى غاية المناسبة واللطافـة ، حيث أن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد ، لاستقرار أرض المعارف والديانة ، أو الأمـة والدولة ، وكثيراً ما أطلقه داود عليه السلام فى مزاميره ، وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل فى كتبهم على الرب تعالى ، كما جاء فى مزمور (٤٢) : (أقول لله صخرتى : لماذا نسيتنى) وجاء فى مزمور (٧١) : (كن لى صخرة وملجأ أدخله دائماً ، أمرت بخلاصى لأنك صخرتى وحصنى) إلى كثير من أمثالها ، فاذا عرفت هذا فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤية الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله ، كما يدلك عليه قوله تعالى : « أرنا الله جهرة »[1] إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان ، فى مكانهم من الإذعان واليقين ، ولكنهم بسبب عـدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين ، من العلم والمعرفة واليقين ، فلا بد وأن تندك جبال وجودهم ، ويتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه ، فيتبدل إيمانهم بالكفر ، ويقينهم بالشك ، وإقبالهم بالإعراض ، حيث لم تكمل بعد مراتب عرفانهم ، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم ، فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء ولم يصعدوا إلى درجة الاستقرار والبقاء ، فلا بد من ظهور الأنبياء وقيام الأصفياء ، لتربية أشجار الوجودات البشرية ، وتكميل معارفهم بالإيمان على مر الدهور وطى العصور ، حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والاستقرار ، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض والسماء ، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة واللقاء ، فخلاصة تفسير الآية الكريمة : أن موسى عليه السلام قال رب أرنى أنظر إليك ، حيث إن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى ، فأجابه الله تعالى بأنك لن ترانى ، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد إلى درجة كمال

---

(١) سوره النساء : ١٥٣

وبجبروتهم ، ولم يستعدوا للقاء معبودهم ، فانظر إلى جبال الوجودات ، ومقادير استقرار الإيقان ، فان استقر جبل الوجود فى مقام إيمانه وإيقانه حين تجلى المعبود ، ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود ، حينئذ استعد للقاء الله ، واستحق للوقوف بين يدى الله ، والتشرف برؤية الله ، ثم تجلى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان من رؤساء الشعب ، ومن جبال الإيمان والإيقان ، فاندك وجوده ، وتضعضع إيمانه ، واضطرب إيقانه ، فانصعق موسى من ذلك الامتحان ، وعرف مقدار صعوبة الافتتان ، فندم على ما سأل الرؤية للطالبين ، ورجع في الحين ، وقال : « سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين »(1) .

فأنت ترى هنا أن هذا الرجل قد صرف لفظ (الجبل) عن معناه الأصلى — وهو الذى ورد فى الأخبار من أنه جبل طور سيناء — إلى معنى مجارى — وهو الرجل الذى يكون إيمانه راسخاً ويقينه ثابتاً — من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، ولعل الذى دفعه إلى هذا التأويل المنحرف هو أنه يؤمن — كغيره من البهائيين — أن الله لا يتجلى بذاته ، وإنما يتجلى فى صور الأنبياء ، وأن تجليه الأعظم إنما هو فى ظهور (البهاء) ، ويصور لنا عباس (عبدالبهاء) هذه العقيدة الضالة فيقول: « وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجىء رب الجود والرب الأزلى ومخلص العالم الذى لا بد منه فى آخر الزمان ، كما أنذر جميع الأنبياء عبارة عن تجليه فى الهيكل البشرى ، كما تجلى فى هيكل (عيسى) الناصرى ، إلا أنه تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى ، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم » يريد بهذا أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم، وقال مهذارهم أبو الفضل الإيرانى : « فكل ما توصف به ذات الله ، ويضاف ويسند إلى الله من العزة والعظمة ، والقدرة والعلم ، والحكمة والإرادة والمشيئة وغيرها من الأوصاف

---

(1) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ٢٧١ ، ٢٧٢

والنعوت إنما يرجع بالحقيقة إلي مظاهر أمره ، ومطامع نوره ، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره »[1] .

وبعد فنكتفي بهذه الأمثلة من تحريفات البهائية في التفسير ، وهي إن دلت على شيء فانما تدل على مقدار ماوصل اليه هؤلاء الناس من سخافة التفكير ، وسماجة التعبير ، وجهالة العقل ، وسفاهة الرأى ، نسأل الله أن يجنبنا الزلل في القول والعمل ، إن ربي سميع مجيب ، والآن ننتقل إلى نوع آخر من التحريفات ، وهي تحريفات القاديانية في التفسير . والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) القديانية والبهائية ص ١٤ ، ١٥

(ثانياً) القاديانية

القاديانية نحلة ضالة ظهرت فى القرن التاسع عشر الميلادى بالهند ، على يد رجل يدعى الميرزا غلام أحمد القاديانى .

وقد ولد غلام أحمد هذا سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٩م) ، وكان آباؤه الأولون يسكنون (سمرقند) ، ثم رحلوا إلى الهند ، واستوطنوا قرية (قاديان) بها ، وصارت لهم الرياسة فى تلك الناحية ، ثم دارت عليهم الدوائر ، وانهالت عليهم المصائب ، وذهبت عنهم تلك الرياسة ، ونهبت أموالهم ، إلى أن جاء عهد الاحتلال البريطانى للهند ، فرد إلى أبيه بعض القرى ، وأعاد له شيئاً من المجد القديم .

ولما بلغ غلام أحمد أشده تلقى فى (قاديان) مبادىء العلوم ، ومنها الطب والمنطق والفلسفة ، واشتغل بالوظائف فترة من الزمن ، وقد أصيب فى شبابه بلوثة عقلية ، ونوبات عصبية حادة ، وكان يتداوى من مرضه بالأدوية وبعض المواد المسكرة[١] .

وفى سنة ١٨٧٦ م مرض أبوه ، فزعم غلام أحمد أنه نزل عليه وحى من الله بأن أباه سيموت فى الغروب ، وكان هذا الإخبار — فى زعم أتباعه — أول وحى نزل عليه ، وأخذ بعد هذا يصرح ببعض آراء ، زاعما أنه يتلقاها من طريق الوحى ، وكان المسلمون يلاقون هذه المزاعم بالإنكار الشديد[٢].

---

(١) الحركات الهدامة — القاديانية ص ٨ ط رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة .

(٢) القديانية والبهائية ص ٢٥٠ .

وقد زعم فى أول الأمر أنه مكلف من الله تعالى باصلاح الخلق على نهج المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وأن له إلهامات ومكاشفات إلهية يشهدها من يحضر إليه بقاديان ، وتدرج من ذلك إلى ضلالات أخرى وهى :

١ — أن روح المسيح قد حلت فيه .

٢ — وأن ما يلهمه هو كلام الله كالقرآن الكريم والتوراة والإنجيل

٣ — وأن المسيح سينزل آخر الزمان فى (قاديان) .

٤ — وأن (قاديان) البلدة المقدسة المكنى عنها فى القرآن بالمسجد الأقصى ، وهى الثالثة بعد مكة والمدينة .

٥ — وأن الحج إليها فريضة .

٦ — وأنه قد أوحى إليه بآيات تربو على عشرة آلاف آية .

٧ — وأن من يكذبه كافر .

٨ — وأن القرآن ومحمدا وسائر الأنبياء قبله قد شهدوا له بالنبوة ، بل عينوا زمن بعثته ومكانها إلى غير ذلك من الضلالات[1] .

وهذا المذهب القادياني الذى نادى به غلام أحمد يعتبر ولا شك ثورة على النبوة المحمدية والإسلام . وهذا هو أحد علماء المسلمين فى الهند — وهو العلامة أبو الحسن الندوى — رئيس ندوة العلماء بالهند يحدثنا حديثا مستفيضا عن ضلالات هذا المذهب ، وخطورته على الإسلام ، ويستدل على ذلك بكلام القاديانيين أنفسهم ، فيقول : « والحق أن القاديانية — مع الأسف — لم يفطن العالم الإسلامى لخطرها بعد ، ولم يتنبه إلى أنها ليست مجرد عقيدة ، أو طائفة دينية فحسب . وإنما هى مؤامرة منظمة ضد النظام الإسلامى القائم ، وثورة ماكرة على الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ، ومعاندة له ، إنها تزاحم الإسلام فى كل شىء ، وتريد أن تحل محله فى العقيدة والفكر

---

(١) الحركات الهدامة — القاديانية ص ٨ ، ٩ .

والفاطمة ، وأن تستولي على نصيبه من الطاعة والحب والاحترام والتقديس، إنها تتبجح باعلان تفضيل الغلام القادياني على أكثر الأنبياء أولي العزم من الرسل فضلا عن الصحابة وأولياء هذه الأمة ومجدديها وأئمتها ، ولا تعترف بفرق بين أصحابه وأصحاب النبي ﷺ إنها تقول بمساواته لسيد المرسلين ﷺ وزيادة ، ومساواة خلفائه للخلفاء الراشدين ، ومساواة بلده (قاديان) بمكة والمدينة — شرفهما الله — ومساواة الحج إلى (قاديان) بالحج إلى مكة ، ففي كتاب (حقيقة النبوة) لمرزا بشير أحمد الخليفة الثاني : « إن غلام أحمد أفضل من بعض أولي العزم من الرسل (ص ٢٥٧) وفي صحيفة (الفضل) — المجلد الرابع عشر - (٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧): « إنه كان أفضل من كثير من الأنبياء ، ويمكن أن يكون أفضل من جميع الأنبياء » وفي صحيفة (الفضل) - المجلد الخامس — : « لم يكن فرق بين أصحاب النبي ﷺ وتلاميذ مرزا غلام أحمد ، إلا أن أولئك رجال البعثة الأولى ، وهؤلاء رجال البعثة الثانية » (عدد ٩٢ يوم ٢٨ مايو سنة ١٩١٨) وفي صحيفة (الفضل) — المجلد الثالث - : « مرزا هو محمد ﷺ ، وهو مصداق قوله : « اسمه احمد » (أنوار الخلافة ص ٢١) بل وتقول بفضله على سيد الأولين والآخرين — عليه الصلاة والسلام — فيقول غلام أحمد نفسه في الخطبة الإلهامية (ص ١٧٧) : « لقد تجلت روحانية النبي ﷺ في الألف الخامس (كذا) بصفات إجمالية ، ولم تكن الروحانيات قد بلغت غايتها وأوجها في ذلك العهد القاصر ، بل كانت الخطوة الأولى في سبيل ارتقائها وكمالها ، ثم تجلت هذه الروحانيات في الألف السادس ، زمن المسيح الموعود (غلام أحمد) في أبهى حللها ، وأرقى مظاهرها » ويزيد فينشد متطاولا :

له خسف القمر المنير وإن لي غسا القمران المشرقان أتنكر

ومما جاء في فضل مدفن (غلام أحمد ومساواته لمدفن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم في كتب القاديانيين وصحفهم مانشرته صحيفة (الفضل) في

عدد (١٨٤٨) من المجلد العاشر الصادر فى ديسمبر سنة (١٩٢٢) إعلاناً عن قسم التربية فى (قاديان) : « إن الذى يزور قبة المسيح الموعود البيضاء يساهم فى البركات التي تختص بقبة النبي الخضراء في المدينة ، فما أشقى الرجل الذى يحرم نفسه من هذا التمتع فى الحج الأكبر إلى قاديان » ويعتقد القاديانيون أن (قاديان) هى ثالثة المقامات الثلاثة المقدسة ، يقول محمود أحمد خليفة قاديان: « لقد قدس الله هذه المقامات الثلاث (مكة والمدينة وقاديان) واختار هذه الثلاث لظهور تجلياته » الفضل ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥) وتتقدم القاديانية خطوة أخرى ، فتطبق على (قاديان) مانزل من الآيات فى بلد الله الحرام والمسجد الأقصي المبارك، يقول غلام أحمد - فى حاشيته على(براهين أحمدية) -: إن قوله تعالى : « ومن دخله كان آمنا »[1] يصدق على مسجد قاديان (ص ٥٥٨) ، ويقول فى شعر ماترجمته بالعربية :« إن أرض قاديان تستحق الاحترام ، وأنها من هجوم الخلق أرض الحرم»[2] (در ثمين — مجموع كلمات غلام أحمد ص ٥٢) وجاء فى صحيفة (الفضل) — المجلد العشرين عدد (٣٣) - : « أن المراد بالمسجد الأقصي فى قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » هو مسجد قاديان ، وإذا كانت (قاديان) تناهض البلد الحرام ، وربما تفوق عليه ، فلا بد أن السفر إليها يساوى الحج بل يفوق عليه، وقد جاء فى صحيفة (الفضل) — المجلد العشرين — عدد (٦٦) : « الحج إلى قاديان حج ظلى إلى البيت الحرام » وزادت على ذلك صحيفة (بيغام صلح) لسان حال الفرع اللاهورى فنشرت : « إن الحج إلى مكة بغير الحج إلى قاديان حج جاف

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧

٢) أي أن المستعمرين الإنجليز لما كانوا فى زمانه محتلين الديار الهندية تعهدوا له بحماية أرض (قاديان) من اقتحام المسلمين لها ، فهى أرض حرم بحماية الإنجليز لها ، كما أن مكة أرض الحرم بحماية الله لها .

خشيب ، لأن الحج إلى مكة اليوم لا يؤدى رسالته ولا يفى بغرضه » المجلد ٢١ عدد ٣٣) وهكذا ترشح القاديانية نفسها لتكون دينا عالميا له نبيه وأصحابه وخلفاؤه ومقدساته وتاريخه وشخصياته وأدبه ، وتقطع صلة أتباعها ومعتنقيها عن التراث الإسلامى الخالد ، وعن التاريخ الإسلامى ، وعن الشخصيات الإسلامية ، وعن منابع الإسلام الأولى ومصادره ، وعن المقدسات الإسلامية ، وعن مركز الإسلامى الروحى »(١) .

وعندما ظهر هذا الرجل فى الهند ، وأخذ يدعو الناس إلى هذه الضلالات والخرافات تصدى علماء الإسلام فى الهند له ، وكشفوا للناس عن كذبه وافترائه وفساد دعواه ، وحذروا الناس من طاعته واتباعه ، ويشرح لنا العلامة أبو الحسن الندوى هذه الجهود المشكورة التى قام بها علماء المسلمين فى الهند لمقاومة هذا الرجل الضال وكشف ألاعيبه وأكاذيبه فيقول : « وقد فزع لهذه الفتنة القاديانية علماء الإسلام وقادة الفكر فى الهند فحاربوها بأقلامهم وألسنتهم وعلمهم ، وذلك أقصى ما كان يمكن فى عهد الدولة الانجليزية التى تبنت هذه الديانة والجماعة ، وكان فى مقدمة هؤلاء المجاهدين الشيخ محمد حسن البتالوى ، ومولانا محمد على المونكيرى مؤسس ندوة العلماء ، والشيخ ثناء الله الأمر تسرى . والشيخ أنور شاه الكشميرى ، ومن أنشط الجمعيات والجماعات فى محاربة هذه الفئة الباغية جمعية الأحرار ، وعلى رأسها وفى مقدمتها الخطيب المصقع السيد عطاء الله البخارى الأمر تسرى ، ومن هؤلاء الموفقين المفكر الإسلامى العظيم الدكتور محمد إقبال الذى صرح فى مؤلفاته بأن القاديانية ثورة على نبوة محمد ﷺ ، ومؤامرة ضد الاسلام ، وديانة مستقلة ، وأن القاديانية أمة وحدها ليست جزءاً من الأمة الاسلامية العظيمة ، ولا يخفى أن الدكتور محمد إقبال هو من كبار المثقفين المنورين الذين أنجبهم العالم الاسلامى فى العصر الأخير ، ومن كبار الدعاة إلى الاتحاد الاسلامى المتمسكين

---

(١) الحركات الهدامة ــ القاديانية ص ٣٩ وما بعدها .

بمبدأ التسامح ، ولكنه – بحكم المجاورة[1] ولاطلاعه الواسع الدقيق على الديانة القاديانية وأهدافها ومراميها – كان من أكبر المنكرين عليها ، وهو أول من دعا إلى فصل القاديانيين عن المسلمين ، واعتبارهم أقلية غير مسلمة ، وإلى القارىء بعض المتقطات من محاضراته ومقالاته : قال الدكتور في رسالة وجهها إلى كبرى صحف الهند الانجليزية التي أثارت هذه المسألة : « إن القاديانية محاولة منظمة لتأسيس طائفة جديدة على أساس نبوة منافسة لنبوة محمد ﷺ » وجاء في رده على كلمة البندت (جواهر لال نهرو) رئيس وزراء الهند الراحل الذي تساءل : لماذا يلح المسلمون على فصل القاديانية عن الاسلام ، وهي طائفة من طوائف المسلمين الكثيرة ؟ قال الدكتور : « إن القاديانية تريد أن تنحت من أمة النبي العربي ﷺ أمة جديدة للنبي الهندي » وذكر أنها أشد خطراً على الحياة الاجتماعية للاسلام في الهند من عقائد (اسبنوزا) الفيلسوف اليهودي الثائر على نظام اليهود »[2].

ولاغرو في أن يتصدى علماء الاسلام للقاديانية كمذهب منحرف ونحلة شاذة ، فان القاديانية – بالاضافة إلى ماذكرنا – صنيعة من صنائع السياسة الغربية ، وقد حظيت القاديانية بأعظم رعاية من الانجليز إبان حكمهم للهند ، كما حظيت بالتعاطف والتأييد من الهندوس عباد البقر ، فقد رحب الزعماء الوطنيون في الهند بالفكرة القاديانية ، لأنها تفيض على الهند القداسة ، وتولي وجه المسلمين شطر الهند عوضاً عن الحجاز ، فيتخذونها قبلة ومركزاً روحياً ، وقد كان بعض الصحف الهندوكية الكبيرة تذكر أن الخلاف في باكستان بين القاديانيين والمسلمين صراع وتنافس بين النبوة العربية وأتباعها والنبوة الهندية وأتباعها[3] .

---

(١) يشترك (غلام أحمد) مؤسس القاديانية والدكتور محمد إقبال في أن كليهما من أقليم البنجاب بالهند، وصاحب البيت أدرى بما فيه (ولا ينبئك مثل خبير) .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩ بالهامش .

أما عن العوامل التي ساعدت على قيام هذا المذهب فيرى الدكتور محمد البهى أنه جاء كأثر لتوجيه الاستعمار الغربى ، وأن الدعوة التى دعا إليها السيد أحمد خان فى الهند باسم الاصلاح والتقدمية تعتبر مقدمة وتمهيدا لنشأة القاديانية ، وفى ذلك يقول الدكتور محمد البهى : « بقيت تعاليم السيد أحمد خان وآراؤه ذات طابع إصلاحى ، ولم تصبغ بصبغة العقيدة والمذهب الروحي ، فمهما بلغت من التأثير فسيبقى مجال للروح الإسلامية الصحيحة تظهر فيه ، وتعمل عملها فى عدم تنسيق العلاقة بين المسلمين وبين ولاتهم من المستعمرين الصليبيين الغربيين ، أدرك الانجليز ذلك وأحسوا مع نشاط السيد أحمد خان وأثر تعاليمه فى خلق جماعة بين المسلمين تتشكك فى القيم الاسلامية ، وتنازل مواطنيهم ومن هم على عقيدتهم منازل الخصومة الفكرية ، فتتفرق الكلمة ، وتبعد مشكلة الاستعمار الأجنبي عن أن تكون موضوعاً من موضوعات هذه الخصومة ولو إلي حين ، أدركوا وأحسوا أنهم بحاجة إلى تعديل فى الروح الأصيلة وفى موقفها من غير المسلمين ، على أن يكون هذا التعديل ، أو على أن يصبح مذهباً وعقيدة ، له سمة الإيمان والاعتقاد ، بدلا من سمة الفكر والمنطق ، وبذلك تصبح الفجوة بين المسلمين أعمق وأطول مدى ، فاذا كان هذا التعديل لصالح الاستعمار فسيجد أعواناً من المسلمين أنفسهم على المسلمين، وتلك حالة مرغوب فيها لاطمئنان الاستعمار على مصالحه حينئذ فترة طويلة ، إلى أن يجد عامل آخر أقوى من الدين نفسه يجمع الكلمة المفرقة ، وينسى الخصومة فى المذهب والاتجاه الفكرى ، فقامت (القاديانية) ، وسجل هذا المذهب رسمياً فى سنة ١٩٠٠م وله أتباع فى البنجاب وأفغانستان وإيران ، ولسان حال هذه العقيدة (مجلة الأديان) بالانجليزية ، والتى تصدر كل شهر مرة فى (قاديان) منذ ١٩٠٢ ، وصاحب هذا المذهب — وهو ميرزا غلام أحمد — ألف كتاباً سماه : (براهين الأحمدية) وخرج الجزء الأول منه سنة ١٨٨٠ وفى هذا الجزء ادعى المؤلف أنه المهدى ، ويختلف هذا المذهب مع الإسلام الأصيل فى جملة مسائل منها : أن عيسى هاجر بعد أن بعث من موته الظاهرى إلى (كشمير) فى الهند ، لينشر تعاليم الإنجيلى فى البلاد ،

وأنه توفى بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وأن قبره لم يزل موجوداً هناك ، وفى ادعاء ميرزا غلام أحمد أنه المهدى يذكر أنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء فهو نبي ، ومن هذه المسائل أيضاً مسألة الجهاد فى سبيل الله ، فليس الجهاد هو اللجوء إلى القسوة واستخدام أدوات الحرب ، ضد غير المؤمنين ، وإنما هو وسيلة سلمية للاقناع ، وبرأى القاديانية فى هاتين المشكلتين على هذا النحو قربوا شقة الخلاف بين المسيحية والإسلام، أوأدمجوا أحدهمافى الآخر، ثم من جهة أخرى أعلنوا إبطال الجهاد المعروف على عهد الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين »[1] .

ومن هذا يتبين لنا أن القاديانية وليد غير شرعى للسياسة البريطانيـة فى الهند ، وأنها صورة من صور الاتجاه الفكرى الممالىء للاستعمار الغربى ، ويشرح لنا العلامة أبو الحسن الندوى أبعاد هذه الصلة المشبوهة والعلاقة المريبة التى تربط غلام أحمد وجماعته بالانجليز فيقول : « قد تحقق علميـاً وتاريخياً أن القاديانية وليدة للسياسة الانجليزية ، فقد أهم بريطانيا وأقلقها حركة المجاهد الشهير السيد الإمام (أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) ، وكيف ألهب شعلة الجهاد والفداء ، وبث روح النخوة الإسلامية والحماسة الدينية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر المسيحى ، وكيف التف حوله وحول دعاته آلاف من المسلمين عانت منهم الحكومة الانجليزية فى الهند مصاعب عظيمة ، وكانوا موضع اهتمامها ، ورأت السيد محمد أحمد السودانى يقوم فى السودان باسم الجهاد والمهدوية ، فكاد يقضى على الحكم الانجليزى فى السودان ، وكانت شرارة دينية حسب لها الانجليز كل حساب ، ثم رأت دعوة السيد جمال الدين الأفغانى تنتشر فى العـالم الإسلامى ، كل ذلك رأته الحكومة الانجليزية ودرسته ، وعرفت أن طبيعة

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٧ ، ١٨ ط مخيمر .

المسلمين طبيعة دينية ، فالدين هو الذى يثيرها ، والدين هو الذى يخدرها ، وأن المسلمين لا يؤتون إلا من قبل العقيدة والاقناع الدينى وما يكون له طابع دينى . واقتنعت أخيراً بأنه لا يؤثر فى المسلمين وفى اتجاههم مثلما يؤثر قيام رجل منهم باسم منصب دينى رفيع ، ويجمع حوله المسلمين ، ويخدم سياسة الانجليز ، ويؤمنهم من جهة المسلمين وغائلتهم ، وفى شخص مرزا غلام أحمد القاديانى — الذى كان مضطرب الأفكار والعقيدة ، وكان طموحاً إلى أن يؤسس ديانة جديدة ، ويكون له أتباع ومؤمنون ويكون له مجد واسم فى التاريخ مثلما كان للنبى ﷺ — وجد الانجليز وكيلا لهم يعمل بين المسلمين لمصلحتهم ، ولم يزل يتدرج من التجديد إلى المهدوية ، ومن المهدوية إلى المسيحية ، ومن المسيحية إلى النبوة ، حتى تم ما أراده الانجليز ، وقام القاديانى بدوره وبما كلف به خير قيام ، وحماه الانجليز ، ومكنوه من نشر دعوته ، وحفظ القاديانى هذه اليد ، وعرف الفضل للانجليز فى ظهوره ، وقد صرح فى بعض كتاباته بأنه غرس غرسته الحكومة الانجليزية ، وقد ذكر فى مؤلفاته بكل صراحة - بل بكل وقاحة - مايدين به للحكومة الانجليزية من الولاء والوفاء ، وما قام لها به من خدمة مشكورة ، وإليك ترجمته حرفياً : « لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها ، وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات مالوجمع بعضها إلي بعض لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر والشام وكابل والروم» (ترياق القلوب — تأليف غلام أحمد القاديانى ص ١٥) .

ويقول فى محل آخر : « لقد ظللت منذ حداثتى — وقد ناهزت اليوم الستين — أجاهد بلسانى وقلمي لأصرف قلوب المسلمين إلى الاخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها ، والعطف عليها ، وأنفى فكرة (الجهاد) التي يدين بها بعض جهالهم ، والتي تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة » (ملحق بكتاب : شهادة القرآن — من قلم غلام أحمد القاديانى — الطبعة السادسة ص ١٠) .

ويقول في نفس الكتاب : « أنا مؤمن بأنه كلما ازداد أتباعي و كثر عددهم قل المؤمنون بالجهاد ، لأنه يلزم من الايمان بأني مسيح أو مهدي إنكار الجهاد » . (ص ١٧) وقال في محل آخر : « لقد ألفت عشرات من الكتب العربية والفارسية والأردية ، و بينت فيها أنه لا يحل الجهاد أصلا ضد الحكومة الانجليزية التي أحسنت إلينا ، بل — بالعكس من ذلك — يجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة بكل إخلاص ، وقد أنفقت على طبع هذه الكتب أموالا كبيرة ، وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية ، وأنا عارف أن هذه الكتب قد أثرت تأثيراً عظيما في أهل هذه البلاد (الهند) ، وقد كون أتباعي جماعة تفيض قلوبهم إخلاصا لهذه الحكومة والنصح لها ، إنهم على جانب عظيم من الإخلاص ، وأنا اعتقد أنهم بركة لهذه البلاد ، ومخلصون لهذه الحكومة ومتفانون في خدمتها » . (من رساله مقدمة إلى الحكومة الانجليزية بقلم غلام أحمد) وقد أمدت هذه الحركة وهذه الفئة الحكومة الانجليزية بخير الجواسيس لمصالحها ، وبأصدقاء أوفياء ، ومتطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة الانجليزية ومن خيار رجالها ، خدموا الحكومة الانجليزية في الهند وخارج الهند ، وبذلوا نفوسهم ودماءهم في سبيلها بسخاء ، كعبد اللطيف القادياني الذى كان في (أفغانستان) يدعو إلى القاديانية ، ويستنكر الجهاد ، وخافت حكومة (أفغانستان) أن تقضي دعوته على عاطفة الجهاد والروح الحربية التي يمتاز بها الشعب الأفغاني فقتلته ، كذلك الملا عبدالحيم والملا نور على القاديانيان عثرت الحكومة الأفغانية عندهما على رسائل ووثائق تدل على أنهما وكيلان للحكومة الانجليزية ، وأنهما يدبران مؤامرة ضد الحكومة الأفغانية ، وكان جزاؤهما القتل ، كما صرح بذلك وزير داخلية (أفغانستان) سنة ١٩٢٥ م و نقلت ذلك جريدة (الفضل) وهي صحيفة القاديانيين الرسمية بسرور وإعجاب في ٣ مارس من ذلك العام »(١) .

---

(١) الحركات الهدامة — القاديانية ص ٢٢ وما بعدها .

هذا – وقد انقسمت القاديانية بعد وفاة غلام أحمد وخليفته نور الدين – إلى فرقتين : فرقة (قاديان) وزعيمها محمود بن غلام أحمد ، وفرقة (لاهور) ورئيسها محمد على مترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية ، أما فرقة (قاديان) فأساس عقيدتها أن غلام أحمد نبي مرسل ، وأما فرقة (لاهور) فظاهر مذهبها أنها لا تثبت النبوة لغلام أحمد ، بل تقول إنه مصلح دينى أو مجدد للإسلام ، فهذه الفرقة تميل إلى الاعتدال بعض الشيء فى عقيدتها ، غير أن كتب غلام أحمد ورسائله تفيض بادعاء النبوة فلماذا يصنعون ؟

قال الشيخ محمد الخضر حسين – رحمه الله – : «ولشعبة (لاهور) ضلالة يبثونها فى كتبهم هى إنكار أن يكون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ، وزعيم هذه الشعبة (محمد على) يصرح بأن عيسى عليه السلام ابن يوسف النجار ، ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذه العقيدة ، ونشرت مجلتهم الإسلامية التى تصدر فى (دو كنج) بانكلترة مقالا للدكتور (مركوس) ، وفى هذا المقال : « أن محمدا عليه السلام يصرح بأن يوسف أبو عيسي عليه السلام » ولم يعلقوا على هذه الجملة كلمة لأنها جاءت على وفق نحلتهم ، وكذلك كان محمد على – فى ترجمته للقرآن – ينهب مذهب الترجمة الحرفية ، ثم يضع فى أسفل الصحيفة حواشي يؤول فيها ما ترجمه حرفياً ، ويرتكب فى تأويلها وجوها يحذو بها حذو نحلتهم ، كما فعل فى قوله تعالى : « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله »[1] فقد نحا فى تأويلها نحو منكرى المعجزات ، وتصرف فى معانيها تصرف من لا يدرى أن القرآن قد نزل بلسان عربى مبين »[2] .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٢) القاديانية لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ص ٣٠، ٣١ ط مجمع البحوث الإسلامية .

ومماهو جدير بالذكر أن القاديانيين الآن يمثلون خطراً جسيماعلى الدولة الإسلامية في (باكستان) ، فقد استطاعوا بمساعدة الانجليز الذين قسموا الهنـد إلى دولتين أن يتغلغلوا فى كثير من الوظائف فى دولة (باكستان) ، وأن يكونوا لهم إمارة خاصة بهم تسمي بالربوة[1] ، مما جعل المسلمين في (باكستان) يضجون بالشكوى من تسلط القاديانيين وتغلغلهم ، ويطالبون الحكومة الباكستانية بفصل القاديانية عن المجتمع الإسلامي ، واعتبارها أقلية غير مسلمة ، وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن النـدوى : « وكان أشد من ذلك وأعظم خطرا أن القاديانيين تسربوا فى الجيوش الباكستانية واحتلوا مناصب خطيرة فى الجيش وفى البوليس ، وفى مصلحة الطيران وكونوا فيها أكثرية ساحقة ، بحيث يستطيعون أن يحـدثوا ثورة فى مصلحتهم ، ويقبضوا على زمام الحكم متي شاءوا ، وقد كونوا إمارة حرة فى (بنجاب) تسمى (الربوة) وهى مستعمرة قاديانيـة لا توظف فيها الحكومة غير قاديانى أبدا ، حتي على محطة الربوة ، ويمكن أن تشبه الربوة فى باكستان باسرائيل فى فلسطين ، وكلاهما جاثم على صدر المسلمين وقائم منهم بالمرصاد ، كل ذلك أفزع المفكرين المسلمين فى باكستان ، ورأوا فيه الخطر المحدق على باكستان وسيفا مصلتا على رقبتها ، ووكالة للمصالح البريطانية فى صميم البلاد ، وسوسا ينخر فى الصرح الإسلامى ، خلافا لقوله تعالي : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »[2] فرأوا أن الحل الحاسم لهذه المشكلة أن تفصل القاديانية المحتلة عن المجتمع الإسلامى ، وأن تعاملها الحكومة كأقلية غير مسلمة ، وهى الفكرة التى دعا إليها الدكتور محمد اقبال — رحمه الله — بقوة وصراحة ، وكررها

---

(١) سموها بالربوة ليطبقوا عليها قوله تعالي : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) وهذا هو المنطق القاديانى المعروف .

(٢) سورة آل عمران : ١١٨ .

في محاضراته ومقالاته ورسائله ، وقد صرح بأن القاديانية أبعد عن الإسلام من السك متعصبي الهنادك ، وقد جعلتهم الحكومة الانجليزية أقلية غير هندوكية رغم ما بين هذه الأقلية والهنادك من صلات اجتماعية ودينية وثقافية وأنهم يتناكحون فيما بينهم ، بينما القاديانية تحرم مناكحة المسلمين ومصاهرتهم ، وقد حظر عليهم مؤسسهم كل ارتباط بالمسلمين بقوله : «إن المسلمين لبن فاسد ونحن اللبن الطازج » رأى المسلمون في باكستان كل هذا، وآمنوا بأنه لا يمكن أن تكون دولتهم حرة فى سياستها وتصرفاتها وفى تنفيذ ما تقتضيه مصالحها السياسية وطبيعتها الإسلامية إلا إذا تحررت — فى سياستها وداخليتها — من النفوذ الأجنبي ووكلائه ، وقد كان لياقت على خان — رحمه الله — قد بدأ يشعر فى آخر حياته بهذا الخطر ، وكان غير مرتاح لهذا الوضع ، ثم كان شعوره هذا من أسباب اغتياله كما يقول المطلعون ، كل ذلك حمل الجماعات الإسلامية والأحزاب المختلفة ، والشخصيات الدينية على الاهتمام بهذه المسألة ، فاجتمع منهم ثلاثة وثلاثون ممثلا من رؤساء الجمعيات والجماعات الدينية وكبار علماء باكستان فى يناير عام ١٩٥٣ فى (كراتشى) ، وطلبوا من الحكومة أن تجعل القاديانيين أقلية غير مسلمة لها حقوقها ، وأن تخصص لهم ما يستحقون حسب عددهم من المقاعد فى البرلمان الباكستانى،وما يستحقون من الوظائف فى مختلف المصالح والإدارات حتى لا يستولوا على أداة الحكومة والجهاز الإدارى فى باكستان ، ولا يضايقوا المسلمين فى دولتهم التى أسسوها بدمائهم وأشلائهم »(١)

وبعد :

فلعلك — بما قدمناه لك عن القاديانية — تكون قد وقفت على ضلالاتها والمزاعم الفاسدة التى نادت بها ، وعرفت الظروف السياسية التى أوجدتها وأدت الى قيامها ، وفهمت الأخطار التي تهدد المسلمين من وجودها فى باكستان ، وننتقل الآن إلى ذكر طرف من تحريفاتها فى مجال التفسير ، والله ولى التوفيق .

---

(١) الحركات الهدامة — القاديانية ص ٣٤ ومابعدها .

أمثلة من تحريفات القاديانية فى التفسير

للطائفة القاديانية تحريفات كثيرة فى مجال التفسير ، ولا سيما بالنسبة لتفسير الآيات التى تتعلق بموضوع النبوة، والتى يزعم بعضهم أنها تؤيدهم فيما يعتقدون من نبوة (غلام أحمد) ، ضاربين عرض الحائط بالآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة التى تفيد — بصورة قاطعة — أن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين ، وأنه لا نبى بعده ، وسنكتفى هنا بذكر أمثلة من تحريفاتهم فى هذا المجال ، ونكشف النقاب عن وجوه فسادها وبطلانها ، حتى لا ينخدع بها مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإليك البيان :

المثال الأول :

فى تفسير قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»(١) ذهب أحد دعاة القاديانية إلى أن (خاتم النبيين) فى الآية بمعنى أفضل النبيين أو زينتهم ، وأورد فى الاستدلال على ذلك أمورا ، منها : أن النبى ﷺ قال للعباس رضى الله عنه «أنت خاتم المهاجرين فى الهجرة ، وأنا خاتم النبيين فى النبوة » ومنها : أن العلماء يقولون : فلان خاتم المحققين أو خاتم المجتهدين ، والمراد أفضلهم ، ومنها : أن الشيخ النجفى صاحب كتاب : (مجمع البحرين) يقول ما نصه : « ومحمد خاتم النبيين ، يجوز فيه فتح التاء وكسرها ، فالفتح بمعنى الزينة مأخوذ من الخاتم الذى هو زينة للابسه »(٢) .

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٢) انظر القاديانية المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ص ٧٣ وما بعدها .

وقد قام الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين بالرد على هذا التأويل المنحرف للآية الكريمة ، وفند هذه الشبهة التى أقيم عليها هذا التأويل ، فقال ـ رحمه الله ـ بالنسبة للاستدلال الأول : « وهذا الاستدلال مدفوع بأن الذى ورد فى كتاب (أسد الغابة) أن العباس استأذن النبي ﷺ فى الهجرة فقال له : (ياعم أقم مكانك الذى أنت فيه ، فان الله تعالى يختم به الهجرة كما ختم بى النبوة) وقرأنا فى كتاب (الإصابة) : أن العباس هاجر قبل الفتح بقليل ، وقرأنا فى غزوة الفتح من سيرة ابن هشام أن العباس رضى الله عنه لقى رسول الله ﷺ ببعض الطريق ، لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله ﷺ عنه راض ، فصاحب كتاب (الإصابة) يقول عن العباس رضي الله عنه : إنه هاجر قبل الفتح بقليل وابن هشام يقول : لقى رسول الله ﷺ بالجحفة مهاجراً بعياله ، فمتى ثبت حديث : (أنت خاتم المهاجرين) صح أن يكون العباس خاتم المهاجرين بمعنى آخرهم ، أى آخر المهاجرين من مكة إلى المدينة ، لقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » . وداعية القاديانية لم يأت بشاهد على أن بعض المسلمين قد هاجر بعد العباس ، حتى يمتنع أن يكون خاتم المهاجرين بمعنى آخرهم »[1] .

ثم قام الشيخ الخضر حسين ـ رحمه الله ـ بالرد على الاستدلال الثانى فقال: « والداعية لم يورد فى مقاله السابق شيئاً من كلام العرب يشهد بأن الخاتم إذا أضيف إلى القوم أولى المناصب كان بمعنى أفضلهم أو سيدهم ، وإنما أورد عبارات لمن لا يحتج عالم فى تفسير كتاب الله تعالى بكلامهم ، ولا تتجاوز تلك العبارات وصف أحد الرجال بأنه خاتم العلماء أو الأولياء أو الشعراء ، وماهى إلا أقوال صدرت من بعض رجال القرون المتأخرة أو القريبة منها ، وإنما يحتج فى تفسير القرآن الكريم بكلام العربى الصميم ، وهل رأيتم مجادلا أسخف قولا ممن يحتج فى بيان معنى آية من كتاب الله تعالى بما كتبته المطبعة الأزهرية على أول الصحيفة الأولى من كتاب : (الاتقان) أعنى قوله :

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨ ، ٧٩

الجزء الأول من كتاب الإتقان في علوم القرآن لخاتمة المحققين »[1].

وبعد ذلك فند المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين الشبهة الأخيرة في هذا المجال فقال: « والواقع أن الشيخ النجفي قد صرح بأن النبي ﷺ آخر النبيين فقد قال قبل هذه الكلمة التي اقتطعها الداعية: (قوله تعالى: « وخاتم النبيين » أي آخرهم ليس بعده نبي) ثم قال: (ومحمد خاتم النبيين يجوز فيه فتح التاء وكسرها، فالفتح بمعنى الزينة مأخوذة من الخاتم الذي هو زينة للابسه، وبالكسر اسم فاعل بمعنى آخر) ولما كان صاحب (مجمع البحرين) يعتقد أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء ليس بعده نبي، فقصارى أمره أن يكون أخطأ في تأويل (خاتم) على قراءة الفتح بمعنى الزينة فانه مخالف لأقوال من هم أدرى منه بتفسير كتاب الله تعالى، وبوجوه استعمال الألفاظ العربية حقيقة أو مجازاً، وهانحن أولاء نسوق إليكم طائفة من أقوال علماء اللغة الشاهدة بأن الخاتم — بفتح التاء أو كسرها — بمعنى الآخر، قال صاحب اللسان: (وخاتمهم وخاتمهم: آخرهم، ومحمد ﷺ خاتم النبيين) وقال ابن سيده في كتاب المحكم: (وختام القوم وخاتمهم وخاتمهم: آخرهم) وقال: (وفي التنزيل: « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » أي آخرهم) وقال الأزهري في كتاب التهذيب: (وخاتم كل شيء آخره، وقوله تعالى: « رسول الله وخاتم النبيين » معناه آخر النبيين) ولم يذكر أحد من هؤلاء الأئمة أو غيرهم كصاحب الصحاح وصاحب المصباح، وصاحب القاموس وصاحب أساس البلاغة أن الخاتم يكون بمعنى الزينة »[2].

وإذن فالتفسير الصحيح للآية أن خاتم النبيين بمعنى آخرهم، سواء كان بفتح التاء أو بكسرها ؛لأن الخاتم — بالكسر — اسم فاعل من (ختم)،

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣، ٧٤

(٢) المصدر السابق ص ٧٥، ٧٦

وهو الذى ختم النبيين ، والمراد به آخرهم ، والخاتم — بالفتح — اسم آلة لما يختم به ، كالطابع لما يطبع به ، فمعنى خاتم النبيين : الذى ختم النبيون به ، ومآله : آخر النبيين .

وهذا المعنى هو الذى أجمع عليه المفسرون بل أجمع عليه علماء الإسلام قاطبة ، وهو الذى يتطابق مع ماجاء فى الأحاديث الصحيحة من أنه لانبي بعد محمد ﷺ . فمن ادعي النبوة بعده عليه الصلاة والسلام فهو دجال وكذاب ، قال الحافظ ابن كثير : « وقد أخبر تعالى فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه أنه لانبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ماعلم كل ذى لب وفهم وحجا أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله ، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال »(١).

المثال الثانى :

كما زعم هذا الرجل كذلك أن قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين »(٢) يدل على عدم انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ ، مما يفسح المجال لنبوة (غلام أحمد) وأمثاله من الأدعياء ، فقال : « وعد الله فى هذه الآية بجعل الإمامة فى ذرية إبراهيم ماعدا الظالمين منها ، فهل يظن المشايخ أن ذرية إبراهيم كلها صارت فى زمرة الظالمين ، لاسيما الأمة المحمدية ، فحرمت من الإمامة الموعود بها ، أى من النعمة الاجتماعية ، ولايظنن أحد من المشايخ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٥

(٢) سورة البقرة : ١٢٤

— لأن غيرهم لا يتطرق إليه هـذا الظن — أن المراد من الإمامة فى الآية: الإمامة بالصلاة أو غيرها دون النبوة ، لأن هذه الإمامة إمامة إبراهيمية، وهى النبوة دون شك ، كما كان هو إماما بها عليه السلام ، فالنبوة باقية فى ذرية إبراهيم سوى الظالمين »(١) .

والحق أن الآية لا تدل من قريب أو بعيد على بقاء النبوة بعد محمد ﷺ ولا على عدم بقائها ، وإنما تدل فقط على أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام بأن يجعل من ذريته أئمـة يدعون إلى الهدى ، وأنبياء مكرمين ، بشرط أن لا يكونوا ظالمين ، لأن الظالمين ليسوا أهلا للامامـة والنبوة ، ويستفاد من ذلك أن النبوة إنما ينالها المؤمنون من ذريته فحسب ، وقـد تحقق ذلك بنبوة إسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، وهؤلاء جميعاً من ذرية الخليل إبراهيم عليه السلام ، أما بقاء النبوة بعـد محمد ﷺ أو عدم بقائها فهو أمر يرجع فيه إلى الدليل ، وقـد ثبت لدينا بالأدلة القطعية أن محمـداً ﷺ هو خاتم النبيين وأنه لا نبى بعـده ، وانعقد إجماع المسلمين على ذلك ، فـكل من يدعى النبوة بعده صلى الله عليه وسلم فهو ضال مضل وكذاب أشر .

يقول المرحوم الشيخ محمـد الخضر حسين — فى مقام الرد على الفرية السابقة — : « ونحن لا نمانع من أن يكون المراد من الإمامة النبوة . ولـكنا نفهم الآية على معنى أن إبراهيم عليه السلام قد طلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة أى أنبياء ، إذ قال : « ومن ذريتى » ولم يقل : « وذريتى » ، فأجابه الله تعالى بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » ، وفى هـذا عدة له بأنه سيجعل من ذريته غير الظالمين أنبياء ، فانه نفى أن ينال العهد الذى هو الإمامة الظالمين ، ولو قال فى الجـواب : (نعم) لأفاد أنه سيجعل من ذرية إبراهيم عليه السلام أنبياء ، من غير دلالة على أنهم سيكونون من المؤمنين ، ولو قال

---

(١) القاديانية ص ٥٥

في الجواب : (ينال عهدي المؤمنين) - مثلا - لم يكن فيه نص على أن الظالمين ليسوا بأهل للامامة ، ويؤخذ منه - على طريق دلالة المفهوم - أن النبوة تنال المؤمنين من ذريته ، وقد قامت الأدلة القاطعة على أن من لم يكونوا ظالمين قد يرفعهم الله تعالى إلى مقام النبوة ، كما رفع إليه إسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وقد يبقى في منزلة دونها ، كـكثير من الصالحين الذين طهرهم الله تعالى من الظلم ، ولم يدعوا النبوة في حال ، فقول داعية القاديانية : (فهل يظن المشايخ أن ذرية إبراهيم كلها صارت ظالمة) إلخ ضرب في غير مفصل ، ورمي للكلام في غير مرمى ، فان المشايخ يقولون : إن الآية واردة للدلالة على أن النبوة تجعل في غير الظالمين ، ويقولون مع هذا : الله أعلم أين يجعلها ؟ وليس في الآية دليل على بقاء النبوة في سائر العصور ، حتى في العصر الذي يستغني فيه عن النبوة والرسالة بالكتاب الذي أودع الله تعالى فيه جلائل الهداية ودقائقها ، وتكفل بحفظه وحمايته من أن يدخله تحريف ، قال تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء»[1] وقال تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[2] ومن نفى عن أمة النبوة لعدم حاجتها إليها ولقيام الأدلة على انقطاعها لم يلزمه الحكم عليها بأنها كلها صارت ظالمة ، ومن ألزمه هذا الحكم فقد خرج عن أدب البحث ، ومشى في غير طريق »[3] .

المثال الثالث :

كذلك استدل دعاة القاديانية بقول الله تعالى : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس »[4] على عدم انقطاع النبوة والرسالة بعد محمد ﷺ ، بدعوى

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨

(٢) سورة الحجر : ٩

(٣) القاديانية ص ٥٥ وما بعدها .

(٤) سورة الحج : ٧٥

أن الفعل المضارع هنا وهو (يصطفي) يفيد الاستقبال ، ويقتضي استمرار الاصطفاء دائماً ، كما أن قول الله تعالى : « ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء »[1] يدل على أن الله دائماً يجتبي من رسله من يشاء ، ومتى ثبت ذلك فان نبوة (غلام أحمد) في زعمهم إنما جاءت مصداقا لهاتين الآيتين الكريمتين.

وهذا الاستدلال فاسد ، لأن الفعل المضارع هنا لا يراد به الاستقبال ، وإنما يراد منه المضي ، والقرينة التي تصرف المضارع عن معناه الحقيقي هنا إلى هذا المعنى المجازي هي ما ثبت ـ بالدليل القطعي من الكتاب والسنة ـ من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ ، والعدول عن الماضي إلى المضارع هنا للدلالة على تجدد الفعل فيما مضى واستمراره ، واستحضار الصورة العجيبة في ذهن السامع ، كأنها مشاهدة أمامه الآن .

وقد أورد الشيخ محمد الخضر حسين شبهة القاديانية في هذا المجال ، وأتبعها بالرد عليها فقال ـ رحمه الله ـ : « ينكرون ـ يعني القاديانيين ـ أن النبي ﷺ خاتم النبيين ، ويوردون على هذا شبها لا تزن عنه أولى العلم جناح بعوضة ، كما استدلوا بقوله تعالى : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » متشبثين بأن قوله (يصطفي) فعل مضارع ، والمضارع للاستقبال ، ودفع هذه الشبهة أن الفعل الواقع في الماضي قد يعبر عنه بصيغة المضارع لمقتضيات بلاغية ، منها أن يكون للمعنى البليغ غرابة ، فان المضارع من جهة دلالته على الحال يتوسل به المتكلم إلى موضوع إخراج الحادث الغريب في صورة الواقع في الحال ، ليبلغ تعجب المخاطب من وقوعه مبلغ تعجبه من الصورة البديعة في حال مشاهدتها ، وعلى هذا الوجه ورد قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[2] قال : (فيكون) والموضع في الظاهر للماضي : (فكان) ، لأن وجود إنسان من غير أب حادث غريب ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٩

(٢) سورة آل عمران : ٥٩

فحاله يقتضي أن يعبر عنه بالمضارع لإحضاره في ذهن المخاطب ، حتى كأنه مشاهد له ، ومن دواعي التعبير عن الماضي بصيغة المضارع الإشارة إلى استمرار الفعل وتجدده فيما مضي حيناً بعد حين ، فان الاستمرار التجددى يستفاد من المضارع على ما جرى عليه استعمال البلغاء ، وصيغة الماضي لا تعرج على هذا المعنى ، فالتعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » يدل على معنى زائد على أصل الاصطفاء الذى يدل عليه الماضي ويقف عنده ، وذلك المعنى هو أن اصطفاء الرسل كان يتجدد ويقع مرة بعد أخرى ، والقرينة الشاهدة بأن (يصطفى) مراد منه الاصطفاء الواقع قبل نزول هذه الآية هي آية : « وخاتم النبيين »[1] والأحاديث المستفيضة في إغلاق باب الرسالة والنبوة ، فاستعمال المضارع موضع الماضى في كلام البلغاء خارج عن حد الإحصاء وآيات الكتاب يفسر بعضها بعضا ، كما أن السنة تبين الكتاب »[2] .

المثال الرابع :

وأيضاً استدل أحد دعاة القاديانية على بقاء النبوة بعد محمد ﷺ بقوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »[3] فقال : « هذا الدعاء يبشرنا بأن الله يجعل المؤمنين في مقام الذين أنعم عليهم سابقاً ، ويعطيهم كل نعمة أعطاها للأولين ، ويتمها عليهم ، والنعمة نعمتان : دينية ونهايتها النبوة ، ودنيوية ونهايتها الحكومة والسلطة »[4] .

والحق أن هاتين الآيتين التي استدل بهما هذا الضال لا دلالة فيهما على

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٠

(٢) القاديانية ص ٢٢ ، ٢٣

(٣) سوره الفاتحة : ٦ ، ٧

(٤) القاديانية ص ٥٧

ما يزعم من بقاء النبوة بعد محمد ﷺ ، فكل الذي تفيده هاتان الآيتان هو أن ذلك دعاء من المؤمنين لربهم أن يوفقهم ويهديهم إلى طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا يلزم من ذلك أن يرزقهم الله ما رزق بعض هؤلاء من النبوة ، كيف وقد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام ، واستمع معي إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين يرد على ما جاء في كلام هذا الضال من اللغو والهذيان ، فيقول ـ رحمه الله ـ :

« غاب هذا الداعية عن الصواب ، وانطلق يتحدث في غير علم ، ومن ذا الذي يعرف شيئاً من العربية الصحيحة أو المعتلة ، ويقرأ قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » ويفهم منها أن المناجي لله بهذه السورة يطلب أن يكون هو أو غيره من المؤمنين في مقام النبوة ، والآية لا تدل على أكثر من أن المؤمن يدعو الله تعالى في جملة المؤمنين بأن يهديه طريق من أنعم عليهم ، ومن استقام على واجبات الدين وسننه جهد استطاعته فقد اهتدى طريق المنعم عليهم ، ولا يلزم من اهتدائه لطريق المنعم عليهم من النبيين أن يرزق ما رزقوه من نعمة النبوة التي لا ينالها الناس بكثرة أعمالهم الصالحة ، إذ النبوة مقام يختص به الله من يشاء من عباده ، وما قاله هذا الداعية في هذه الآية أصله لكبيرهم الذي علمهم اللعب واللغو في تفسير القرآن الحكيم إذ قال في خطبته الالهامية : (وأنا المنعم عليه الذي أشير إليه في الفاتحة عند ظهور الحزبين) يعني المغضوب عليهم والضالين ، وقال : (إن سوره الفاتحة لتؤذن إيذاناً بأن بعض الأفراد من هذه الأمة سيظهرون بمظهر الأنبياء من كل الوجوه) ومن نكد الدنيا أن نشتغل بحكاية أمثال هذا اللغو ، وننفق وقتاً في التنبيه على أنه هذيان في هذيان »[1] .

المثال الخامس :

ومما هو شبيه بما تقدم أن يستدل هذا الرجل كذلك على بقاء النبوة بعد

---

(١) القاديانية ص ٥٨

محمد ﷺ بقوله تعالى . « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »[1] زاعماً أن قوله تعالى : « من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين » بيان لقوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول » ، ومدعياً كذلك أن هذه الآية تصرح جلياً بأن الأمة المحمدية تنال هـــذه الدرجات الأربع ، وهى النبوة والصديقية والشهادة والصلاح ، وعلى ذلك فان من يطع الله والرسول قد ينال درجة النبوة ، مثل (غلام أحمد) نبيهم الجديد .

ويعجبنى فى هذا المقام ماذكره الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى تفنيد هذه المزاعم الفاسدة ، والرد على هذا التأويل المنحرف حيث يقول : « والصواب فى فهم الآية أن قوله تعالى : « من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » هـو بيان لقوله : « الذين أنعم الله عليهم » والأصل فى كلمة (مع) المصاحبة ، والمصاحبة لا تستلزم المساواة فى الرتبة ، بل يكفى فيها الاشتراك فى دار النعيم ، مع تمكن كل واحد من رؤية الآخر وملاقاته متى يشاء ، فالآية وردت لبيان مايجازى به المطيع لله ورسوله ، وهو مرافقة الأنبياء ومن ذكر بعدهم ، وتأويلها على معنى أن من المطيعين أنبياء ، ومنهم صديقين ، ومنهم شهـداء تأويل الاية على معنى لا يتقبله إلا نفوس تلوثت باعتقاد أن (غلام أحمد) وأذنابه أنبياء صادقون ، وأما ماذكره الداعية من أن قوله تعالى : « من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » بيان لقوله تعالى : « ومن يطلع الله والرسول » فحمل للاية على وجه تتجافى عنه قوانين البلاغة ، ويكسبها تعقيداً يتبرأ منه كلام الفصحاء قبل أن يتبرأ منـه كلام خالق الفصحاء ، فعد هذا الوجه فى أخطاء قائله أولى من حشره فى شبه هى أو هى من نسج العنكبوت »[2].

وبعد :

فها هى أمثلة من تحريفات القاديانية فى التفسير ، ذكرناها وكشفنا عن

---

(١) سورة النساء : ٦٩

(٢) القاديانية ص ٥٩ ، ٦٠

وجوه فسادها وبطلانها ، وكان بودنا أن نطلع على كتب هؤلاء المارقين أنفسهم حتى نقوم كذلك بالرد على ماجاء فيها من ضلالات وجهالات ، وخرافات وافتراءات ، ولكننا لم يتح لنا الاطلاع على شيء من ذلك ، فالى أن يتاح لنا الإطلاع على هذه الكتب نكتفى بهذا القدر الذى ذكرناه عن هذا النوع من أنواع الدخيل فى التفسير .

ولعلنا - بما قدمناه لك أيها القارىء الكريم من أنواع الدخيل فى التفسير - فى الجزئين الأول والثانى من كتابنا هذا - نكون قد استعرضنا معك ما جاء من هذه الأنواع فى القديم ، أى قبل عصرنا هذا ، أما النوع الحديث من أنواع الدخيل فى التفسير وهو شطحات المفسرين العصريين فقد رأينا أن نخصص له الجزء الثالث من هذا الكتاب ، ونسأل الله سبحانه تعالى أن يوفقنا لإتمام هذا العمل ، وأن ينفع به طلاب العلم ، وأن يكتب لنا السداد والرشاد ، وأن يجعلنا من أولئك الذين يذبون عن كتابه ، ويقومون على خدمته ، ويسهرون على حراسته ، إن ربى على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

د / عبد الوهاب عبد الوهاب فايد
أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين
بالقاهرة

فهرس الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

تم الجزء الثانى من كتاب : (الدخيل فى تفسير القرآن الـكريم)

ويليه الجزء الثالث بعون الله تعالى :

كتب أخرى مطبوعة للمؤلف

١ — منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم .

٢ — دراسات فى تفسير القرآن الكريم .

٣ — محاضرات فى التفسير — بالاشتراك مع الدكتور عبد العظيم الغباشي والدكتور عبد الباسط بلبول .

٤ — دراسات فى تفسير القرآن الكريم — بالاشتراك مع الدكتور الحسينى أبو فرحة .

٥ — زاد الطالب فى التفسير — بالاشتراك مع الدكتور الحسينى أبو فرحة .

٦ — مباحث فى تفسير القرآن الكريم — بالاشتراك مع الدكتور الحسينى أبو فرحة والدكتور عبد الباسط بلبول .

٧ — علوم القرآن الكريم — بالاشتراك مع الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم والدكتور منيع عبد الحليم محمود .

تصـــــويب

الصـــواب	الصفحة	السطر
من عثمانية	٨	٧
إلى جانب ما أفسدوه	٨	١٦
الإشارة إلى هذا الرأى	١٢	١١
الباعث الحثيث	١٣	الهامش
وغيرهما ممن ألفوا فى مجال التصوف	٢٩	٧
وقد تصيدوا من هذه الأحاديث	٣٠	٦
كتاب الثقات لابن حبان	٣٧	٤
تمحلوا له تمحلات غريبة	٦٧	٧
تناولنا لبدع التفاسير	٧٠	٦
فان هذا يؤدى	٧٢	٤
بالذباب الذى يحمل الجراثيم	٨٦	٢
ذلك الذى يمسخ الآية	٩٠	١٢
والقسم بحرمتها	٩٥	١٣
إذ كان متأخراً فى المعنى	١٠٠	٢١
ذوى الفنين المذكورين	١٠٢	٢
فى التأويل الباطنى لهذه الآية	١٣٥	١
أن يكونوا أبداً جهالا	١٣٩	١٨
المتوفى سنة ٧٣٠ هـ	١٦٠	السطر الأخير
فأقامهم مقام الرسول	١٦٣	١٧
ويخلط بين الآمر والمأمور	١٧٥	السطر الأخير

الصواب	الصفحة	السطر
فرب جوهر علم	١٨٣	٢٠
إذ لا يسع عاقل	١٨٤	١٢
من ادعاء الألوهية	١٨٦	السطر الأخير
اعتقادات الصوفية	١٩٩	١
معقل البهائيين	١٩٩	١٧
رأيتهم لى ساجدين	٢٠١	١١

وهناك أخطاء أخرى قليلة لا تخفى على فطنة القارىء الكريم غير ماذكرنا.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧١/١٩٨١

الترقيم الدولى ٢ — ٢٤ — ٧٢١٧ — ٩٧٧

مطبعة الحضارة العربية - الفجالة
ت ٩٢٤١١٧